٩

اقرأ

رواية طويلة من أدب فلسطين المحتـ

تأليف الكاتبة العربية : سحر خليف

لم نعد جواري لكم

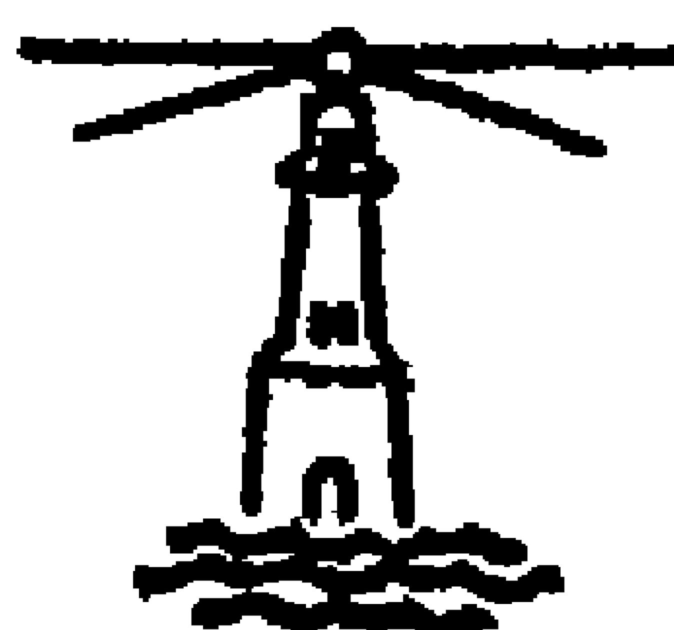
تقديم : حلمي مر





تصدر في أول كل شهر

رئيس التحرير: السّيد أبو النجا



دار المعارف بمصر

لم نعد جواري لكم!

زواية طويلة من أدب فلسطين المحتلة

تأليف الكاتبة العربية: سحر خليفة
تقديم: حلمي مراد

اقرأ ٣٧٨

دار المعارف بمصر

اقرأ ٣٧٨

الناشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج.م.ع.

هذه الرواية الفلسطينية . .

. . ومولد أديبة جديدة !

الرواية التى يسعدنى أن أقدمها لقراء العربية فى الصفحات التالية ، تعلن عن « مولد » روائية عربية جديدة ، أتوقع لها أن تلمع ويكون لها شأن فى المستقبل القريب ..

وأعترف أننى قرأت هذه الرواية خمس مرات ، وفى كل مرة يزداد إعجابى بها ، وتذوقى لمواطن الجمال والإبداع فيها .. بل لعلها فى القراءة الأولى لم تعجبنى إلا بقدر ، فقد حرمنى من الاستمتاع بها على الوجه الأكمل أننى قرأتها بعين الناقد الفاحص الذى يدرسها ليتعرف على الطريقة التى اتبعتها المؤلفة فى رسم شخصياتها ، وتحديد ملامح بطلاتها وأبطالها ، وتوجيه أقوال كل منهم وتصرفاته .. فكنت كمن يرتاد لأول مرة طريقاً جديداً ليرسم خريطته ، ويقيس أبعاده ويحدد معالمه ، فيشغله ذلك كله عن الاستمتاع بجمال المناظر الخلابة التى تحف به من الجانبين !

فلما أعدت ارتياد الطريق ، أو مطالعة الرواية — « كقارئ » — أذهلتنى روعتها وجمالها ، واستمتعت بها استمتاعاً كاملا لا أذكر أننى حظيت بمثله من رواية عربية ، باستثناء نماذج تعد على الأصابع ، من إنتاج بعض أدبائنا الكبار الذين حرثوا هذا الحقل البكر وأنبتوا فيه بذور هذا الفن الجديد على الأدب العربى : فن « الرواية » .

فماذا أعجبنى فى هذه الرواية ؟

أعجبنى فيها — أولا — هذا السيل المتدفق من « الأفكار » و« المواقف »

التى تكاد تطالعك فى كل صفحة من صفحاتها ، والتى تعالج – فى بساطة و «عفوية» خالية من التكلف والإقحام ، وفى إطار فنى روائى سليم ، بالغ الاتقان – عديداً من مشكلات الحياة والمجتمع ، وما يعتمل فى النفس البشرية من عواطف ونزعات ، وماتضطرب به أجسادنا من غرائز ، وانفعالات ..

وأعجبنى فى هذه الرواية – ثانياً – جزالة الأسلوب ، وجمال التصوير والتحليل للمشاعر والخلجات ، ونفاذ النظرة إلى أعماق الشخصيات التى يقوم عليها بناء الرواية ، والتى تتقاذفها – وتتجاذبها – أحداثها ومواقفها .. بحيث تخرج من قراءتها وقد «عايشت» أبطالها وبطلاتها ، وأحببتهم ، أو نفرت منهم ، كما لو كنت تعرفهم منذ بعيد ، وتألفهم ، وتشفق من فراقهم !

وأعجبنى فى الرواية – ثالثاً – هذه الجرأة فى التعبير والتفكير ، التى لعلها من سمات بعض أشقائنا من أهل فلسطين وما يجاورها من البلاد العربية الشقيقة : الأردن ، وسوريا ، ولبنان .. هذه الجرأة المبتكرة – الخفيفة الدم – التى قد تداريها أكثريتنا نحن المصريين وراء ستار من التحفظ ، وكظم المشاعر ، أو صون اللسان ..

تقول المؤلفة فى وصف مشاعر رسامة تحب ، لكنها ترفض الزواج ممن تحب :

« ووقفت أمام المرآة تتأمل صورتها ، وعلى شفتيها الجريئتين ابتسامة ماكرة . كان شعرها الأسود الأملس ينحدر خيوطاً حريرية سوداء ، مغطياً كتفيها ونهديها .. «ما زلت فتاة .. بابا مغلقاً .. أرضاً بوراً .. لوحة لم ترسم بعد .. وأنا فى الانتظار . انتظار الطارق الجرىء ، الفلاح المعطاء ، الرسام المبدع . وهذه البلاد لا تحتوى إلا رجالا يحلمون بإناث يحبلن ويلدن ، ويحشين ورق العنب !

« وابتسمت بسخرية : «عليّ أن أختار : بين عبودية الفن ، وعبودية الرجل ! والفن عبودية تقود إلى الحرية ، أما عبودية الرجل فمذلة وانكسار . وقد اخترت طريقى ولن أحيد عنه . قد أجد الحب يوماً ، ولكنى لن آخذه إلا من إنسان يعرف من أنا ، وما وظيفتى ، ولِمَ خلقت ! . .إنسان لا ينتظر منى مولوداً كل سنة ، ويقعدنى مشلولة عن التفكير والحركة ، فى انتظار رجوعه إلى البيت حاملا صلعته و بطيخته ! »

وأعجبنى فى الرواية — رابعاً — هذا النقد لأوضاع المرأة المتخلفة فى بعض المجتمعات الشرقية ، وهذا التمرد على تلك الأوضاع :

« الجو هنا كئيب ، والفراغ والملل يسيطران على الجميع . . ولقد كتب على المرأة أن تعيش « محنطة » فى هذه البلاد ، أن تكون مجرد « أنثى » ، وعليك يا عزيزتى أن ترضى بهذا » . .

« لا ، لن أرضى بهذا . يجب أن تثور المرأة على هذا الوضع ، وأن ترفضه . إن مجرد الشكوى لا يجدى شيئاً . يجب أن تتطلع المرأة إلى آفاق أوسع ، إلى مجالات أكثر عمقاً واتساعاً . عليها أن تفرض وجودها ، وأن تنزل إلى ميادين العمل . أن تشارك الرجل فى كل مجالاته ، حتى السياسية منها . أين الصحفيات ؟ أين الكاتبات ؟ أين المرشدات الاجتماعيات ؟ أين الرسامات ؟ أين الأيدى الناعمة فى المصنع مثلا ؟ ألم ترى ما فعلته الصناعة فى المجتمع الأوربى ؟ لقد قلبته رأساً على عقب : تطورت المبادئ والنظريات والقيم ، حتى أنظمة الحكم تغيرت ، فأين نمت الاشتراكية وترعرعت ، أليس فى الأجواء الصناعية ؟ » . .

وأعجبنى فى الرواية — خامساً — هذا الحشد من « القضايا » الاجتماعية والإنسانية التى عالجتها ، خلال سياقها ، بغير أن تشعرك بأدنى انحراف

عن "قالبها" الروائى أو خطها الفنى ! . . عشرات القضايا الهامة ، منها على سبيل المثال لا الحصر : الإفراط فى النسل أو تحديده . . الزواج المبكر أو المتأخر . . الحب وهل يلهم الفنان أم يعوقه . . « ملكية » الزوج الشرقى لجسد زوجته . . الحب للحب ، والحب المفضى إلى زواج ! . . هل المرأة مخلوق ناقص ؟ . . معنى الشرف ومدى اختلافه باختلاف المجتمعات والأجيال . . الفرق بين الحب ، وممارسة الحب ! . . حياة الفنان الخاصة ، هل هى ملك للجماهير ، مثل إنتاجه ؟ . . الاستسلام للعواطف ، أهو وقف على الشباب ، محرم على الشيوخ ؟ . . هل يزيد الحزن من جاذبية المرأة ، ويلهم الفنان ؟ . . الفن والالتزام بقضايا الأوطان . . الوصولية والتسلق فى بيئة أدعياء الثقافة . . الطبقية والحقد الاجتماعى . . الثقافة والعطاء . . الفرق بين المثقف والفنان ، وبين آلام الجسد وآلام النفس ، وبين قلم الكاتب ، وريشة الرسام ، ومبضع الجراح . . الفنان أكثر الناس شقاء ، وأكثرهم سعادة . . وضميره أقسى عليه من ضمير الفرد العادى ! . . فلسفة الحرمان بالنسبة لكل من الرجل والمرأة . . إلخ .

قال الرسام الكبير وهو يمد يديه مبسوطتين أمام تلميذته :

« انظرى ! أترين فرقاً بين هذه الأصابع وأصابع أى موظف صغير فى مصرف أو وزارة ؟ أو حتى بينها وبين أصابع أى عامل كادح ؟ قد تكون أصابع العامل أقوى وأصلب ، وأصابعى أرق وأنعم . قد تكون أصابعه أكثر تأثيراً فى الصخر ، لكن أصابعى أكثر تأثيراً فى القلب والفكر والحواس ! باستطاعتك تشبيه أصابعى هذه بأصابع طبيب جراح . والفرق أن هذه تحمل الريشة والقلم ، وتلك تحمل المبضع . المبضع يجرح ، وريشتى وقلمى يفعلان الشىء ذاته . المبضع يشرح اللحم والجلد والعضل ، أما ريشتى فتشرح العقل والقلب والخيال . قد يكون الألم الذى يحدثه المبضع أحد وآلم ،

إلا أنه سطحي ومؤقت . أما جرح ريشتى فهو أكثر إيلاماً ، لأنه أكثر توغلا ! »

وأعجبنى فى هذه الرواية ـ سادساً ـ ما يلوح لك وراء كل سطر من سطورها من « خلفية » ثقافية عريضة .. خلفية تقارن مثلا بين الحب فى مأساة شكسبير « روميو وجولييت » ، والحب عند « جميل بثينة » و « قيس بن الملوح » ! .. وتورد على لسان بطلاتها وأبطالها مناقشات وآراء حول لوحات « فان جوخ » . . وقصص جوركى ، وتشيكوف ، وموراڤيا ، و « د . هـ . لورنس » . . وفلسفة « فولتير » الداعية إلى الثورة من أجل الحرية .. وسيكلوجية « فرويد » و « يونج » . . وأشعار « بايرون » و « شيللى » و « وردز ورث » ! . . إلخ .

وأعجبنى فى الرواية ، أولا وأخيراً ، أنه من خلال صفحاتها الرائعة يتضوع عطر مدن فلسطين الحبيبة : (القدس) الشامخة ، و (رام الله) ، و (أريحا) ، و (نابلس) ، وشاطئ نهر الأردن ، والبحر الميت ، والضفة الغربية .. حيث نعيش أحداث القصة ونتعرف على بطلاتها وأبطالها : نسرين ، نزار ، بشار ، سهى ، سامية ، عبد الرحمن ، سميرة ، إيفيت ، وفاروق ! .. نتعرف عليهم ونعايشهم فى بيئتهم الأصلية . . تحت ظلال أشجار السرو والصنوبر ، وغابات الحوافة ، وبيارات البرتقال ، وبساتين اللوز ، والوهاد الخضر المزدانة بشقائق النعمان . . !

* * *

وأخيراً ، فإذا كانت هذه باكورة إنتاج « سحر خليفة » فى فن الرواية الطويلة ، فقد سبقها إنتاج آخر لها فى الشعر الحديث : ديوان غير مطبوع ، أنتقى لك منه السطور التالية . . التى لا تنقصها الثورة على « التفرقة العنصرية » بين المرأة والرجل ، ولا تنقصها « سلاطة اللسان » ! . . التى لعلها المسئولة عن عدم طبع الديوان حتى الآن ، بحكم أن الناشرين جميعاً هم من جنس الرجال !؟

حلمى مراد

هو الملك . . وأنا الحريم !

لأنى امرأة
لأنى من صنف الحريم
بعَلْى تزوج أربعة
ماذا يهم ؟
لو ألهبتنى غيرتى
لو أحرقتنى دمعتى
لو جففتنى وحدتى
ماذا يهم ؟
لو بت فى قعر الجحيم
فهو الملك
وأنا الحريم !

* * *

يا اخوتى لا تسألوا
لا تذهلوا
لو كان يمشى حنجلا
لو كان يشبه عجلا
لو أطرشا أو أحولا
أو أحمقاً أو أهبلا
فهو الملك
وهو الوزير
وهو الأسد يا اخوتى
حتى ولو أن الزئير
مستبدل بصدى الشخير !

* * *

هواى رذيله
زناه رجوله
جمالى عوره
فجوره ثوره
وله الجوارى بعد موتى
أما أنا
فإلى الجحيم !

* * *

عقلى عقيم
فكرى سقيم
لو كنت أفهم من فهيم
فهو الحكيم
وهو العليم
حتى ولو كان
بهيم . . !
يا أمة نساؤها
تساق نخزا كالبقر
أبشر أخى بحضار
يمجها ذوق التتر .

سحر خليفة

شخصيات الرواية

عبد الرحمن الميثلوفى : رسام مشهور ومكافح وطنى ، فى نحو الخمسين ، أحب سامية فى شبابه ولم يتزوج حتى الآن .

سامية : أرملة أحبت عبد الرحمن فى شبابها فلما فرقت بينهما الأيام تزوجت من مهاجر ثرى فى أمريكا ، لكنة مات بعد عشر سنوات فعادت إلى وطنها حيث افتتحت مكتبة ثقافية .

نزار : وكيل مكتب للاستيراد . زميل قديم لعبد الرحمن وصديق مخلص لسامية . متزوج من ابنة عمه الثرية .

نسرين : (آنسة) : شقيقة سامية ومساعدتها فى المكتبة.

بشار : صيدلى شاب مثقف ، يتردد على المكتبة لشراء الكتب الحديثة ، ورؤية « نسرين » !

سميرة : خريجة الجامعة الأمريكية فى بيروت . عصامية واسعة الثقافة . تعمل مدرسة للغة الإنجليزية فى مدرسة ثانوية للبنات .

ربيع : ابن عم سميرة وخطيبها ، درس الطب ثم سافر إلى إنجلترا للتخصص ، فأحب فتاة إنجليزية !

فاروق : ابن رجل أعمال ثرى ، تخرج من إكسفورد وعاد ليمارس هوايته فى مطاردة الحسان وإيقاعهن فى حبائله ، شأن العاطلين بالوراثة !

سهى : رسامة شابة أدمنت المخدرات . أحبت « بشار » لكنها رفضت الزواج منه !

شكرى : تاجر ، ولوع بالطعام ولا يكف عن انتقاد زوجته « إيفيت » . أبعد ما يكون عن الرومانتيكية !

إيفيت : زوجة شكرى وأم لطفلين منه. رومانتيكية حالمة ضئيلة الثقافة ، تحلم بالحب ، ولا تطيق زوجها شكرى !

إهـداء

إلى الذى علمنى معنى الحب العظيم :
للوطن . . للفن . . وللإنسان . .
إلى الرسام الفلسطينى الكبير الأستاذ
« إسماعيل شمـوط » أهدى كتابى هذا ،
عساى أردّ بعضا من جميل مضى . .
لكنه لم يمت !

سحر خليفة

١

من خلال أشجار السرو الداكنة الخضرة ، الممشوقة القدود ، ظهرت البناية الكبيرة بقرميدها الهرمى الأحمر ، مذكرة بالكنائس العتيقة الضخمة التى ترصع جبال القدس وهضابها .

لم تكن البناية كنيسة ، ولم تكن المدينة بيت المقدس . لم يكن الزوار ممن من الله عليهم بسكينة الإيمان وخشوعه ، فقد كانت البناية مكتبة عتيقة البنيان ، حديثة المحتويات ، وكانت المدينة « رام الله » ، وكان الزوار هم علية القوم — أو من نسميهم كذلك : المثقفون . . وأشباه المثقفين . . وأدعياء الثقافة . . وهلم جراً . .

نقر المطر حبات السرو الكروية ، فاهتزت الفروع برعشات تذكر بالحب والحياة . . وغطت أعالى الأشجار الخضراء غلالات شاحبة من البخار المتصاعد من الأرض الحمراء المرتوية . . ونبح كلب فى سفح الجبل البعيد . . ومرت سيارة على الشارع اللامع كجدول رقراق ، وإذ غاصت العجلات فى الماء انطلق الرشاش متسابقاً فى كل اتجاه ، ووقفت سيارة خضراء طويلة أمام المدخل العريض ، ونزل شاب أنيق يحمل غليوناً ، ويرتدى معطفاً من صوف « الهيلد » الثمين . قفز الدرجات البيضاء بخفة ، واختفى خلف الباب الزجاجى للمكتبة الضخمة .

القاعة واسعة فسيحة ، وبعض أعمدة رخامية تتناثر هنا وهناك ، وفى الركن مدفأة أمريكية ضخمة . وفى مقابلها منصة عريضة يجلس خلفها شاب وإلى جواره صندوق النقود ، وخلفه تقبع رفوف من الكتب المنوعة .

فى طرف القاعة إلى أقصى اليمين ركن محاط بالزجاج الأصفر من جوانبه الثلاثة ، ولا يوصل بينه وبين القاعة إلا باب زجاجى ، وآخر خشبى يؤدى إلى المطبخ الصغير وملحقاته . أما الواجهة المقابلة للمدخل

فقد جعلت على شكل قاطع خشبي مزخرف . وفى الركن الزجاجي ، وخلف مكتب لامع من الخشب المصقول جلست صاحبة المكان : أرملة جميلة ، فى أوائل الأربعينات ، مثقفة ، غامضة ، حزينة . . تتميز بعينين داكنتين ، وشرود ذهني لا يكون إلا لفنان أو معقد! . . وفى مقابلها جلس رجل يحمل ملفاً ، وعند قدميه قبعت حقيبة رجال الأعمال بصمت وجلال .

كانا يناقشان أحد المواضيع التى يحلو لمثقفينا الخوض فيها ، أوبالأحرى كان هو يناقش ، وهى تسمع . قال مؤكداً : « الحب حقيقة وهمية ، ولا جدال فى هذا . فحين يكون المرء فى أقصى اندفاعه لتحقيق رغباته الروحية والجسدية من خلال الحبيب ، يبيت من فرط اشتعال أحاسيسه يعتقد بأن حبه لذلك الإنسان كان النتيجة الحتمية لالتقاء إنسانين خلقا ليكمل أحدهما الآخر ، وأن الحياة بدون التحامهما تكون عديمة القيمة والمعنى . الحب أنانية وغريزة ، وليس عواطف رقيقة وتضحية وعبادة! »

وانتظر رد فعل عباراته ، ولكن السيدة كانت تتأمل الشعاع الذهبي المنبثق من خلال زجاج النافذة الأصفر بصمت ، وكانت تفكر بشرود : « أمن المعقول أن يكون الحب وهماً ! أمن المعقول أن أكون قد أضعت عمرى وأيامى وسعادتى فى سبيل وهم وخيالات فتقتها الغريزة ؟ » .

وخافت الاقتناع بهذه الفكرة البغيضة — بغض الواقع وجموده — فهذا يعنى الكثير مما تخاف الاعتراف به : أن حبها العظيم كان وهماً ، وأن حزنها الدرامى كان من أجل نفسها وليس من أجل « عبد الرحمن » ، وأن هروبها الجبان كان صواباً ، وأن ندمها فى غير محله ، لأن « عبد الرحمن » لم يكن إلا إنساناً عاديا ، وجدت فيه مرتعاً خصباً لتحقيق رغباتها . فالحب أنانية وغريزة .. وهزت رأسها وقالت بصوت فيه شىء من الرعب : « أبداً ، أبداً ، الحب حقيقة ! ». فابتسم بسخرية وقال : « حقيقة .. نعم ، ولكنها حقيقة وهمية ! » . قالت باندفاع : « وما تفسير قصص

الحب الخالدة إذن؟». ابتسم وتساءل : «تقصدين " روميو وجولييت "؟». قالت بتشبث : « وغيرها ، وغيرها ، مئات القصص ، ألوف القصص ، وتضحيات ، وحوادث انتحار . . » . . فواصل هو كلامها : « . . وقتل وخطف واغتصاب ، والبواعث معروفة ، فهى إما الغيرة ، أو حب الامتلاك بالإكراه ، أو نفث الشهوة غصْباً ! »

قالت بألم : « لا تجرد العالم من أجمل مزاياه ! » . قال بإصرار : « تقصدين : من " أكذب " مزاياه ! ؟ » . قالت : «ليكن ، طالما أننا نعيش الكذبة بصدق . » . قال مؤكداً : « لكنه زيف ووهم ! »

— ليكن ، طالما أنه وهم منتج خلاق . أتذكر أشعار « قيس بن الملوح » ؟ و « قيس بن ذريح » و « جميل بثينة » وغيرهم ؟

قال ضاحكاً : « وهناك "فان جوخ" وأذنه الموضوعة على قاعدة من القطيفة ! » .. وأخذ يقهقه بسخرية . وعاد يواصل نقاشه ببرود كاد يقتلها ، فابتعدت بعينيها عن وجهه وعادت ترقب الشعاع الذهبى المنبثق من زجاج النافذة الأصفر .. وتلقائياً وبدون تردد ، بدأت عملية هروبها المعهود . كانت كلما وجدت نفسها محاصرة بخطر ما ، انفلتت بدون تردد هاربة من الموقف كلياً أو جزئياً ، فإما أن تغادر المكان ، أو تهرب بأفكارها تاركة مخاطبها يتحدث ، ويتحدث ، فى حين تهز هى رأسها بين الفينة والفينة مدعية الإنصات . وبينما كان يقول : « قيس بن الملوح ذاك كان مخبولا . . » كانت هى تتأمل الشعاع وتلهم أفكارها بصمت ، محدثة نفسها : « كان عبد الرحمن يقول إن اللون الأصفر يجمع بين صفات الألوان الشفافة والألوان الصاخبة . فهو مثير ، لكنه رقيق فى الوقت نفسه . وهو مشرق لأن فيه وهج الشمس وتألقها ، وهو كئيب لأنه يُذكّر بالذبول والمرض . فيه خصب القمح المحصود ، وفيه فتور الأوراق الحزينة المتساقطة . فيه نداوة عيون النرجس البرىء ، وفيه جفاف البشرة الحائلة حين يفارقها الدم . . » .

كان « نزار » يواصل النقاش وحده ، وكان يظن سكوتها دليل الاقتناع والتجاوب . . فمضى يقول : « عندما يقف الإنسان المحايد مراقباً تطور الأحداث من بعيد ، يكتشف حقيقة مذهلة ، هى أن الإنسان لا يبحث فى الحب إلا عن احتياجات يفتقدها ويتشوق إليها . وأن ما حببه فى الحبيب لم يكن مصادفة أو تخطيطاً ، بقدر ما هو اندفاعات لملء الفراغ الذى تحتويه الروح ويحتويه الجسد . وكلمة "أحبك" هى أكذب كلمة ينطق بها الإنسان ، لأنها تعنى العكس تماماً . فهى تعنى " أنا أحب فيك ما يسعدنى وما يلبى رغباتى . أنا أحب فيك نفسى وغريزتى " . كلمة " أحبك " لا تعنى . . »

وكانت هى تدخن بصمت . . وتمضى تجادله فى سرها : « كلمة أحبك كلمة صغيرة ، لكنها تجعل العالم كبيراً ، طويلا ، عريضاً ، له سماء زهرية السحب ، وأشجار متألقة الخضرة ، وأناس يقفزون بينها مرحاً . . كما لو كانوا يعيشون قصة من قصص الأطفال الخيالية ، كسندريلا مثلا . . أو " أليس فى بلاد العجائب " . . أو " هانسل وجريتل " . . والعالم الكالح يصبح مضاء بنيونات ملونة ، بكهارب مزوقة تضىء لحظة وتنطفىء أخرى . . قطرات المطر يصبح لها صوت عذب ، أعذب من نقرات طائر الحسون على زجاج نافذة فى الصباح . . والشوارع المجللة بغبش البخار تصبح جنة . . حتى الوحل يصبح له لون لذيذ ، يكاد يشبه الحناء المعجونة بماء زهر البرتقال . . أى خصب . . أى جمال . . أى عمر يستحق أن يعاش ! ! . . وكم تتبدل الأشياء ! كم تتبدل ! يصبح الكالح مشرقاً ، والمظلم مضاء ، والبارد دافئاً ! »

وكان يواصل نقاشه غير المجدى . . وهى ماضية فى نجواها لنفسها :

« تقول إن كلمة « أحبك » كلمة زائفة ، مضحكة ؟ ! آه لو سمعتها يا مسكين ، حين قالها « عبد الرحمن » ! لقد ركضت يومئذ . . ركضت ، لم آبه لأى شىء فى العالم سواها ! ركضت إليه . . لم أعبأ بأناقتى ، ولا بجمالى ،

فالحب يجمل حتى البشاعة.. وكانت السيارة تنهب الأرض .. تنهب الطرق الملتوية بين « رام الله » و « نابلس» . . وكلمات ملأى بالهوى والوجد تنساب من المذياع فتعمر فى المخيلة قصوراً من المرمر الشفاف . . أترى يا مسكين ؟ حتى كلمات المذياع تصبح أجنحة تحملنا على أشرعتها ، والسيارة تنهب الأرض ،! والوهاد تشع خضرة وفرحاً . . العالم كله يصبح فى حالة رقص على أنغام موسيقى رقيقة متموجة لها إيقاع مزركش .. والزيتون نظيف . كروم الزيتون تظلل الأرض البنية المزدانة بالربيع ، وينابيع من زهيرات « ثدى البقرة » و « البانسيه » . . والصخور نظيفة ، أنظف من قلب وردة عذراء لم تلمسها يد إنسان . وعصافير الشعراء الزرقاء تملأ العالم زقزقة وهى تقفز على الأرض بخفة الأنسام . . وبعد هذا نتساءل : من أين يأتى الحزن ! ! من أين يأتى الحزن ؟ ! من أين وفى العالم حب ، وفى الحب جمال ، وفى الجمال سعادة ؟ . . ونتساءل .. من أين يأتى الحزن ! ! » .

. . وكان نزار ماضياً فى ثرثرته يقول : « قد يستطيع الإنسان فرض سيطرته على أحاسيس آخر فترة ما ، ولكن بعد مرور تلك الفترة لا يبقى سوى الذكرى ، وحتى الذكرى تصبح كالحة وباردة ، لا تثير فينا سوى ما يثيره مرور طائرة تحلق على ارتفاع شاهق ، لا يكاد يصل إلينا منها سوى خيال الصوت وخيال الصورة ! »

وفيما « نزار » ماض فى كلامه ، كانت « سامية » تحدث نفسها : « ما وجهة نظره فىّ ؟ ربما كان يعتقد أنى امرأة مهووسة تقتات من فتات الذكريات . . ذكريات الصبا والشباب . . آه ، لقد أصبحت فى الأربعين ! لقد ضاع العمر . . ضاع الأمل ! »

وقالت له أخيراً ، بألم حاولت إخفاءه : « ما وجهة نظرك فىّ ؟ »

فحاول أن يبدو مرحاً ، وهو يجيبها بخفة : « أنت ؟ حسنا : امرأة ناضجة ، ثمرة شهية ! » . . فابتسمت وهى تستدير بعينيها نحو النافذة : « تلك هى الأكذوبة التى يتحفوننا بها ، فعندما تستهلك المرأة

صباها يعزونها بالنضج . . وكأن المرأة تصبو لهذه الصفة السقيمة . أنا واثقة بأن من بين كل ألف امرأة قد نجد واحدة ترضى استبدال النضج بالصبا . . وقد لا نجد ! » .

كان « نزار » قد أتى فى مهمة تجارية . هى صاحبة المكان ، وهو وكيل أحد مكاتب الاستيراد ، وصديق قديم تمتد معرفتها به إلى ما قبل زواجها واغترابها ، وعودتها ثانية بعد أن أصبحت أرملة تلتف بالغموض والكآبة . والأهم من ذلك أنه كان صديقاً لعبد الرحمن ، حبيب شبابها ، وكان يعلم بما حدث ، وفيم تفكر ، وكيف تعيش ، وربما كان يعتقد بأنها مريضة أو مصابة بلوثة ، فامرأة لا تستطيع نسيان رجل هربت منه طوعاً ، وبعد كل هذه السنين ، إما أن تكون ساذجة وإما أن تكون مريضة ، ولم تكن ساذجة طبعاً ، فهل تكون مريضة ؟

وبقيت فى المكتب وحدها . كانت لوحة « زهرة المرجريت» معلقة على الجدار ، فى مواجهتها ، ومن خلال القاطع الخشبى الذى يفصل الركن عن القاعة، بزواياه الهندسية وزجاجه الأصفر ، ظهرت المناضد البنية مهجورة غير مأهولة ، والشاب الجالس خلف المنصة يقرأ كتاباً غرامياً ، والضوء من خلال الزجاج الأصفر فى الركن الزجاجى بدا متألقاً برغم تلبد الأجواء فى الخارج .

* * *

دخلت « نسرين » فى تلصص ، فتحت باب المكتب بهدوء ، ورأت أختها « سامية » — كالعادة — تغوص فى جوها الخاص الكئيب . . فجلست فى سكون . تناولت سيجارة ، أشعلتها ونفخت فيها وهى تتأمل شحوب أختها . وبعد فترة من الصمت تساءلت : « سامية ، لم لا تخرجين من عزلتك ؟ »

ولم تجب الأخت . . نظرت فى وجه أختها بصمت ، ثم استدارت بعينيها نحو الشعاع . كانت ما تزال فى عملية هروبها التى قد تستغرق ساعات ، وقد تستغرق أياماً . . فقالت نسرين وهى تغالب إحساسها

بالحرج : «إنك لست أول أرملة فى العالم!».. ولم تجب سامية.. فقالت نسرين بصبر : « لو انطمرت كل الأرامل بمثل حزنك بحلل نصف العالم وشاح أسود ! »

وقامت واقفة واتجهت نحو النافذة ، وأخذت تنظر من خلالها إلى الحديقة . كانت أشجار السرو المحيطة بالمكان تهتز حسب إيقاع الريح ونقر المطر . ففتحت النافذة وهى تقول : « لون الزجاج يضايقنى أحياناً ، فهو بالرغم مما يشعه على من فى الداخل من إشراق وتوهج ، إلا أنه يطفئ ألوان الطبيعة فى الخارج.. مثلا أنا لا أستطيع تذوق تفاوت الخضرة من خلاله ، ولهذا أضطر إلى فتح النافذة حتى أرى حقيقة الأشياء بدون حاجة إلى المنظار الذى اخترته أنت! » والتفتت تحدق إلى وجه أختها ، وانتبهت تلك لوقع الجملة ورددتها فى عقلها : « أضطر إلى فتح النافذة لأرى حقيقة الأشياء ، بدون حاجة إلى المنظار الذى اخترته أنت ؟.. يا للصغيرة !.. فهى ما عادت طفلة . .لكنها تظل طفلتى المدللة » .

وقالت نسرين بتأمل: « هل يجب على الإنسان أن يكون فناناً كى ترتج أعماقه لرؤية الجمال؟!».. ولما لم تسمع رداً ، أجابت بألفة من يخاطب نفسه : « هناك الفنان المتذوق ، وهناك الفنان الخلاق ، وبما أننى لست خلاقة فأنا ذواقة ، وهذا يوصلنا إلى اكتشاف رائع وهو أننى فنانة ! »

وأطلقت ضحكة مرحة طارت عبر النافذة ، ولم يصل إلى سمع سامية منها سوى قهقهة بعيدة ممزوجة بصوت الريح وطقطقات الماء المتساقط من حافة سقف الردهة الطويلة الممتدة أمام المكتبة . وقالت نسرين بتأمل : « تفتننى خضرة السرو حين تبلله الأمطار ويغسل الماء ثماره الكروية . يصبح الأخضر شديد الدكنة ، وتلمع الكريات بألوانها البنية وتنحنى بعض الفروع النحيلة بأمشاطها الخضراء ، وفى طرف كل سن مشط قطرة ماء . رائع ! » ثم التفتت لأختها باسمة : « أترين أننى ذواقة ؟ » . . فابتسمت سامية بحنان : « ومن ينكر هذا ؟ » أجابت

نسرين : « أنت ! » . . فتساءلت سامية برقة : « أنا ؟! » . أجابت نسرين : « لقد شككت فى تقييمى لأريحا ! »

ولم تستطع سامية إخفاء ابتسامتها وهى تهز رأسها وتقول : « أهناك من هى أشد منك عناداً ؟ » فرمقتها أختها بخبث وقالت : « كنت سأوجه إليك السؤال نفسه ! » . . فقالت سامية بحزم فجائى : « نسرين ، للمرة الأخيرة أقول لك إنى لن أذهب لأريحا ! »

فصاحت نسرين بغيظ : « ولكن لماذا ؟ من عادتنا الذهاب لأريحا كلما حلا لنا ذلك ، والآن ، لأنى فى أشد الشوق للذهاب ورؤية المعرض ، ورؤية من هو أهم من المعرض .. عبدالرحمن الشهير .. فنان البؤساء كما يقال عنه . وهناك تلك الرسامة السورية ، يقال إنها موهوبة ، وهى أيضاً ممن اشتركوا فى معرض بروكسل . واللوحات التى تعرض فى هذا المعرض لم تعرض إلا هناك ، فى بروكسل . لأنى أكاد أتفتت شوقاً للذهاب ، ترفضينه ؟ ! وبعد هذا تتساءلين إن كانت هناك من هى " أعند " منى ! »

أسندت سامية جبهتها إلى راحة يدها ، وبدا أنها ستصاب بإحدى نوبات الصداع المقيتة ؛ فقالت نسرين متراجعة : « حسناً ، كما ترين ! » .

ثم استدارت بوجهها نحو النافذة المفتوحة وقد بدا عليها التجهم والغيظ ، وبعد فترة استدارت وقالت : « أقبل بعض الأصدقاء . . حمداً لله . . ترى لو لم نكن نملك هذه المكتبة التى تعطينا الفرصة لرؤية الناس والتعرف بهم ، ماذا كان يحل بنا ؟ ! »

. . وأقفلت النافذة وخرجت بعد أن خلعت معطفها وعلقته على المشجب بجانب الباب ، وأخذت سامية تراجع الفواتير وأعداد الكتب المستوردة وأصنافها .

٢

قال بشار ، وهو صيدلى شاب مثقف يكثر من التردد على المكتبة بقصد شراء الكتب الحديثة ، وبقصد آخر هو أن فى المكتبة شابة

حسناء تدعى نسرين : « كان النادى الثقافى فرصة لا تعوض . كنا نجد مكاناً نناقش فيه الآراء والكتب . شيء غريب ! حتى الثقافة ممنوعة فى هذه البلاد ؟ » فتساءلت نسرين : « وأين هو هذا النادى ؟ »

ابتسم بشار بسخرية واستدار ناحية فاروق، وهو ابن أحد الأثرياء وخريج أكسفورد ، يلبس صوف « الهيلد » مفصلا حسب الطريقة الإنجليزية . . وكذلك يصفف شعره . يدخن الغليون ويهوى السيمفونيات ، ويطعّم حديثه بمفردات ومصطلحات تبذ معلومات مؤلفى المعاجم، وعندما يكون المزاج صافياً ورائقاً، يتحف المجموعة بحكم وعبر مستوردة من شكسبير وبايرون ! قال بشار : « أجب يا أخا العرب ! أين النادى؟ » فضحكت المجموعة للقب الذى لا يبدو مناسباً . وارتفعت فوق حاجبى « أخا العرب » ابتسامة أنيقة ، ثم سحب غليونه من فمه وقال برصانة :

« Well .. كل ما أعرفه أنه ما عاد هنا » . فتساءلت نسرين : « أين إذن ؟ » فقال ببرود مصطنع : « فى (الجفر) ! »

وعلا الضحك ثانية . . فتساءلت نسرين بفضول : « تقول إنه انتقل للجفر ؟ ولم ؟ ألم يكن ناجحاً هنا فى " رام الله " ؟ حسب معلوماتى أنه كان ناجحاً ، كان محط الطليعة المثقفة .. هذا ما سمعته من نزار . . »

فأجاب فاروق ببرود انجليزى معرّب : « كان ناجحاً فى رام الله ، لكنه انتقل للجفر » . . تساءلت بفضول : « ولكن لماذا ؟ » . . فأجاب : « لقد اعتقل هو أيضاً » . وارتفعت الضحكات ، ثم قالت سميرة — مدرسة اللغة الإنجليزية فى مدرسة البنات الثانوية وخريجة الجامعة الأمريكية فى بيروت : « طبعاً ، هذا منتهى الوفاء ، لقد صعب على المكان هجران أهله . فأبى إلا اللحاق بهم ! » . . وتساءلت نسرين : « ومنذ متى تم هذا الحدث السعيد ؟ » . . فأجاب بشار : « قبل مجيئكم من أمريكا ببضعة أشهر » . فسألته : « وما التهمة ؟ »

قالت سميرة : « ما من تهمة أبداً ، هو اختار ذلك . فى صباح أحد الأيام طرقنا الباب فوجدناه مزداناً بالشمع الأحمر ! » . . وواصل بشار ، بجد هزلى : « موضة العصر ، فمنذ ذلك الحين والناس يزدانون بالشمع الأحمر . فمن لا يضعه فوق بابه يضعه فوق فمه . وكنا عندما يغلوأحدهم فى نكاته يصرخ أحدنا : " قليلا من الشمع الأحمر " » .

واهتزت الرؤوس بسخرية .. وعلق فاروق : « Isn't it wonderful ?» . فرددت نسرين : «مدهش!» .. وقال بشار وهو يقدم سيجارة لكل من الشابتين اللتين تشاركانه وزميله الجلوس حول «طاولة» منزوية فى أحد أركان قاعة المكتبة الغاصة برفوف الكتب : « كنت أود لو أقدم لكما شيئاً تشربانه ، ولكن ما العمل ؟ » . فقالت سميرة بأسف : « تذكرنى الآن بجلسات النادى . . أتذكر ؟ لقد كان البوفيه رائعاً هناك » . ثم استدارت ناحية نسرين وقالت : « تتساءلين أين المثقفون فى هذا البلد ؟ كنت أود لو أنك عاصرت النادى وزواره . عبد الرحمن الميثلونى كان أحد مؤسسيه . طبعاً عندما اعتقل عبد الرحمن — وكان ذلك منذ مدة طويلة — استمر النادى فى القيام بنشاطاته ، ولكن عملية التصفية كانت ما تزال على قدم وساق ، وبالتدريج انتقلت إدارة النادى إلى الحفر! »

وقال بشار مكملا : « وقد صعب على المكان هجران أهله ، فأبى إلا اللحاق بهم » ! . . فقال فاروق بتأمل : « إنى من مشجعى مكتبتكم هذه يا نسرين ، وقد أسعدنى أن أرى فى هذه المدينة مكتبة بهذا المستوى الراقى . » . . فقالت نسرين : « الفضل يرجع إلى سامية ، فبعد وفاة زوجها ، والقرار الذى اتخذناه بتصفية الأملاك فى شيكاغو ، والرجوع إلى وطننا ، أخذنا نفكر فى مشروع نستطيع — بتقديمه للبلد — الخدمة أولا ، والاستفادة ثانياً . . كنا نبحث عن مشروع تحتاجون إليه . واقترحت أنا إقامة "سوبر ماركت" ، ولم ترض سامية بذلك . . ثم فكرنا فى إقامة فندق سياحى ، ولكن سامية رأت أن ذلك سيرهقها . وذات يوم كنا نمر

بإحدى المكتبات الضخمة ، فتوقفت سامية أمام المبنى الجميل وقالت :
« سنقيم مثل هذه : مكتبة بقسم عام ، وآخر تجارى »
. . وهكذا كان !

وعلق بشار : « مشروع رائع ، وأروع ما فيه أصحابه ! » .. فعلقت سميرة بخبث : « واضح » . . وقالت نسرين : « بعد الحياة فى أمريكا ، تصعب الحياة هنا ، فالجو هنا كئيب ، والفراغ والملل يسيطران على الجميع! » فقالت سميرة موافقة : « وبالأخص نحن يا عزيزتى . لقد كتب على المرأة أن تعيش " محنطة " فى هذه البلاد ، هذا هو المطلوب من المرأة أن تكون هنا ، مجرد " أنثى " محنطة ! وعليك يا عزيزتى أن ترضى بهذا ! »

وقالت نسرين بجد : « لا ، لن أرضى بهذا ، أنا لم أعتد هذا ولن أعتاده ! » . . فقال فاروق مشجعاً : « نعم هذا ما يجب أن يحدث ، أن تثور المرأة على الوضع ، أن ترفضه . إن مجرد الشكوى لا يجدى شيئاً . يجب أن تتطلع المرأة إلى آفاق أوسع . إلى مجالات أكثر عمقاً واتساعاً ، عليها أن تفرض وجودها . أن ترتاد الأماكن والمحال العامة ، أن تنزل إلى ميادين العمل . أن تشارك الرجل فى كل مجالاته .. حتى السياسية منها ».. فقالت سميرة : « وهل قصرت المرأة فى ذلك ؟ » . . فتساءل بشار : « فيم الشكوى من وضع الأنثى المحنطة إذن ؟ »

تساءل فاروق بصوت فيه الكثير من الاتزان المنمق : « اين الصحفيات ؟ أين الكاتبات ؟ أين المرشدات الاجتماعيات ؟ أين الرسامات ؟ أين الأيدى الناعمة فى المصنع مثلا » ؟ . فعلق بشار بسخرية : « إن وجد .. »

فأجاب فاروق بهدوء : « وعلى افتراض أنه موجود ، فهل تساهم المرأة فى الإنتاج ؟! » .. فقالت سميرة : « أوجد المصنع وسترى ! »
ابتسم فاروق بذكاء وأحنى رأسه كمن يقدم تحية ، ثم قال : « هذا جواب ذكى . ولكن ألا ترين أنه يتضمن شيئاً من اللف والدوران ؟ ».. فتساءلت سميرة ; « ولم ؟ » . أجابها : « أنت تعرفين تماماً أن قيام المصنع

لا يغير من الوضع شيئاً ! » فقالت سميرة بحماس :

— غريب قولك يا فاروق ، ألم تر ما فعلته الصناعة فى المجتمع الأوربى؟ لقد قلبته رأساً على عقب ، فنفسية الجماهير اختلفت وتطورت ، وكذلك المبادئ والنظريات والقيم الجديدة . حتى أنظمة الحكم اختلفت ، فالاشتراكية من أوجدها ؟ وأين نمت وترعرعت ؟ أليس فى الأجواء الصناعية ؟ وهذا الصراع الذى يشمل العالم ويهدد بحرب كونية قد تكون السبب فى دمار الكرة الأرضية بأسرها ، أليس صراعاً بين الاشتراكية والرأسمالية؟ والرأسمالية موجودة منذ الأزل ، فالظلم لم يكن مستحدثاً ، وقد عاصرت البشرية مختلف أنواع الاستغلال ، سواء الإقطاعية أو الرأسمالية أو حتى الإمبريالية . أقول إن الرأسمالية لم تكن مستحدثة يوماً ، لكن الاشتراكية كانت كذلك . والاشتراكية نبعت من المجتمع الصناعى . إذن فالصناعة هى السبب فى هذا التغيير الذى طرأ على العالم من كل ناحية . المرأة تغيرت ، أصبحت عاملا حيويًّا فى كثرة الإنتاج وقلته . الرجل تغير ، أصبح أكثر مرونة وأقل عنجهية ، أصبح لا يجد مانعاً من الوقوف فى المطبخ ليغسل الأطباق . لم لا ، وامرأته تقف طوال اليوم وراء الآلة ، وفى آخر الشهر يتقاسمان أعباء وتكاليف الحياة التى لا تنى تتصاعد . . وهكذا ترى أن قيام المصنع يغير من الوضع كثيراً ، ولا يسعنى إلا أن أعود وأردد ثانية وبدون خوف من أن أتهم باللف والدوران : « أوجد المصنع . . وسترى ! »

بدت على فاروق لمحة من ضيق ، فهو خريج أكسفورد ، ويعرف من مفردات اللغة ما يعجز عنه المتخصصون ، وهناك أشعار « بايرون » تتردد بين شفتيه ببراعة وأناقة لاحد لهما ، وأخيراً وليس آخراً ، هو « رجل » فى مجتمع غير صناعى . كل ذلك يجعل من العار أن تتفوق عليه فتاة من عائلة فقيرة ، ومن مستوى علمى أقل من مستواه بكثير ، وبخاصة أن الشهادة التى حصل عليها كانت ثمرة دراسة دفع

تكاليفها والده الثرى ، أما الشهادة التى حصلت عليها سميرة ، فمن أموال الوكالة ، إذ أن سميرة كانت قد حصلت على بعثة نتيجة امتيازها فى امتحانات الدراسة الثانوية . وقال فاروق ، متحدياً : « على افتراض أننا قبلنا ما أدليت به ، فهل تظل المرأة العربية على حالها حتى قيام المصنع ؟ قد تقوم الساعة قبل قيام المصنع ! »

فردد بشار ، مصادقاً : « صدقت يا أخا العرب ، فهل تبقى المرأة على ما هى عليه فى انتظار رحمة الله والمصنع ؟ » . . وقالت سميرة بهدوء : « ومن قال إننا قاعدات ، أو " مقعدات " ؟ ! » .. فضحك بشار معلقاً : « حلوة " مقعدات " هذه ! » . . لكن سميرة واصلت كلامها ، وكأنها لم تسمع تعليقه : « أنا مثلا ، أتعرف أن أمى ما زالت ترتدى الزى القروى ؟ » . فتساءلت « نسرين » فى دهشة : « أمك أنت؟ »

ــ نعم أمى أنا . وهل فى ذلك غرابة ؟ بالطبع هذا ليس من شأنه أن يهبط من قيمة أمى ، ولكن العبرة تكمن فى أن امرأة قروية تلبس الزى الوطنى ، أنجبت من الأطفال عشراً ، وتزوجت وهى فى الثانية عشرة ، لها ابنة مثلى تحمل شهادة جامعية ، بلغت السادسة والعشرين ولما تتزوج بعد ، وإن تزوجت فلن يكون زوجها إلا رجلا يناسبها سناً وقلباً وقالباً ، وإن ولدت فلن تلد من الورثة إلا بعدد المورثين !

قهقه بشار : «لكم حصلنا على أسرار بدون مقابل ! » . . فقالت بسخرية : «إن من تناقش الاشتراكية لا تتوقع مقابلا فورياً . الاشتراكية صبر ، بل هى قمة الصبر ، أليس كذلك يا أخا العرب ؟ » . . وابتسمت بتحد . . فظهر البرود الإنجليزى المعرب فى أجلى صوره وأروعها ، إذ قال فاروق بلهجة الأب الحانى : « أنت خطيرة يا ابنتى ! »

وبدا واضحاً ، للحظة ، أن نفوراً خفيفاً قد بدأ يأخذ طريقه إلى قلبى الشابين المثقفين . كانت هى ــ برغم كل الأفكار الثورية التى هضمتها والمبادئ العادلة التى آمنت بها ــ لا تزال تحس بشىء من

عدم الألفة تجاه أبناء الطبقة الموسرة . كانت تحقد عليهم فى يوم من الأيام ، وعندما كبرت وقرأت وفهمت ، أصبحت إنساناً أكثر ميلا للاعتدال ، ولأخذ الأمور بعين العقل والمنطق . ولكن ، وفى فترات كهذه ، يستثار الحقد الدفين ، وبالكثير من الصبر يتحول الحقد إلى عدم استلطاف ، ليس إلا .

وساد الصمت عند ما دخل عميلٌ المكتبة ، ووقف يحاسب البائع الذى يقف فى طرف القاعة وراء المنصة الطويلة ، بعد أن انتقى كتاباً من أحد الرفوف. وقالت نسرين : «هذا هو الزبون الأول منذ الصباح .. تصوروا ؟ » . . فعلق فاروق : « الناس فى هذه البلاد لا يعبأون بالأدب ! » وقالت سميرة : « الناس فى هذه البلاد لا يجدون ما يملأون به بطونهم ، فما بالك بعقولهم ؟ ! » . . فقال فاروق بلهجة حاول أن يجعلها ناعمة : « ليس إلى هذا الحد يا آنستى ! » . . فهزت رأسها بأسى ، وأردفت : « لن أجادلك فى هذا ، كل ما أطلبه منك هو زيارة إلى المخيمات فى يوم كهذا . ساعة واحدة فقط وبعدها ستحكم فيما إذا كان الأدب يعنى شيئاً بالنسبة لمن يملأ الوحل طرقاتهم وبيوتهم وعقولهم ! »

قالت نسرين بعجب أنيق : « أهنالك فقر فعلا ؟ » . ولم تجب سميرة ، بل استدارت بعينيها باشمئزاز وأخذت تراقب رفوف الكتب . فى حين قال فاروق متلطفاً : « سميرة فتاة حساسة أكثر من اللازم ، وعاطفية أيضاً » .. وفهمت سميرة قصده من الهدنة التى يحاول عقدها معها ، فابتسمت .. واستطرد هو : « أتذكرين يا سميرة ذلك الكتاب الذى ناقشته مرة فى النادى ؟ كان الموضوع شائقاً جداً . وكنت لبقة إلى أبعد حد . لقد أعجبنا جميعاً بالطريقة التى قدمت بها الكتاب » . . فقال بشار مؤيداً : « نعم ، كانت رائعة ! » . وتساءل فاروق : « ماذا كان عنوان الكتاب ؟ » . . فقالت سميرة بهدوء : « أثر الفن فى المجتمع » وعلق فاروق ، مصطنعاً الاهتمام : « نعم ، وقد ركزت حول دور الفن

فى تثقيف الجماهير . . فقالت سميرة باتزان : « وجهة نظرى أن الفن هو طليعة التقدم ، هو الذى يوحى به ويدل على أقصر الطرق إليه . إنه الرائد الذى يضع النظريات السباقة . خذ فولتير مثلا ، ألم يكن فولتير — وأمثاله — الممهدين للثورة الفرنسية ؟ »

وصمتت قليلا ، ثم قالت بأسف : « فعلا إنى آسفة لما حدث للنادى ! » فتساءل بشار مفكراً : « لم لا نحاول فعل شىء من أجله ؟ » . وبادر فاروق إلى الإجابة : « حاولنا الكثير ولم نستطع » . . فقالت نسرين : « افتتحوا ناديا آخر ، بدلا منه ! »

— غير ممكن .

— لماذا ؟

— لأنه سيزدان بالشمع الأحمر هو الآخر .

— حتى ولو كان نادياً « فنيـاً » ، بدلا من ناد « ثقافى » ؟

طرق فاروق المنضدة بغليونه بجد وقال : « هذه فكرة معقولة : ناد فنى ، ولم لا ؟ » . . وأخذ يطقطق حافة المنضدة بغليونه ، كمن يفكر فى أمر خطير ! . . ثم قال بعد تأمل : « هذا المكان يصلح لأن يكون نادياً ، بقاعة الكتب هذه ، والمدخل الجميل ، والحديقة بأشجارها الضخمة ، ثم السرو الذى يحيط بها إحاطة السوار بالمعصم ، فيحمى المكان من تلصصات العيون الفضولية . . » ثم صمت وأخذ يحدق فى وجه « نسرين » كمن يحثها على التفكير معه . . فقالت نسرين باسمة : « لكنه الآن مكتبة » . . فقال مفكراً : « هذا صحيح ، ولكن باستطاعة أختك مساعدتنا إن هى أرادت ذلك ! » . . فتساءلت نسرين : « ماذا تقصد ؟ » . . قال ملمحاً : « تلك القاعة التى تستعمل لعرض الأفلام الثقافية » . . . فهتف بشار محرضاً : « فعلا ، فهى لا تستغل إلا مرة كل أسبوعين . ثم إن لها باباً خارجيـاً يطل على الحديقة ، دون حاجة لتخطى قاعة المكتبة ! »

هزت نسرين رأسها فى حيرة ، وتمتمت بحرج : « لا أدرى » . . فقال بشار بحماس : « هذه فكرة رائعة ، ولا أعتقد أن أختك ستعارضها » . . فقالت نسرين بارتباك : « لا أدرى ، ولكنى أعتقد أن سامية ميالة للهدوء . ثم إن النادى لا بد وأن يشتمل على مزايا خاصة ، فهل ستقنعكم القاعة ؟ » . فردد بشار بحرارة : « ستقنع أبانا ، فهل تسمحين لنا باستغلالها ؟ » . . فقال فاروق وهو يمد يده موقفاً تيار الحماسة : « المسألة لم تصل بعد إليها ، نحن مازلنا فى محاولة مبدئية لبحث الموضوع من شتى أطرافه ، ولم ننته من الطرف الأول ، ألا وهو صاحبة المكان ! » فقالت نسرين : « وصاحبة المكان تقبع هناك ، ما من دخل لى بالموضوع ، فغداً إذا حصل مالا يرضيها قد تتهمنى بأنى كنت السبب ! »

والتفتوا ناحية المكتب الزجاجى ، ورأوا سامية من خلال فجوات القاطع الخشبى منكبة على دفاترها وأوراقها . فقال بشار فى حيرة : « أتظنونها تقبل ؟ » . . فتساءل فاروق : « ولم لا ؟ نحن لن نكلفها أكثر من طاقتها . كل ما نطلبه هو أن تسمح لنا باستعمال المكتبة من الساعة الخامسة مساء حتى التاسعة . أما بشأن الأثاث ، فسيتبرع كل واحد منا بشيء ما . ومن ناحيتى أنا ، أعدكم بمنضدة خضراء ومضربين وكرة ! » . . صاح بشار : « وكرة ! يا سلام ! أترين يا نسرين : سيتبرع حتى بالكرة . . حتى الكرة ! »

وقهقهوا ، لكن سميرة أطلقت سؤالا أوقف الفرحة بالفكرة ، إذ تساءلت : « وماذا عن الشمع الأحمر ؟ » ، فضرب بشار المنضدة بيده وصاح : « صحيح . . ماذا عن الشمع الأحمر ؟ هيا فكر يا أخا العرب ! » . . وأخذ فاروق يحدق فى الوجوه الثلاثة طالباً النجدة ! . . فى حين قالت سميرة : « لن نسميه نادياً ، بل مكتبة . » . . فتساءل بشار : « كيف هذا ؟ وماذا كنا نخطط منذ ساعة ؟ » . فالتفت

إليه فاروق وقال بسخرية : « افهم يا أخانا : الفتاة تقول لك بأنه مكتبة . وفى المكتبة يجتمع المثقفون ويطالع المثقفون ويناقش المثقفون . . » فقالت نسرين ضاحكة : « . . ويلعب المثقفون ، ويرقص المثقفون ، ويرسمون وينحتون ويمثلون . . » . . فالتفت فاروق إلى بشار وأكمل بخبث : « . . ويتباله المثقفون ! »

وقهقهوا . ومن خلال الضحكات انطلق نداء مهلل : « إيفيت ! . . هالو ! » . . ودخلت إيفيت الجميلة ، برفقة زوجها شكرى ، وكانت ملتفة بالصوف من رأسها حتى اخمص قدميها . . وصاحت بمرح : « ما هذا ! أصواتكم وصلتنا ونحن فى الشارع ! » . . فعلق فاروق : « وبالمناسبة ، فإن قاعة نادينا ستكون بعيدة عن الشارع ، وبذلك لن تصل أصواتنا للمارة ! » . . فردد بشار مصادقا : « فعلا . . فنادينا سيكون ناديا محترماً » .

وتساءلت إيفيت : « أى ناد ؟ » . . فأخذ فاروق بطريقته الأنيقة المنمقة يشرح لها كيف نبتت الفكرة . وكيف أينعت الفكرة . وكيف أنهم فى سبيلهم لحصاد ثمار الفكرة ! . . وغردت إيفيت ، وزقزقت نسرين ، واستعمل فاروق بعضاً من مفردات معجمه الفذ ، محاولاإظهار طاقته الهائلة على التفكير السليم والتخطيط الصائب الخلاق ، وكانت إيفيت تردد بفرح هائل كاد يبكيها : " Wonderful .. Great .. Great " .. وأخذ الجميع يحلمون بالنشاطات التى سيقومون بها. فاقترح فاروق إقامة مسرح شكسبيرى ، فهو على استعداد لانتقاء مسرحية تثير ذهول مثقفى المدينة ، وهو أيضاً على استعداد للقيام بدور البطولة ، ثم إنه سيخرجها ، فما رأى المجموعة فى كل هذه التضحيات ؟

ومرة أخرى ، غردت إيفيت ، وزقزقت نسرين ، وهللت سميرة . وقال بشار إنه سينشئ فريقاً لكرة السلة ، وسيكون الملعب فى الساحة الخلفية ، وسيتكفل بإقامة المواسير والقوائم وتركيب السلال . وغردت

إيفيت ، وزقزقت نسرين ، وهللت سميرة . وقال فاروق : « أما الرقص والدبكة والفنون الفولكلورية فمن اختصاص الجنس اللطيف . ولكن ما بالكم نسيتم مواهب شكرى ! ؟ » . . فصاحت إيفيت : « البيانو ! » . . فابتسم شكرى وقال : « أنا على استعداد ، ولكن من أين نأتى بالبيانو ؟ » فقال بشار : « اسمع يا أخ . هذا ناد اشتراكى ، يعنى أن على الجميع أن يشتركوا فى التحضير له والإشراف عليه . وما دام اختصاصك سيكون البيانو ، فأنت المسئول عن تدبيره . » . . فصاحت إيفيت : « لكن البيانو باهظ الثمن ! » . . فقال شكرى بكبرياء : « ولا يهمك ، سندبر المسألة » . . وتدخلت سميرة ، من خلال الزوبعة الضاحكة : « لا تحلموا كثيراً ، أجلوا كل هذا إلى ما بعد موافقة صاحبة المكان ! » . ورددت نسرين موافقة . . فهبّ بشار واقفاً ، بهوجائيته المعهودة ، وقال : « هيا إذن ! » . . لكن فاروق جذبه من ذراعه مستمهلا ، وأفهمه بأن طريقته هذه فى التصرف والكلام قد تنفر سامية من المشروع ، وأن عليه أن يلتزم الصمت ، حين يأخذ « هو » فى سرد التفاصيل وعرض المسألة بطريقته الأنيقة المتزنة . واقتنع بشار ، ووافقت المجموعة . . وأخذوا يخططون !

وقال فاروق متفلسفاً : « المسألة بحاجة للتخطيط . . ماذا تظنها ياعزيزى ؟ » . وأخذ ورقة وقلماً ، ووضع نقاطاً ، وفندها وفصلها ، ووضع رسوماً ، وحسب التكاليف والتبرعات التى تعهد بها الموجودون حتى الآن . . إلخ . وأخيراً وبعد كل ذلك وقفوا بجلال المقدم على معركة حاسمة تكلفه حياته ومستقبله. وتقدمتهم نسرين نحو المكتبة !

* * *

قال فاروق لسامية بعد الكثير من اللف والدوران واستعمال بلاغته واستعراض بعض مواهبه ، بما فيها خفة ظله : « كنا نثق بأنك من طليعة هذه الأمة . كيف لا وقد كنت عضواً فى النادى الثقافى يوماً ،

وقد كنت ركيزة من ركائز نشاطه ؟ ! » . . فقالت سامية مبتسمة : « كان ذلك فيما مضى ، يوم كنا صغاراً ! » . . فصاح بشار متعجباً : « ماذا تقولين ؟ وما أنت الآن ؟ أقسم بالله العظيم أنى نسيت من منكما الأكبر : أنت أم نسرين ! » . . فقالت نسرين بتواطؤ المتذلف الذى يبتغى نيل شيء مقابل نفاقه : « حتى أنا نسيت ، أقسم أنى نسيت من فينا الأكبر ! » . . وأخذوا يضحكون .

ثم أخرج فاروق عريضة رسوماته وعرضها على أنظار سامية ، مع الكثير من الاحترام والإعجاب بشخصها الكريم وثقافتها التى تكاد تبذ ثقافته هو شخصياً ! . . وبعد الكثير من الوقت ، والكثير من الجد والهزل والافتراضات والاحتمالات ، السيئ منها والحسن ، وافقت سامية على السماح لهم باستعمال قاعة السينما ثلاث مرات فى الأسبوع ، ولمدة لا تزيد على أربع ساعات فى اليوم . . ثم التفتت إلى بشار وقالت : « أما بالنسبة للساحة الخلفية ، وكرة السلة والقوائم والمواسير ، فأظن أن هذا سابق لأوانه . أنت تعرف الظروف السياسية التى نمر بها ، وما من داع لفتح أعين الشرطة . إنى موافقة تماماً على وجوب وجود مكان يجمع النخبة فى هذه المدينة ، ولكن بشرط ألا يكون نادياً عاماً ، ثم ألا يكون نادياً إلا بالفعل ، أما اسماً ، فهو مكتبة ، ثم ألا يدخل فى عضويته إلا من أوافق عليه أولا ! »

. . والتفتت للوجوه المتلهفة ، واستطردت : « اعذرونى إن أنا صممت على وجوب معرفة الأشخاص الذين يدخلون المكان الذى يعتبر مكانى أولا وأخيراً ، أم ترانى مخطئة ؟ » . . فصاح بشار : « أبداً . . أبداً . . من يجرؤ على أن يزعم ذلك ؟ » . . فى حين واصلت سامية : « أى أننى سأكون المسئولة عن كل ما يحدث فيه ! ؟ » . . فقالت سميرة : « طالما أنك وافقت مبدئياً على أننا أهل لاستغلال القاعة ، فهذا يعنى أنك تثقين بنا ؟ » . قالت سامية : « طبعاً » . فعاودت سميرة :

« إذن ، فما دمت قد شرفتنا بثقتك ، فلم لا تكملين المعروف ؟ » .
فسألت سامية : « أى معروف ؟ » .

— ألاّ يكون الحكم على الأشخاص رهن مشيئة شخص واحد . نحن فى عصر اشتراكى .. ولابد من تطبيق الاشتراكية والديمقراطية .

فقالت إيفيت لسميرة ، متأففة : « ألا تكفين عن إدخال السياسة فى كل جزئيات حياتنا ! ؟ » .. فأجابتها سميرة ، بصوفية أو ما يشبه الصوفية : « نخطئ إذا ظننا أن السياسة ليست المرادف الثانى لكلمة « حياتنا » ! » . . فقالت إيفيت بتبرم : « حياتك وحدك . أما نحن فلا ! » . . فابتسمت سميرة بسخرية وقالت : « صحيح ، كيف نسيت هذا ؟ السياسة للاجئين أمثالى فقط ، لمن ذاقوا التشرد وجربوا النوم تحت الخيام ، أما أنتم أبناء النعمة فلكم عطاء الله ، وأما نحن فعلينا رحمة الله ! »

استدارت إيفيت بوجهها وقالت متمتمة : « لا تنفك تذكرنا بخيمة عاشت فيها بضع سنوات ! » . . فقالت سميرة ساخرة : « وهل كان باستطاعتك العيش فيها بضعة أيام ؟ » . . فصاح بشار : « ما هذا ! أتريدون أن تقلبوها مأتماً ؟ » . . فقالت إيفيت : « سلها هى ، فهى التى أخرجتنا عن موضوعنا ! » . . فقالت سميرة ، جادة : « كنت أقول إننا طالما نلنا ثقة السيدة سامية ، فلا مانع من إشراكنا فى تحمل بعض المسئوليات ، وأنه يكون من الأفضل أن تكون عضوية النادى غير معلقة بإرادة فرد واحد : أولا لأنى ضد الأحكام الفردية . وثانياً لأن الأحكام الفردية تكون عرضة للخطأ أكثر من الأحكام الجماعية ! »

تمتمت إيفيت بغيظ : « يا سلام عليك يا سميرة ! » . . وتظاهرت سميرة بعدم السماع ، فواصلت كلامها : « لم لا نؤلف مجلساً يضم مجموعتنا ، تعرض عليه المشروعات التى تقترح ، ويؤخذ القرار بالتصويت ؟ » .

فقالت سامية : « ولكن ألا ترين أنى سأكون المسئولة الوحيدة عن أية خسارة تنال المكان ؟ » . . فأجابت سميرة : « ولم نفترض أنها خسارة ؟ إن قيام نشاط كهذا فى مكتبتك سيزيد من كمية المبيعات . وطالما أن الرواد سيكونون من المثقفين ، فسوف تكون الكتب زادهم الأساسى ! » .

وازنت سامية الفكرة من الناحية التجارية ، فلم تملك أن ابتسمت معلقة : « هذا صحيح » . . فقال لها فاروق : « أترين يا سيدتى الجميلة ؟ نحن لا نفكر إلا فى المشروعات المجدية ! » . . فضحكت سامية وقالت : « حسنا ، أوافق على إقامة المجلس ، بشرط أن تكون لى فيه صلاحيات خاصة ! »

وإذ تساءلوا عن قصدها ، أجابت : « حق استعمال الفيتو !» . وأرادت سميرة فتح فمها ، فأوقفتها لكزة تلقتها من نسرين التى همست لها : « لا تفسدى الموضوع ! »

وغردت إيفيت ، وزقزقت نسرين ، وهللت سميرة . . حين دعاهم فاروق للغداء فى أحد المطاعم الفخمة ، احتفالا بالمناسبة السعيدة . واعتذرت سامية ، بينما غادرت المجموعة الشابة المكان . وقالت نسرين وهم يجلسون فى سيارة فاروق الضخمة : « لم لا نتناول الطعام على شاطئ البحر فى (أريحا) ؟ وسيكون بإمكاننا مشاهدة المعرض المقام فى فندق البحر الميت ؟ » . . فصاح بشار مهللا للفكرة الجهنمية ، بينما انطلقت السيارة فى طريقها إلى (أريحا) !

٣

عندما تستبد الوحدة بالمرأة ، ترتمى فى أحضان الذكريات ، تسترجع الماضى : الأيام السعيدة منه ، والوجوه التى كانت السبب فى تلك السعادة . . وعندما يطل ذاك الطيف الأليف الوديع ، يعود حاملا معه كل الأحاسيس المرهفة التى طفح بها القلب يوما : كل الحنان ، كل الدفء والتحليق فى سموات شفافة الزرقة . وتهيم المرأة حبا ، ربما لذكرى

الحب ، وليس لمن كان السبب فيه ! . . وتبيت الذكريات أكثر إثارة من الواقع نفسه ، فتنغمس فيها وتمعن فى الانغماس ، علها تنسى برودة الحاضر ، وظلام المستقبل !

كانت سامية تسير فى الشارع الموصل لمنزلها ، وحيدة ، فالمكتبة تغلق أبوابها فى الواحدة ظهراً ، وأختها ذهبت مع المجموعة الضاحكة . . أما هى فما من ملجأ لها ، سوى استرجاع الماضى ونبش الذكريات !

كانت الأرض ما تزال مبتلة بماء المطر ، وبرك صغيرة تملأ الشقوق والحفر ، والسماء لا تزال تتوعد بالكثير من السيول . وتوقفت سامية بجانب حديقة أحد البيوت الحجرية البيضاء ، وكانت هناك نباتات كثيفة ترتمى متعانقة على حافة السور . وقد انبثقت من وسط خضرتها الداكنة المبتلة زهيرات صفراء ، تحيط بها أهلة ليلكية . توقفت أمام الزهيرات تحدق فيها . وكانت حساسيتها تتكثف ، وتتكثف . أصبح من المستحيل احتضان كل تلك الكثافة داخل جسد محدود الطاقات ، ضيق الاتساع . وشعرت بنفسها كما لو كانت وشاحا عريضاً ، نسيجه ريش ، ولونه ضباب ، تعابثه العواصف وتلويه الرياح . والرهافة تزداد ، والشجن ينضج ، والحنين إلى الماضى يتضخم ، والشوق المستحيل لذاك الوجه الحزين الذى يحمله أعز إنسان كان يتمدد ويتمدد . . . كان صديقاً . . كان حبًّا . .

وطغى على كيانها فيضان داخلى غمرها بالذهول ، والحزن العميق ، فأخذت تئن تحت وطأة الوحشة والعذاب ! . . لم لا تموت ؟ فماذا تعنيه الحياة سوى الحرب ، والوحشة ، والمرارة ؟ ! لقد فقدته ، وبذلك فقدت إحساسها بالحياة ، وارتباطها بها . وهو لا يعرف أنها خانت نفسها أكثر مما خانته ، وأنها مذ بعدت عنه بعدت عن ذاتها . فكل الأشياء أصبحت تافهة : الألوان أصبحت كالحة ، الطبيعة ما عادت جميلة ، وهى كذلك ما عادت جميلة . . والحياة أصبحت عبارة عن درب أسود كئيب .

إنها تعرف ما هى بحاجة إليه ، تعرف أنها بحاجة لرجل . الرجل فى نظرها لا يعنى « ذكراً » ، يغرقها بالجنس واللذة . الرجل فى نظرها عبارة عن إنسان كبير ، له ذراعان تستطيعان احتضان الكرة الأرضية بأكلمها ، له دماغ يستوعب الحزن ، ويعرف من أين يأتى وكيف يذهب . له عينان فيهما حنان الملائكة وشفافية الإله . . وما من رجل له كل ذلك سواه . . سواه !

وغمر وجنتيها سيل من الدموع . .

لقد حاولت البحث عن رجل . لم تكن تؤمن بأن للرجل من الحق فى الحياة أكثر مما لها ، وقد حاولت البحث عن الحياة من خلال الجنس ، عدة مرات ، وكل مرة انتهت إلى هزيمة ، فما كان الجنس يثير فى نفسها سوى حاجة ملحّة للتقيؤ . وكل هؤلاء الرجال الذين عرفتهم فى أمريكا بعد وفاة زوجها كانوا سحالى باردة رخوة ، لا يبعثون فى النفس سوى الخوف والمرض ! ... أهى عقدة المرأة الشرقية التى ما فتحت أذنيها إلا لتسمع بأن الجنس خطيئة محرمة ؟ .. أهى التفاهة التى يغرق فيها الرجال الذين قابلتهم ؟ . . أهى ذكرى عبد الرحمن ؟

من يستطيع أن يعرف ؟ هى نفسها لا تعرف !

وغمر فؤادها وجد حاد مفرط التوهج ، فأخذت تتمتم بهوس :

« عبد الرحمن ! . . عبد الرحمن ! . . عبد الرحمن ! »

* * *

كان عبد الرحمن يجلس تحت مظلة تقبع فوق منضدة مستديرة ، غرزت أرجلها فى الرمل ، وقد جلست قبالته زميلته الرسامة السورية « سهى بركات » . كان البحر الميت يمتد أمام ناظريهما ، والشمس ترش وجهه بقصاصات فضية متألقة . . وقالت « سهى » ، فى محاولة فاشلة لافتتاح موضوع للحديث : « أتظن بأن الألم هو الذى يخلق الفنان ؟ » . . فرفع إليها نظرة ساهمة ، كمن لم يفهم السؤال . . وقالت

محاولة التوضيح : « فى مقالك الأخير ، قلت إن الألم هو الذى خلق معظم الخالدين ! » . . فقال باقتضاب : « أعتقد ذلك . » . . فقالت باسمة : « الحزن أصبح موضة الفنانين و" تقليعتهم " . أصبح ادعاء أكثر منه إحساساً ! » .

قال بلا مبالاة : « ربما » . . فقالت مستدرجة : « أوردت أمثلة عن "تولوزلوتريك" و"فان جوخ" و"جويا"، ونسيت "بتهوفن" ! » . . قال بملل : « كنت أستعرض حيوات الرسامين لا الموسيقيين » . . فقالت بعجب : « وما الفرق بين فن وآخر ! ألم تقصد الفنان على وجه العموم ؟ » . . » قال بصبر : « هذا صحيح ، ولكنى ما طرقت سوى أبواب الرسامين . كنت أحاول إقامة وجه للمقارنة بين أعمالهم . ولو كنت أدخلت بتهوفن لوجب أن يصبح المقال مقالين . » . . تساءلت : « تقصد أنه كان يصبح طويلا ! ؟ » . . قال بدون اهتمام : « بل يصبح متشعباً » .

وأشعل سيجارة ، وأخذ يرقب البحر من خلال عدسات نظارته . . وأخذت هى تتأمله . كانت ممن يجدن سحراً خاصاً فى رجل يضع نظارات طبية لها إطارات سوداء . وكان الشيب الذى جعل من شعره رماداً يثير فى نفسها رهبة ، وفى قلبها تحفزاً ، وفى أحاسيسها إثارة . لم يكن ضخم الجثة ، لكنه ضخم الشخصية . كان إذا تحدث سكت الآخرون ، وإذا كتب ناقش النقاد ، وإذا رسم امتلأت الصالات . وكان إعجابها به يزداد . وكانت ترى فى وجودها معه فى معرض واحد إحدى تلك الفرص التى لا يمنحها القدر إلا مرات قلائل فى العمر !

وكان عبد الرحمن يجد فيها رسامة موهوبة ، وفتاة جميلة ، ونفسية غريبة . كانت تعجبه ، لكنه لم يكن على استعداد لإقامة علاقة صادقة معها ، أو مع أى امرأة أخرى . كان يعتقد بأن الحب نوع من الاستعباد ، نوع من « الذل » هو فى غنى عنه ! ثم إنه ما من

امرأة تستحق أن تنال قلبه وفكره . لقد أحب مرة ، وتركته حبيبته حين كان فى أمس الحاجة إليها . تركته وراء القضبان وتزوجت ثرياً مغترباً طارت معه إلى أمريكا . . ولا بد أنها كانت فى بحر من السعادة حين كان هو فى أعمق أعماق الشقاء ! . . حسناً ، إن كانت هذه هى طبيعة المرأة ، فما من داع لدخولها حياته ثانية . واحتياجات الجسد قد تلبى ، فالمعجبات كثيرات ، وهو لا يحاول الاصطياد . كل ما عليه هو أن يلبى دعوة ملحة متشوقة !

قالت « سهى » وهى تنهض : « ألن نأخذ قسطا من الراحة ؟ أشعر بالنعاس يغلبنى على أمرى ، وأنا أفضل أن أرتاح قليلا قبل افتتاح الصالة عصراً » . . وقام واقفاً ، وسارا معاً على الرمل ببطء . لم تشأ فرض حديثها عليه بعد أن وجدته غير ميال للكلام . . ودخلا الفندق الضخم ، وأخذا يصعدان الدرجات المغطاة بالسجاد الأخضر ، صامتين . . وعندما وصلت إلى باب غرفتها ألقى إليها بتحية مهذبة ومشى قاصداً غرفته .

وخطر لها خاطر جرىء : « لو أنه دخل غرفتى ؟ ! . أتمنى أن أعرف كيف يمارس الحب ، وبأية نفسية ! . . يعجبنى شكله ، وأظننى سأشتهيه بعنف أكثر إذا واصلت التحديق فى وجهه ، وتتبع حركاته ، والاهتمام بخصوصياته . يبدو بارداً ، ولكنه لو كان كذلك لما أنتج تلك اللوحة الصاخبة التى أطلق عليها اسم (لحظة حب) ! . . لوحة مثيرة . . ومما لا شك فيه أنه قد مر بتلك اللحظة . . شىء مضحك ! وكيف أفترض بأن رجلا مثله لم يمر بلحظة حب ! . . ألوان " لحظته " تلك غريبة ، فقد استعمل ألواناً تثير الذهول الممزوج بالدهشة . كنت أعتقد بأن اللون الأحمر هو الذى يستعمل فى رسم لوحة كهذه ، أما هو فقد استعمل الأصفر ، على خلفية برتقالية متوهجة ، فظهرت اللوحة كقطعة من الشمس ، أو برتقالة ناضجة ، بل زهرة عباد الشمس

الغجرية الألوان المتعالية الرأس . إنه يبدو متأثراً بأسلوب فان جوخ ، بيدأن خطوطه أكثر مرونة وليونة . "لحظته" تلك فيها مزيج من الوحشية واللطف ، مزيج من العنف والرقة ، من السعادة والألم . ترى ، هل مر بهذه اللحظة ، أم أنه يحلم بها ؟ »

ووقفت أمام المرآة تتأمل صورتها ، وعلى شفتيها الجريئتين ابتسامة ماكرة . كان شعرها الأسود الأملس ينحدر خيوطا حريرية سوداء ، مغطياً كتفيها ونهديها . أما نهداها فكانا قبتين شامختين ، فى قدسية وأصالة . . « ما زلت فتاة . . باباً مغلقاً . . أرضاً بوراً . لوحة لم ترسم بعد ! . وأنا فى الانتظار ، انتظار الطارق الجرىء ، الفلاح المعطاء ، الرسام المبدع . وهذه البلاد لا تحتوى إلا رجالا يحلمون بإناث يحبلن ويلدن ، ويحشين ورق العنب ! » .

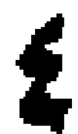
وابتسمت بسخرية . . « على أن أختار : بين عبودية الفن ، وعبودية الرجل ! والفن عبودية تقود إلى الحرية ، أما عبودية الرجل فمذلة وانكسار . وقد اخترت طريقى ولن أحيد عنه . قد أجد الحب يوماً ، ولكنى لن آخذه إلا من إنسان يعرف من أنا ، وما وظيفتى ، ولم خلقت ! . . ولا ينتظر منى مولوداً كل سنة ، ويقعدنى مشلولة عن التفكير والحركة ، بانتظار رجوعه البيت حاملا صلعته وبطيخته ! » .

وقهقهت بصوتها العريض قهقهة غريبة ، وكانت تدور فى أنحاء الغرفة عارية ، رغم برودة الجو ، ثم انسلت تحت غطاء السرير الأبيض ، وأخذت تدلك صدرها بيدها ، وتحرك قدمها طلباً للدفء . « أحب البطيخ فى الصيف ، وإذا لم يحمله ذاك الرجل فسأضطر لحمله أنا . ما أسخفنى ! . أفكر كالمراهقات ، أو ربما كالأغبياء . وقد أكون غبية . . لكننى لست غبية ! »

كان شعرها مفروشاً على الوسادة خلف رأسها ، وعندما استدارت على جانبها الأيمن سقطت خصلة باردة على ظهرها ، فأخذت ترتجف

ببطء ، وعادت تدلك صدرها بيدها . « ورغم جمالى فهو لا يأبه لى ، ولا يحاول استغلال المواقف . أهو التهذيب ، أم الكبرياء ؟ . . يقولون إنى مثيرة ، يظنون أن الجمال الملموس هو مصدر الجاذبية ، أما أنا فأقول إن الإحساس هو المصدر . فما معنى أن تكون المرأة جميلة ومتبلدة؟ تكون كالدمية ، ويكون وجهها كالقناع ، وأطرافها باردة كمقابض الأبواب ؟ ! .. وطريقة التفكير لها أثر كذلك، فأنا أومن بالذبذبات التى يطلقها العقل ،كما تطلق محطة الإرسال بها . فمثلا عندما أرى رجلا يعجبنى ، أحس بهذا فوراً ، ولا أعبأ بإخفاء ما أحس به . قد لا أفصح ، ولكننى أحس وأفكر ، وتبدأ أحاسيسى بإرسال ذبذبتها ، وعقلى يبث موجاته . وقد تلتمع عيناى ببريق متحفز ، وقد يكتسى وجهى بمظهر متألق ، وقد ترن فى صوتى نبرة مثيرة ،ا وهنا تكمن جاذبية المرأة !

« وعندما أتمنى النوم على ساعد رجل ، أعترف لنفسى بهذا ، ولا أكذب عليها كما تفعل النساء فى بلدى ! وقد يكون هذا عاملا من عوامل الإثارة . ولو كان الأمر كذلك ، فكل النساء مثيرات ، لأنهن يحلمن كما أحلم ، ويشتهين كما أشتهى ، ولكنهن كاذبات منافقات . أما أنا فصادقة وصريحة ، فما وجه العيب فى أن أتمنى رجلا ؟ أليست هذه سنة الطبيعة ؟ ولماذا يحق للرجل أن يشتهينى ولا يحق لى أن أشتهيه ؟ ألأنهم قالوا بأن ذلك « عيب » ؟ . . أنا لا أعترف بصواب أحكامهم ولا بأصالة تصرفاتهم ، ولذا ، فأنا أتمنى وأشتهى وأحب كما يحلو لى ، ولهذا السبب أيضاً ، فأنا مثيرة بشكل غير عادى كما يدعون ، فى حين أننى لا أمثل إلا عينة صادقة من بنات جنسى . . . » . . ونامت وهى تحلم بطارق الباب المغلق . . بالفلاح المعطاء . . وبالرسام المبدع . . فقد كانت فى الانتظار !



فى أحد أركان الصالة الضخمة ، وقفت المجموعة الضاحكة تتأمل اللوحات ، وتعلق على « ما » فى الصالة بقدر ما تعلق على « من » فيها ! ..

كانت النساء يرتدين أجمل فساتينهن ، ومما لاشك فيه أن مدام «بتيت باري» قد باعت أثمن أزيائها بهذه المناسبة السعيدة . وصالونات التجميل كانت تباع مواعيدها فى السوق السوداء ، وربما كانت لا تزال بعض النسوة ينتظرن رحمة الله «والسشوار» فى صالون «شكوكو» حيث تصفف «إيفيت» شعرها . وربما أقفلت أبواب المعرض قبل إقفال أبواب حلاقى النساء ! . . ولكن لا بأس ، فالليل طويل ، والنوادى كثيرة ، وساحات الرقص فى الفنادق الفخمة تمتلىء حتى الفجر ، فوسم الأعياد على الأبواب ، والسياحة هذا العام شملت حتى بعض أجزاء أوربا الشرقية . وفى العامين المنصرمين ، ١٩٦٤ و ١٩٦٥ ، كانت السياحة قد وصلت إلى قمة مجدها ، حتى إن ثلاثة فنادق أو أربعة ضخمة أقيمت فى مدينة القدس وحدها . وقد امتدت حركة البناء حتى شملت (رام الله) و (أريحا) و (بيت لحم) وبقية المناطق السياحية .

وانعكس ضوء الثريات الكريستالية على السجاد الأخضر المحلى برسوم ذهبية . ومن الواجهة الزجاجية العريضة المطلة على مياه البحر ، ظهرت السماء متلبدة ، والغيوم رمادية وداكنة ، وعلى سطح الماء انعكست بعض حمرة أطلقتها الشمس المنسحبة بهدوء وسلام . وبدأت قطرات قليلة من المطر فى التساقط على وجه البحر الساكن ، عديم الموج والزبد :

تلفتت «إيفيت» حواليها بضيق ، وأخذت ترمق أناقة السيدات بغيظ وحسرة . لم تكن قد أعدت عدتها من أجل هذه المناسبة . فجاءت بملابسها الصباحية وتسريحتها العادية ، وهذا لا يناسب الجو الحالى ، ثم إنها كانت بانتظار مناسبة كهذه لترتدى فستانها المخملى المطرز بأسلاك الفضة واللؤلؤ . . فكيف غاب عن بالها هذا الموقف ! !

ومرت أمامهم سيدة ترتدى ثوباً حريرياً بأكمام فضفاضة ، ومن تحته ظهر سروال عريض الساقين ، وقد زينت حوافه بحبات من اللؤلؤ . وكان شعرها مرفوعاً إلى أعلى ، تكاد تبتعد قمته عن جبهتها بما لا يقل

عن شبرين كاملين . ورمقتها إيفيت بخيبة ، وتحسست شعرها بقلق واضطراب ، وتنهدت بصمت . . فى حين قال فاروق بإعجاب : « ياللإبداع ، هذه أبدع لوحة فى المعرض ! » . . وقالت سميرة بإصرار : « بل إن لوحة "البؤساء" هى أروع ما فيه ! » . . فاستدار فاروق ، ورأى إيفيت تقف بجانب الزجاج وإلى جانبها إناء فخارى مما يستعمل للزراعة المنزلية ، وقد تفرعت أغصان النخلة الصغيرة ، فاصلة إيفيت عن المجموعة . وكان باستطاعته أن يمد رأسه من خلال أكف النخلة ويحدثها ، دون أن يلفت نظر أحد إليه ، فقال وهو يمد رأسه من خلال النخلة : « ما رأى إيفيت فيما ترى ؟ » . قالت متمتمة : « لم أكن أعتقد بأن مستوى الأناقة سيكون عالياً بهذا الشكل ! » . قال باسماً : « الجمال عندى أثمن من الأناقة ! » . وكانت فى صوته رنة غامضة . وكان للجملة وقع جميل فى نفسها ، وقد اعتبرت قوله هذا مجاملة لطيفة ، فهو يقصد أشياء تفهمها حتى ولو لم تستطع تفسيرها . قال بلطف شديد : « أى لوحة أعجبتك ؟ » قالت بصوت يغالبه عدم الثقة : « تعجبنى "لحظة حب" . » . . وكان « بشار » يهتف للمجموعة ضاحكا : « أنا معجب بكل ما أرى ، وخاصة بالعنصر النسائى . أما بشأن الفن ، فأنا أفضل الفن اللطيف ! » . . وانفلت من بينهم متجهاً ناحية الزاوية التى تعرض فيها لوحات « سهى بركات » . . وتساءل فاروق بينما كان شكرى يناقش سميرة حول لوحة البؤساء : « هل أعجبتك "لحظة حب" ؟ » ، فابتسمت سميرة بانطباع يشبه الخجل وقالت : « إنها مثيرة فعلا . ألا ترى ذلك ؟ » . فابتسم برقة وقال : « فعلا ، وأظننا نلتقى فى كثير من ميولنا » . قالت وهى تحمر : « وأنا أعتقد ذلك » .

استرق فاروق نظرة لظهر شكرى الطيب القلب ، وعاد يقول محاولا الإيماء لإيفيت بأشياء يقصدها ولكنه يخفيها : « أتعرفين أن كلا منا اختار اللوحة التى تناسب نفسيته ؟ » .. وهنا علت وجهها حمرة مفاجئة ! وادعى هو عدم ملاحظة ذلك ، فاسترسل : « عبد الرحمن ليس فنانا

فحسب ، بل هو عالم نفسى ! » . . واستدار بظهره لظهر شكرى الذى كان لايزال يناقش "البؤساء" ! . . وقال فاروق وأسنانه تطبق على طرف غليونه الذى كانت رائحة تبغه تثير فى إيفيت أحاسيس ساذجة لا تنتاب إلا فتاة أصغر من أن تكون مراهقة : « لو كنت عبد الرحمن لما اتخذت سواك نموذجا ! » . . فاصطخب وجهها بانفعالات غريرة ، وأرخت أجفانها بحركة ساحرة . أما هو فأخذ يتأمل فمها القرمزى الصغير ذا الشفتين الممتلئتين ، وأنفها الدقيق الذى تنتهى استقامته بفتحتين صغيرتين جداً . وكانت ذات بشرة ناصعة البياض مشوبة بالحمرة ، وعيون شديدة الزرقة ، أما جسمها الممتلئ ، ففيه تعاريج وانحناءات بالغة الإثارة !

وكانت ترفع عينيها ، فتجد « فاروق » ما زال محدقاً فى وجهها ، متخذاً وضعاً رومانتيكياً . . العينان شبه مغلقتين ، والفم يمتص طرف الغليون موحياً بشتى الإيماءات ، ويده تحتضن كرة الغليون كما لو كانت تحتضن قبة نهد فج ! . . فتعود وترخى جفنيها ، بحركة توحى بالخوف ، والترقب ، والدعوة ! . . وقال فاروق ، متخذاً هيئة محلل نفسى : « مذ رأيتك لأول مرة ، عرفت بأن هنالك لغزاً فى حياتك ! » . فابتسمت إيفيت بمرارة من تقول : « كيف عرفت ! » . وكان فاروق يعرف كيف يجعل المرأة تحس أنها بطلة لقصة درامية ، وأنها مظلومة ، وأنها جوهرة فى يد فحام ! وبالتأكيد ، أشعرها أنه البطل الذى سيخلصها من براثن الألم ، ومن أيد قاسية لا تعرف كيف تحافظ على مشاعرها المرهفة ، ومن الحرمان العاطفى الذى تعيشه . قال وهو يمسح جبينه بمنديله الناعم : « الجو خانق هنا . . » . . واسترق نظرة مستكشفة للمحيطين حواليه وقال : « أتحبين استنشاق قليل من الهواء المنعش ؟ » ، وسار دون أن يسمع إجابتها ، واتجه ناحية المدخل دون أن يلتفت خلفه ليرى هل ستتبعه أم لا ، فقد كان واثقاً بنفسه ، وبسذاجة إيفيت ! . . فأخذت ترتجف ، وشعرت بالضعف يأخذ طريقه إلى قلبها . ولكن كان هناك

رادع الخوف ، وإحساس آخر تفهمه ولا تستطيع تفسيره ، اسمه الضمير! .. وشعرت بالخوف مما حدث ، ومن نفسها ، فمشت مسرعة تجاه زوجها وأمسكت بيده تشدها ، فالتفت إليها وسألها ببرود : « ما بك ؟ » . قالت مبتسمة : « لا شيء . تعبت من الوقوف » .

وأخذت تنظر فى وجهه بانتظار كلمة عطف ، أو ابتسامة ألفة ، لكنه كان من ذوى الدم البارد . وأحست بالراحة للحظات ، فقد نجت من الفخ ، ونجحت فى الاختبار . وبعد لحظات أخذ الملل طريقه إلى نفسها ، وأخذت تقارن بين زوجها وبين فاروق ، والفرق شاسع بالطبع : هذا رجل ملىء الرأس بالمسئوليات ، وذاك لا مسئولية لديه إلا التخطيط لمشاريع مسلية وطريفة . هذا أب لطفلين ، وذاك أعزب طليق . هذا طيب القلب بسيط المظهر برىء النظرات ، وذاك يلبس الجوخ ويدخن الغليون ويعرف كيف يوقع المرأة فى حبائله من أول نظرة . ولكن ما رأته إيفيت هو أن هذا الرجل – زوجها – يشعرها بأنها لا أكثر من جذع شجرة جافة ، وذاك – فاروق – يشعرها بأنها خوخة شديدة النضج ، حلوة المذاق ، ناعمة الملمس ! وهذا شعور لاتستطيع المرأة عموماً مقاومته ، وخصوصاً من لها مثل سذاجة إيفيت!

وهمست « نسرين » : « أهذا هو عبدالرحمن الميثلونى ؟ » .وكان عبدالرحمن يقف بالباب الزجاجى العريض ، وقد فتح الباب على مصراعيه ، ووقفت بعض السيدات ممن يمثلن الاتحاد النسائى على الجانبين ، وقد زينت صدورهن بشارات ترمز للجمعية التى ينتظمن بها . والتفتت السيدات الأنيقات بلهفة جليلة ، بينما أخذ الرجال فى تقديم السيجار الفاخر لمعارفهم من الرجال . ودخل عبدالرحمن ، فلحق به صحفيان وكل منهما يتسلح بكاميرا « فلاش » . وهمست إيفيت بانفعال : « ياهيبته ! إنه يبدو كواحد من العلماء ، لا أهل الفن . كنت أعتقد أنى سأرى رجلا بلحية مدببة وملابس مزركشة ، لكن هذا يبدو عادياً

ووقوراً . . ألا يبدو وسيما ؟ ألا تعتقدين يا نسرين بأنه يشبه "جاري كوبر" ؟ . فأجابتها هذه بلهفة : « أكاد أرى عظمته فى وجهه ! دعونا نلتقى به » . فقال شكرى ببرود : « فيما بعد . . ألا ترى ذاك الصحفى اللئيم وكيف يضايقه ؟ » . وكانت إيفيت ترقب الرجل العظيم بشبه تقديس ، ثم قالت لزوجها مناشدة : «تقول إنك تعرفه ، فلم لا تكلمه ؟». وعندما أحس شكرى بكل ذلك المقدار من التقدير الذى تكنه السيدات لأمثال عبد الرحمن من المشاهير ، أحس بالإهانة ، وبشىء يغلى فى صدره . . وقال باستخفاف : « ومن هو عبدالرحمن هذا ؟ لا تدعونى أعتقد بأنه بات إلها ! » . . وفى تلك اللحظة ندت صرخة مكتومة عن إيفيت وهى تهتف : « ذاك هو فاروق يصافحه ويكلمه . . يا إلهى . . أترين يا نسرين ؟ » . . وبدون تردد مشت نسرين تجاه الاثنين . فتبعتها إيفيت بعد أن تركت ذراع زوجها مدلاة إلى جانبه . وهو لا يزال واقفاً يرقب عبدالرحمن ، محاولا تحليل قيمته كفنان . . وكذكر ! . . وكان فاروق يقول لعبد الرحمن : «منذ خروجك من المعتقل لم تنل (رام الله) منك سوى معرض واحد . فهل تكون أوربا أحوج منا لفنك ؟ » . . ابتسم الميثلونى وقال بهدوء : « ظروف . » . فقال فاروق عاتباً : « أية ظروف هذه التى تمنعك من الاستقرار فى مدينتك ومسقط رأسك ؟ » . قال عبد الرحمن مصححاً : « لا . . لا تخلط ، فسقط رأسى (ميثلون) ، ومنشأى (حيفا) ، ومهبط وحيى (رام الله) ». قال فاروق : « المهم أن رام الله هى التى أنجبتك » . قال عبد الرحمن ساهماً : « بل قل هى الأحداث » .

وكانت نسرين قد أصبحت على بعد خطوة منهما ، وقد وقفت إيفيت خلفها ترقب الفنان «المقدس» ، بشعره الفضى ونظارته بإطاريها الأسودين الأنيقين . قال فاروق مرحباً : « أهلا ، نسرين . أنت لا تعرفين الأستاذ معرفة شخصية؟ » . اقتربت تلك منه برهبة وهى ما تزال تبحث فى وجهه

عن سر عظمته وشهرته ، حتى أحسن عبد الرحمن بشيء من الدهشة ، فما الذى يسترعى انتباهها فى منظره بهذا الشكل ! ؟ . . وكانت هى تفكر بانشداه : « كيف يستطيع المرء أن يكون ضخماً بهذا الشكل ! » .. وكان هو يتأمل ملامحها العذبة بشيء من الاستغراب ، فكيف تستطيع فتاة ما على وجه الأرض أن تحمل هذا الشبه الغريب لوجه كان الوجود بأسره فى نظره؟ ورغم السنوات العشر ، رغم الاعتقال ، رغم العذاب والدموع ، رغم النسيان ، ما زال هناك إحساس أقوى من تعاريج الزمن ، إنه رعشة الذكرى المفاجئة التى تثار فى داخلنا ولو للحظات ، فتنبش الحنين لذكرى مضت وطواها النسيان ! . . وقال له فاروق : « أنت تذكر سامية » . . ولم يجب عبدالرحمن ، فقد فهم ، أو بالأحرى تكهن من تكون هذه الشابة . وقالت نسرين وهى تمد يدها مصافحة باندفاع : « سمعت عنك الكثير . كنت أتمنى رؤيتك . نحن يا أستاذ من مقدرى فنك العظيم . أنا لا أذكر إلا أنى معجبة برسام عربى يسمى عبد الرحمن . حتى فى أمريكا ، عندما كانوا يسألوننى عن فنانى المفضل ، كنت أقول بثقة : « الميثلونى » . هذا مع أنى لم أرمن لوحاتك إلا القليل ، ونحتفظ بواحدة لدينا حتى الآن ، وأظنك قد رسمتها منذ سنوات طويلة ، فتاريخها يعود إلى عام ٥٢ » . وكان عبد الرحمن يتأملها باهتمام ، وسألها :

— أية لوحة ؟ — « زهرة المرجريت » .

هز رأسه بدون تعليق ، فواصلت : « لا أذكر إلا هذه اللوحة معلقة فوق رأس أختى فى مكان ما . . أختى سامية . . أتعرفها ؟ " نزار " يقول إنكما قد التقيتما فى النادى الثقافى » . . . وقال فاروق موضحاً : « نزار صابر » . فقال عبد الرحمن مؤكداً : « نزار ، زميل الدراسة ورفيق الشباب . ما أخباره ؟ ألا زال مديراً لوكالة الاستيراد تلك ؟ » . قال فاروق : « لم يتغير من أمره سوى بنصره الذى ازدان بدبلة ، فإن صادفته فلا تنس تعزيته ! » . ابتسم عبد الرحمن وتساءل : « ومن تزوج ؟ أتكون

هى نفسها ؟ » . ضحك فاروق : « طبعاً . . ابنة العم الثرية » . وكانت إيفيت ما تزال ترقبهم بانفعال ، وفاروق يدعى عدم الإحساس بوجودها . كان يريد إفهامها بأنه غير راض عن تصرفها معه . ولذا فهو لايأبه بها ! .. فالتفتت نسرين وقالت معتذرة : « آسفة جداً ياعزيزتى ، أستاذ ، اسمح لى أن أقدم لك صديقتى "إيفيت" » . وأضاف فاروق موضحاً : « زوجة شكرى عبد الله » . . فصافحها عبد الرحمن مرحباً : « أهلا ، أهلا ، ما أخبار شكرى ؟ أما زال يهوى الموسيقى ! ؟ » . قالت إيفيت بسخرية : « أكثر مما يهوانى ! » . . وضحكوا . .

قالت نسرين : « لم لم تقم معرضك هذا فى (رام الله) ؟ » ؛ قال عبد الرحمن : « أبدا . لم تكن المسألة مقصودة . تلقيت دعوة من الاتحاد النسائى فى (أريحا) ، وكان أن رتبت السيدات المحترمات الموضوع بشكل مغر ! » . . فتساءلت نسرين : « وهل لو تلقيت دعوة من اتحاد آخر فى مدينة أخرى ، تلبى ؟»

— هذا يتوقف على الظروف !

وأخذت نسرين تنظر فى وجه فاروق كمن تستشيره فى موضوع ما . وتبادل الاثنان نظرة تدل على الفهم ، إذ قال فاروق بعدها : « ماذا لو دعوناك لإقامة معرضك هذا فى نادينا المتواضع ؟ » . تساءل عبد الرحمن متعجبا : « ناديكم ! ؟ » . وقهقه فاروق : « لا . لا . لاتحسبه النادى الثقافى ، فذاك قد ولى إلى غير رجعة ! » . وقالت نسرين كمن تسمع درساً حفظته فى الصباح : « ذاك ما زال مزدانا بالشمع الأحمر ! » . . فضحك عبدالرحمن ، فى حين واصل فاروق : « نادينا هذا ليس سوى قاعة فارغة لاتحتوى إلا بعض الكراسى الخشبية ، وشاشة تعرض عليها الأفلام الثقافية . إنه ليس نادياً بالمعنى الصحيح ، فهو مكتبة . فى صباح اليوم اتفقنا على هذه الفكرة ، لإيجاد مكان يلتقى فيه المثقفون» . وواصل توضيحه للأمر كمن يقدم اعتذاراً : « أنت تعرف الفراغ الذى

تركه النادى الثقافى » .

هز عبد الرحمن رأسه . . وقالت نسرين : « ولم تمانع سامية ، فقد سمحت لنا باستعمال القاعة » . . . وأخذ عبدالرحمن ينظر إلى نسرين مستطلعاً ، كمن يقول : « وما دخل سامية فى الموضوع ؟ » . فقال فاروق موضحاً : « المكتبة تملكها سامية . أنت لم تر مكتبتها . إنها حدث هام . المكان رائع ، والفكرة مدهشة ، وبإدارة من ؟ بإدارة ألطف امرأة عرفتها مدينتنا . ألا تذكر رقة سامية ؟ » . . ولم يجب عبدالرحمن ! . . فواصل فاروق موجهاً حديثه لنسرين ، كمن يقدم شكره واحترامه « بالنيابة » ، مقابل استعمال القاعة : « يخيل إلى أن ما من امرأة تتحلى بكل هذه الرقة والدماثة والنعومة أكثر من سامية ! » . ونظر إلى إيفيت وهو يغمز ، فاستدارت بعينها إلى عبدالرحمن . . فى حين واصل فاروق : « يخيل إلى أن هذه السيدة تعيش فى عالم آخر ، بعيد عن عالمنا وواقعنا . إن فى وجهها حزناً لا يستطيع رؤيته رجل دون أن يثير فى قلبه إحساساً بالذنب والندم ! » . . فعلق عبدالرحمن بسخرية دفينة : « وقد يكون العكس هو الصحيح ! » . . وابتسم الجميع على اعتبار أن التعليق كان نكتة عابرة . وعندئذ اقترب صحفى فضولى من الفنان وقال له مقاطعاً : « أتسمح يا أستاذ بسؤال واحد ؟ » . نظر عبد الرحمن فى وجه فاروق مستغيثاً ، فقال فاروق : « فيما بعد . ألا تراه منشغلا ومشغولا ؟» . فقال الصحفى بإلحاح : « طيب ، صورة واحدة » . هز عبد الرحمن رأسه وقال : « كل ما تريده منى احتفظ به للمؤتمر الصحفى . والآن أرجوك . خفف ضغط يديك عن عنقى ! » ونظر الصحفى إلى عنق عبد الرحمن بعجب . فأخذ فاروق يقهقه ساخراً : « يا للذكى » !

واقترب شكرى وسميرة من المجموعة، وصافحا الميثلوفى . وأخذ الجميع يبحثون عن « بشار» ، ولكن ذاك كان فى واد آخر . كان يراقب قباب صدر « مهى » بانشداه . . وهو يقول للرسامة الجميلة : « يصعب على

المرء أن يحزر من منكما أكثر فنًّا : « سهى » التى رسمت كل هذه اللوحات ، أم الفنان الأعظم الذى رسم «سهى » !؟».. وكانت هى تضحك وتقول : « ولم لاتسأله ؟ » . قال : « عندما يأخذنى إليه لن أنسى ذلك! »

ـ ومتى يتم هذا الحدث السعيد بإذن الله ؟

ـ عندما تطلقين علىّ صاروخاً آخر من مدفعية عينيك الذريتين!

وأخذت تضحك وتضحك ، فتجرأ وقال : « دعينى أر أصابعك! ». تساءلت بدهشة : « ولماذا ؟» قال : « لأرى إن كان هنالك قيد ما ! » ومدت يديها مبدية باطنهما . ورأى هو حلقة الخاتم ، فتساءل : « أهو قيد ، أم حلية ؟ » . أجابت : « حزر! . » . قال : «لقد حزرت منذ البداية ، فأنا أستطيع معرفة المرأة من عينيها ! » تساءلت : « وماذا ترى فى عينى المرأة ؟ »

ـ أرى نيرانا مطفأة ! ـ وماذا ترى فى عينى الفتاة ؟

قال بخبث : «نيرانا مطفأة أيضاً ، ولكن بانتظار من يحمل عود الثقاب ! » . قالت بغيظ ضاحك : « أنت بذىء اللسان ! » . قال مكملا : « . . والفعال أيضا ! » . . ثم أضاف وهو يقلب يدها ، متأملا الخاتم : « أستطيع أن أكون مهذبا عندما أعرف أن محدثتى قد بدأت تعبأ بى ! » . قالت : « ستظل قليل التهذيب إذن ! » . أجاب : « بل سأبدأ بالتهذيب منذ الآن ! »

وأمسك بيدها محاولا رفعها إلى فمه ، فهتفت بوجل : « لا ، لاتفعل ! ألا ترى الصحافة اللعينة ترقبنى ! » . . فقال وقد بدا الجد يكسو ملامحه : « وأين أراك كى أثبت لك أنى أجيد التهذيب ؟ »

ـ اتصل بى فيما بعد ، أما الآن فاذهب !

وكانت سميرة تقترب منهما قائلة : « يا آنسة ، هل فى استطاعتك الانضمام لمجموعتنا ؟ » والتفتت إلى بشار : « كنا نبحث عنك. فقد كنا نتدارس موضوع نقل المعرض إلى النادى » . . فتساءل بشار بلا مبالاة :

« أى معرض ! وأى ناد ؟ » . أجابت : « أعنى نقل هذا المعرض إلى نادينا . أم تراك فى حالة لا تسمح لك بالاستيعاب ؟ ! »

قال متذكراً : « آه ، عرفت . . ماذا تقولين ؟ المعرض والآنسة سهى فى (رام الله) ! ياللهول ! طبعاً ، طبعاً . . ماذا إذن ! »

وأمسك بيد الرسامة ، وسحبها معه إلى حيث تقف المجموعة .

٥

تساءلت سامية بوجل : « ورضى بذلك ؟ ! أواثقة أنت بأنه قبل الدعوة ؟ » قالت نسرين بفخر : « مئة بالمئة ! » . قالت سامية بحذر : « وهل عرف المكان ؟ أقصد هل عرف أين ستعرضون لوحاته ؟ »

أجابت أختها : « طبعاً » ، فتساءلت سامية : « وهل قال إنه يذكرنى ؟ أقصد يعرفنى ؟ »

قالت نسرين بدون اهتمام : « لاأذكر بمَ أجاب ، رغم أنى سألته هذا السؤال . لقد اختلط الموقف عندما ذكرت نزاراً ، فبدأ يسألنا عنه » . وأحست سامية بالمرارة تملأ قلبها : « لقد نسينى ، طبعاً ، وكيف يذكرنى بعد كل تلك السنين ، وبعد كل ما حدث ! لقد نسينى . . لقد بت منسية » . . وكانت نسرين تستطرد : « . . وقال فاروق إنك لطيفة ، وإنك رائعة . . وقال أشياء أخرى جميلة عنك . أما عبدالرحمن فهو رغم مظهره الجاد يميل إلى المرح ، ولقد أضحكنا بتعليقه . قال فاروق إن فى وجهك حزناً لا يستطيع الرجل رؤيته دون أن يحس بالذنب والندم . فقال عبد الرحمن : « أو أن العكس هو الصحيح ! » ، وضحكنا .

عضت سامية شفتها بدون وعى ، وأخذت ترتجف بصمت : « نعم ، العكس هو الصحيح . مازال يذكر ما حدث ! » . . وأعقب ذاك الشعور بالألم لمحة أمل : « إنه مازال يذكر الإساءة ، إذن فهو مازال يذكرنى ، وإلا لما حوت كلماته ذلك المقدار من النقمة الساخرة . لا بأس . .

فليذكر الإساءة، وليحاول الانتقام، وليشمت بى . . على شريطة أن يذكرنى ! »

* * *

وابتداء من اليوم التالى ، ابتدأت الترتيبات للمعرض . فلم يفارق بشار الدوائر الرسمية إلا بعد أن حصل على إذن بإقامة معرض فى المكتبة .

وراح فاروق يضع الرسوم ، ويرسم الخطوط ، ويحضر كشفاً بأسماء المدعوين لحفل الافتتاح. وشكرى استأجر بيانو من محلات « بوتاجى» ؛ و « إيفيت » أخرجت فستانها المخملى المطرز بخيوط الفضة واللؤلؤ من الخزانة، استعداداً لتدشينه. ونمقت سميرة الكلمة التى ستقال ترحيباً بالرجل العظيم . وكان الكل شعلة من نشاط وحيوية، عدا واحدة قبعت فى مكتبها الأصفر تتخيل ما سيكون عليه الموقف حين تراه : هل ستنهار ؟ هل سترتمى على كتفه طالبة الصفح والغفران ؟ ولكن كيف سيقابلها هو ؟ وماذا سيكون موقفه منها ؟ الغضب ؟ السخرية ؟ اللامبالاة ؟ هل سيبتسم ؟ هل ستعلو التقطيبة وجهه ؟ وهل يصافحها ؟

وجاء نزار يسأل بدهشة : « أصحيح ما سمعت ؟ » . . ورأى الترتيبات الهائلة التى تجرى فى المكان ، فقال وهو ينظر فى وجه سامية : « إذن فالخبر صحيح ! » . . فقالت بتردد : « نعم ، هذا آخر ما كنت أتوقعه . صحيح أنى كنت أحلم بلقياه ، كنت أحلم فقط ! » . . وكان وجهها حزيناً ويائساً ، واستدارت نحو النافذة ، محاولة إخفاء ما بها . . فى حين قال نزار مواسياً : « ولم كل هذا القلق ؟ إنها الظروف ، إنه القدر » . فقالت وهى ما تزال مستديرة بوجهها نحو النافذة : « هذا ما نقوله عندما نرتكب الأخطاء . يا لسخفنا ! » . . ومشت ببطء ، ووقفت أمام لوحة « المرجريت» تتأملها ، وكانت ذكريات الماضى تغترفها . ثم مشت إلى حيث جلست وراء مكتبها ، وأشعلت سيجارة ، وقالت بمرارة ساخرة : « نعم ، هذا ما يفعله الإنسان . . عندما يخطئ ، يلقى

بأعباء أخطائه على أكتاف القدر ، وعندما يصيب ، يردد بغرور وبلاهة :

ومشيئتي قدر على أقدامه   تتفتت الأيام والأقدار

ترى أين تكون مشيئتنا حين نخطئ ؟ أم أن مشيئتنا هي التي تدفعنا للخطأ ؟ ومن الذى اختار الخطأ ؟ القدر أم نحن ؟ أم أن الخطأ فينا ؟ إذن فشيئتنا خطأ ، وأقدارنا خطأ ! »

ونفضت رماد لفافتها بتبرم : « وعندما نعمل ونفشل يقال لنا : « لن يصيبكم إلا ما كتب الله لكم » . وعندما نعمل وننتج يقال : « بمثل أعمالكم توعدون ! » . فأين كان الوعد حين عملنا وفشلنا ؟ .. وذاك الذى لم يعمل لكنه نجح ، أى المثالين ينطبق عليه ؟ . . أما أنا ، فلم أعمل ، وقد فشلت ، و بهذا أكون بمثل عملى قد وعدت ! »

والتفتت إليه وقالت بجد : « نزار . أنت الوحيد الذى عرف الماضى ، والوحيد الذى يعرف الحاضر . فهلا كتمت الحاضر كما كتمت الماضى ؟ » وأخذ ينظر فى وجهها بتساؤل . . قالت وهى ترخى أجفانها بيأس : « أرجوك ، لا تفهمنى خطأ . أنا ما قصدت الشك فى صداقتك ، ولكنى أطلب منك كتمان الحاضر عن ذاك الذى ابتدأ الماضى معه ! » . تساءل نزار : « تقصدين . . ؟ » . قاطعته : « أقصد ألا تخبره بأى شىء تعرفه عنى . أنت لا تعرف موقفى فهو حرج . وقد يظننى أحاول استعادته بواسطتك .. أفهمت ؟ » . حاول الاعتراض : « ولكن . . . » ، لكنها عادت تقاطعه : « أرجوك . . هل تعدنى ؟ أرجوك » ، فرضخ مضطرًا : « حسناً ، وإذا سألنى ؟ » . أجابته فى حزم : « ادع الجهل . ومع هذا فأظنه لن يسألك . أنا واثقة من ذلك ! » . . فقال مجادلا : « وأنا واثق بأنه سيسألنى ! » . لكنها أسكتته : « مهما كان الأمر . ادع الجهل . . أرجوك ! »

ثم قالت ، فى محاولة للتبرير : « لن أكذب عليك يا صديقى ، فما اعتدت أن أفعل ذلك مع نفسى أو مع الناس . أنت

لا تعرف الوضع الذى أعيشه ، وأى يأس وأى صقيع . فأنا أمر بفترة حرجة . أحياناً أحس بأنى لست أكثر من صورة فى مرآة ، وأنى إذا مسست وجهى فستصطدم يدى بزجاج بارد . لكن هذا الزجاج ، رغم برودته ، شديد الحساسية . . وأى لمسة قد تترك بصمة فيه . تترك أثراً . وتأبى كرامتى حتى الشفقة على نفسى . أرى عاراً أن أخذل ذاتى ، وأن أتمسح بالأعتاب . مازال بى بعض قوة ، وهى سلاحى الوحيد الذى يقينى التهالك والانهيار . افهمنى ، أرجوك . أحب أن أجد من يتفهم موقفى . أنا مازلت قوية ، والعقاب الذى سأناله لن يؤكد لى سوى قوتى . فلو كنت ضعيفة لطلبت الرحمة . ولكنى لست ضعيفة لأطلبها . فلا تكن سبب حرمانى كرامتى . . وقوتى » .

وتساءل نزار قبل أن يخرج : « وفى أى يوم سيكون الافتتاح ؟ » ، فأجابته : « يوم الخميس ، ولكنى أعتقد أنه سيجىء غداً ليبدأ بالترتيبات المناسبة . وسأحاول ألا أفرض وجودى على المكان ، وكان الله فى عونى ! »

* * *

عندما وصل الميثلونى وزميلته إلى مكتبة الفكر الحديث ، كانت سامية قدغادرت المكان بحجةما . وابتدأ العمل . وكان فاروق فى غاية الحماسة . كان يجوب المكان بشكل لا أثر فيه للبرود الإنجليزى المعرّب . ويبدو أن العمل قد أنساه الكثير من مزاياه كمثقف ثرى : فالمصطلحات الشكسبيرية تضاءلت بنسبة كبيرة ، وكذلك البرود الإنجليزى الذى تفرضه عليه شهادة مستوردة من بلاد الإنجليز . وكذلك جمدت أعمال القنص للجنس اللطيف التى تفرضها عليه ظروف « الدون جوانية » . وعلقت سميرة على ذلك بسخرية ، ضاحكة : « لو كان الأمر بيدى لحكمت عليك وعلى أمثالك بالعمل المؤبد . لقد أصبحت لا أخا عرب فحسب ، بل أبا عرب ! » فأجابها ، بتهكم : « كنت أتمنى أن أسمعك تتكلمين هكذا ، لو أن الوالد أورثك مثل ما سأرث » . قالت :

« من الصعب أن نحكم : من فينا أسعد حظًّا ! » . ثم تمتم فيما بينه وبين نفسه : « يا للفتاة المكابرة ! » . وقالت وهى تمسك بالشاكوش لتعطيه له ، بينما كان يقف على السلم الخشبى ليدق مسماراً فى الحائط : « لو كنت مكانك لفعلت ما فعله تولستوى ! » . تساءل فاروق : « وماذا فعل تولستوى ؟ » . قالت هازلة : « كما تفعل أنت الآن : استعاض عن الغليون شاكوشاً ! » ... وضحكا . لكنه قال : « لن أستعيض عن الغليون إلا منجلا » . فعاجلته : « احذر فقد يسمعونك ! »

— يا آنستى ، أتظنيننى أبله ؟ تلك الشعارات خلقت من أجلكم ، من أجل الفقراء والبسطاء ، لتنسيهم همومهم . أما نحن فلنا زينة الحياة الدنيا.

تساءلت : « ولم المنجل إذن ؟ » . قال : « لأحصد بعض الألسنة » . تساءلت ببراءة مصطنعة : « تقصد تلك التى تستعمل للغزل والتفذلك ؟ » . وأخذت تقهقه . ثم تركته وهو يفكر : « يالها من خبيثة ! مما لاشك فيه أنها ذكية ، وأنها مثقفة ، ورغم أنها ليست فى عداد الجميلات ، إلا أن لها شخصية تثير التساؤل حقًّا . لو أن لإيفيت خفة ظلها وذكاءها لاكتملت الصورة . لكن إيفيت سطحية ، مملة ، وغيور ! » .

وكان عبد الرحمن يقف بجانب النافذة يدخن ، والابتسام يعلو وجهه ، فقال لفاروق معلقاً : « كنت أظنك مدرب خيل ماهراً » . قالت سميرة باستفزاز : « أنا فرس جموح ! » . فقال لها فاروق من فوق السلم الخشبى : « لو قصدت تدريبك لجعلت مشيك رقصاً ! » . قالت بسرعة : « هذا يعنى أنك تجيد الرقص . . أى رقاص ! » . فعلق عبد الرحمن ضاحكاً : « تقصدين راقصاً ؟ » . أجابت : « بل رقاصاً . »

— رقاص ساعة ؟ — نعم ، ساعة الزمن البائد .

ثم التفتت لفاروق وقالت : « إصحح يا أخا العرب ، فالعالم يركض بينما ما زلت أنت تعب أمواج الحرير . إصحح ، فهذا الجيل ما عاد لطبقتكم المترفة ، ولالأيديكم المخملية ، بل لنا نحن ، للفقراء ، للعمال ،

وللكادحين المنتجين ، إصحٍ قبل فوات الأوان! » . علق عبد الرحمن : « قد يكون منبهه تالفاً ! » . قالت : « نحضر له ديكاً يوقظه ! » . قال فاروق : « أفضل الفراريج ، وخصوصاً الناضج منها . وقد أجعل منك فروجة يوماً ، فلا تتباهى بذكائك ! » . قال عبد الرحمن : « يحق لها أن تتباهى ، فلديها الكثير . » قال فاروق ساخراً : « الكثير من الديون ؟ » . قالت بفخر : « بل الكثير من القناعة » . قال فاروق ، محاولا إيقاعها فى الفخ : « القناعة نقيض للثورة » . قالت بتحد : « تلك قناعة البليدين والبليدات . أما قناعة الثوريين فصبر وعمل ! »

وكان عبد الرحمن يرمقها باسماً بألفة. أحس أنه يعرفها منذ زمن طويل ، فهى واحدة من طبقته ، وهى ذكية وخفيفة الظل . ولم تكن سميرة جميلة. لكن شكلها فيه ما يسترعى الانتباه . كانت نحيفة القوام ، لطيفة الملامح ، بشرتها سمراء خمرية . ملابسها بسيطة ولا تميل إلى الزركشة . ترتدى التنانير الضيقة والقمصان القطنية باستمرار . . ولم يلبث فاروق أن نزل عن السلم وأخذ يقترب منها متوعداً مهدداً بشاكوشه ، فأسرعت تختبئ وراء عبد الرحمن . وقال فاروق ممثلا دور الغاضب : « لا تتحدى ، فأنا لا أحتمل الإثارة ! » . فعلق عبد الرحمن ضاحكاً : « أية إثارة تعنى ! » . قال فاروق وهو يرمقها من فوق كتف عبد الرحمن : « لم يبق إلا هذه الفروجة لتثيرنى ! لكن الجائع لا يأبه كثيراً إذا كانت الوجبة دسمة أم عجفاء ! » فقالت مصطنعة الخوف : « ارأف بحالى يا أخا العرب ! » . قال متخذاً هيئة المتسامح الكريم : « حسناً ، مادمت قد استغفرت . . ولكن لا ، استرحمينى أكثر . هيا استرحمى ! » . قالت بصوت ضاحك : « رحمة الله عليك ! » . . وقهقه الثلاثة ، فى حين كان فاروق يرمقها بإعجاب دفين : « تغيظنى بكبريائها ، تثير فى عقلى أسئلة لا تخطر لى على بال . . تجعلنى أنسى قالب الأناقة الذى أحبه . تجعلنى أحس بأني ما زلت طالباً فى الثانوية . وأنه لا بأس من المرح والانطلاق . أميل

للنظر فى عينيها الذكيتين ، ففيهما حكايات وأساطير . فيهما طموح وأمل . . وثورة . . وعمل . فيهما تحد ، فيهما جمال غريب النوعية . فهو ليس جمالا من النوع المتعارف عليه . . كعينى إيفيت الزرقاوين الناعستين ، ولا كعينى سامية العميقتين الداكنتين ، بما فيهما من حزن وعذاب وانتظار . عينا سميرة فيهما إشراقة ، فيهما ما يجذب نظرى وانتباهى » .

ودوى صوت نسرين فى قاعة الكتب منادياً سميرة ، فخرجت هذه راكضة . وكان فاروق يرقبها وهى تبتعد . وعلق عبد الرحمن باسماً : « فتاة ذكية ولطيفة » . هز فاروق رأسه وتساءل : « أتعجبك هذه النوعية ؟ » . أجاب عبد الرحمن : « أنا أحب المرأة المرحة بدون ابتذال . وهذه من هذا النوع . كنت أتمنى لو التقيت بمثلها يوم كنت أفكر فى النساء . يوم كانت المرأة تمثل عاملا حيويًّا فى حياتى» . فسأله فاروق : « وهل يعنى هذا أنك بت من أعداء المرأة ؟ » ، فأجاب الفنان الكبير : « لا . . ليس هذا ما أقصد ، فالمرأة إنسان قبل أن تكون أنثى ، بيد أنى ما عدت أعبأ بهن كثيراً ، فالفن يملأ كل وقتى ، ولا أريد توزيع طاقاتى ! » . فقال فاروق : « لكنى أعرف نقيض هذا ، يقال إن الحب ملهم الفنان . »

قال عبد الرحمن مفكراً : « تلك هى النظرية التى أحاول بلورتها من خلال مقال أكتبه . فالفنان الذى يؤمن بقدسية فنه ، ويؤمن بأن الأصالة هى منبع الخلق والإبداع ، هذا الفنان الأصيل الملهم ، لا حاجة به لامرأة توقظ فنه ، فقد يكون العكس هو الصحيح ، قد تشغله بحبها الفردى عن حبه الجماعى للإنسانية . والفن طاقة إنتاجية ، حرارة تستعر فى أعماق الفنان ولا يبرد أوارها إلا بعد ترجمتها إلى لوحة ، أو شعر ، أو نغم . الفن عصير روحى ، إفراز جمالى ، خفقات قلب مفعم بالحب والرحمة ونكران الذات . وقد يمر الفنان بحب يعتصر روحه وقلبه وجمالياته ، فيصبح قشرة فارغة ، أو زهرة بدون شذى . هذا هو رأيى بعد التجربة » .

قال فاروق متعجباً : « غريب . كنت أعتقد بأن الفنان لا يستطيع العيش بدون حب ! » . فقهقه عبد الرحمن وقال : « تلك ياسيدى ذريعة ابتدعها أشباه الفنانين ، أو قل المزيفون منهم » .

قال فاروق : « أتعرف ، أنه موضوع هام ومثير ! يجب أن نثيره فيما بعد ، عندما تكون المجموعة كلها معنا » .

* * *

عندما دخلت الشابات رأين عبد الرحمن يتجه نحو السلم الخشبي ويجلس على حافة خشبة منه . وتساءلت نسرين : « لم لا ترتاح قليلا ؟ تفضل فاجلس فى المكتب وسأصنع لك فنجان قهوة » . فترك المجموعة وتبعها . مشت أمامه ، فتحت باب المكتب المغلق وهى تقول : « سأحضر لك القهوة خلال دقائق » . وتركته بمفرده ومضت . . غرفة جميلة ، فيها لمسات أنثوية حنون . أرائك خضراء داكنة . مكتب خشبى أنيق ، زهرية مليئة بزهر البنفسج . إناء فخارى على حافة النافذة تنسكب منه شلالات خضر من نبات الخنشار المنزلى ، وضوء أصفر ينهال عليه عبر زجاج النافذة . وفى الصدر ، وعلى الجدار المجاور للقاطع الخشبى بزواياه الهندسية تقبع لوحة « المرجريت » . وأحس الفنان بحزن غريب . إحساس ناعم ينساب إلى قلبه كما تنساب إلى الأذن المرهفة موسيقى حساسة آتية من بعيد . . بعيد . . وتبدأ الذكريات : أطياف حالمة شفافة . . شريط متقطع . . مشاهد تقفز إلى ذاكرته بدون استئذان . . وملامحها . . وعيناها . . وكلماتها . . وفرك جبينه بمرارة . جبهة سمراء مشت عليها تعاريج الزمن . فى الماضى كانت مبعث سحر ومصدر غزل . كانت ترنو إليه وتقول : « أسمر الجبهة كالخمرة . . » فيبتسم بسخرية ويردد مكملا الأغنية : « سابحاً فى زورق من صنع أحلام الشباب » .

ولكم حلمنا . . كم حلمنا ! . . كانت تجيد الكلام ، تجيد التفكير ،

تجيد النقد . لم تكن فنانة ، لكنها كانت ذواقة ممتازة ، وكانت تنقد كل ما لم أكن راضيا عنه . أعجبت بها . كانت جميلة ، عذبة ، ناعمة ، وقد أحببتها . . عبدتها . . أما الآن ، فلم يبق إلا الذكرى . معظم ما حلمنا به معاً تحقق : أصبحت أنا شهيراً ، ناجحاً ، صاحب مدرسة لها أكثر من تابع . لوحاتى وكلماتى أخذت طريقها إلى كل مكان ، حتى أوربا ! كل ما حلمت به تحقق إلا هى ، فقد بقيت حلماً . . ذكرى!

ورفع عينيه ليرى من الذى يقف فى الباب : كانت هى . . الحلم . . الذكرى ! ووقف دون أن ينطق . ودخلت هى ، ومشت فى اتجاهه وهى تنظر إليه بغيبوبة . كانت ترتجف . وعندما أمسك بيدها الباردة مصافحاً ، ظلت صامتة ، لم تقل شيئاً ، ولم يقل هو ! . . فى يوم من الأيام ، يوم وصله خبر زواجها المفاجئ ، وكان وراء القضبان ، تمنى او أمسك بعنقها وأنشب أسنانه فيه ! تمنى أن يصفعها حتى يدميها . تمنى أن يعتصرها ، يكمشها بقبضته ويبتلعها لتبقى فى داخله . . فى أعماقه . وبكى ، لا خوفاً من الشرطة ، ولا من آلات التعذيب الكهربائية ، بل وحشة ، ووحدة ، وشوقاً ! . . سبع سنوات من السجن ما كانت قليلة ، وما كان باستطاعة المرأة العادية أن تنتظر رجلا كل تلك المدة . لكنها ما كانت عادية ، حتما لم تكن عادية ، فقد كانت ذكية ، مثقفة ، ذواقة ، حساسة . وكانت تلك المرأة ـ سامية ـ جالسة الآن تدخن ، وقد غاصت فى أريكتها ، والضوء الأصفر ينسدل على وجهها وشعرها . ورفع عبدالرحمن عينيه يتأملها . . لم تتغير كثيراً ، إلا أنها كبرت عشر سنوات ، أصبحت أقل نضارة ، أقل اندفاعاً ، أقل مهابة وأكثر حزناً . كان فى عينيها بكاء لم ينضج بعد ، وفى شفتيها كلام فج . وكان يريد أن يسألها عن أخبارها وعن حالها ، وعما فعلته بها السنون . . كان يريد أن يعاتبها بهدوء ، فقد انطوى ذاك الحزن الهائل الذى أحس به يوماً . وذاك العذاب الوحشى انطفأت حدته . وكان يريد أن يناقشها بهدوء وبموضوعية

عن السبب ، سبب غدرها وخيانتها . كان يريد أن يعرف السبب ، يريد أن يفهم الدوافع والحوافز !

لكنه لم يقل شيئاً .

وكانت هى تمتص مرارتها حتى الثمالة . « هذا ما كنت أتوقع ، لا شىء أكثر من الإهمال ! » . . ودخلت نسرين تحمل القهوة ، وقالت وهى ترى أختها تجلس ساكنة شاردة : « متى رجعت ؟ كنت أتوقع قدومك منذ ساعات » . . وكان هو يفكر بحزن : « أما أنا ، فقد توقعت قدومها سنوات بأكملها . . وعندما وجدتها أمامى ، لم أجد إلا حلماً مملا . . وذكرى كالحة . . فأين تلك اللهفة التى كانت تصيبنى عندما كنت أجالسها ! أين ذاك السيل الفياض من الكلام الذى لا ينقطع ! كنا نتكلم ساعات وساعات . . نناقش الأدب والسياسة ، والمجتمع ، والفن . . نحلم بالمستقبل . . نضع المشاريع والخطط . . يمسك كل منا بيد الآخر ، يشد عليها بحنان ، وكانت تضع كفى على عنقها ، وتخبئ يدى فى ثنايا اللحم الدافئ والشعر الأسود الناعم » — وأخذت عيناه طريقهما إلى عنقها بدون وعى ! — « وكنت أتحسس عنقها الشمعدانى وأنا أرتجف ، وأدغدغ أذنها بأصابعى . . وكانت ترفع كتفها وتضغط يدى بين الرأس وعظم الكتف . . وأحياناً لا أستطيع تمالك نفسى ، فأجذب رأسها إلى وأقبلها . . كانت تشعرنى بأنى ملاكها . . إلهها . . معبودها . . فكيف انقلبت ؟ كيف ! كيف ! ! »

وعندما تكلمت لأول مرة ، وسمع صوتها كما لو كان آتياً من أعماق بئر بعيدة ، فيه نغمة مترددة ، فيه ذهول وحيرة ، لم تتملكه سوى الدهشة ! وتساءلت نسرين : « ما بك ، أتشكين من شىء ؟ » فأجابت أختها بتردد ، وهى تنظر بعيداً عنه : « إنى تعبة » . وعادت نسرين تقول ، بقلق : « أهو الصداع المعهود ؟ » . . ولم تجب سامية ، فأخذ عبد الرحمن يتأملها من جديد ، كان يريد أن يعرف . . أن يعرف أشياء كثيرة ،

بجذافيرها ، بكل تفاصيلها . ولكنه لم يقل شيئاً ! . . وقالت نسرين : « لم لا تذهبين إلى البيت لتنامى ؟ » . أجابت سامية باقتضاب : « سأفعل » . وكان هو يشرب قهوته فى صمت ، يرقبها بفضول ، يريد أن يعرف فيم تفكر ، وبأية نفسية تعيش ، وفى أى الأجواء قضت مدة عشر سنوات ؟ !

ولكنه لم يقل شيئاً ! ووقفت سامية ببطء ، ونظرت إليه بوجوم وقالت ، بصوت لا أثر فيه للحياة : « أعذرنى ، فأنا تعبة » .

وخرجت . .

٦

ورآها فى اليوم التالى . كان يقف فى نافذة قاعة الكتب ، وكانت هى قادمة من الخارج ، تلبس معطفاً أبيض اللون ، شعرها الفاحم مردود إلى الخلف بشريط مخملى أسود ، تضع قفازاً أسود . ومن خلال فتحة معطفها عند الرقبة ، كانت تضع شالا يضم مزيجاً رائعاً من اللونين : الأسود والأبيض . خطواتها مازالت إيقاعية ، رأسها مرفوع إلى أعلى ، وفى عينيها — عينيها اللتين كانتا مرآة ذاته يوماً ، تحفتيه النادرتين ، « ماستيه » الداكنتين — كانت تنبسط بحار أحزان وحيرة .

وعندما لمحته لم يبد أنها أحست بوجوده ، إذ استمرت تمشى وهى مرفوعة الرأس ، سريعة الخطوات ، أنيقة الحركات . وفتحت الباب الزجاجى ، وألقت إليه بتحية جادة : « صباح الخير » . ودخلت المكتب . ورآها من خلال القاطع الزجاجى تخلع معطفها بهدوء ، تتحرك بهدوء ، تدخن بهدوء ، وتمنى عدة مرات أن يدخل ويكلمها . . يكلمها بهدوء ، ويسألها عن السبب . . كى يعرف الدوافع والتفاصيل .

لكنه لم يقل شيئاً ! . . وعندما كانوا يلتفون جميعاً حوله ، كانت هى الوحيدة التى تظل بعيداً ، فى ركنها ، فى « غيبوبتها » ! وعلقت نسرين

باعتذار : «أختى غريبة الأطوار ، فهى انطوائية ، تعشق الوحدة والانعزال» .

وأخذ عبد الرحمن يتساءل فيما بينه وبين نفسه : « منذ متى كانت هكذا ؟ ! يبدو أن أشياء كثيرة قد تغيرت فيها! ». وقال فاروق : «هذه المرأة تعجبنى ، أحس أمامها بأنى لست أكثر من غلام ! » ، فتساءلت سميرة بخبث : « أليس هذا هو الواقع ؟ » . وقال بشار وهو يهمس فى أذن سهى التى كانت تجلس بجوار عبد الرحمن ، وكان همسه ذاك يصل إلى أذنى الفنان: «كنت أعتقد أن لسامية أجمل عينين وُهبتهما امرأة ، لكنى غيرت رأيى حين رأيتك ! » . وابتسمت هى ، واستدار عبد الرحمن برأسه. فى الليلة السابقة، سهروا فى قاعة السينما بالمكتبة . وضعوا مناضد صغيرة متقاربة ، ألصقوها معاً ، وصفوا عليها الطعام والشراب . وافتتح فاروق زجاجة ويسكى تكريماً للفن والفنانين. وعزف شكرى على البيانو أنغاماً جافة باردة ، لكنها بالطبع قوبلت بالتهليل والتصفيق . وغنت سهى ، ورقصت نسرين ، وأطلقت سميرة أروع نكاتها ، بينما انهمر سيل من أشعار بايرون من بين شفتى فاروق الذى كان فى أحلى مزاج .

ولم تحضر سامية، وتساءل الجميع. . فقيل بأنها تشكو الصداع ، وتمنى عبد الرحمن لو أنها حضرت ، لا لأنه بشوق إليها وإلى حضورها ، بل لأنه كان يريد أن يرى كيف تتصرف ، وبأيه نفسية تعيش ، وفيم تفكر؟ . ألا زالت تجيد الكلام ؟ ألا زالت سريعة الخاطر ؟ ألا زالت قوية الشخصية ومحور الجلسات ؟ .. وخجل أن يسأل نزارا الذى كان يجاوره ولا ينفك يسأله عن حاله وأخباره ، وعن بروكسل ، وعن آخر أخبار القلب . وقال عبد الرحمن إن حاله لا بأس بها ، وإن أخباره تعرف عنها الصحافة أكثر مما يعرف هو ، ومعرض بروكسل كان ناجحاً ، والقلب نائم بهدوء وهناء . .

وعندما خرجوا من المكتبة فى منتصف الليل ، كانت الشوارع خالية ،

والضباب كثيفاً ، والمطر ينهمر . وقبل أن يوصل نزار الفنان بسيارته إلى الفندق ، مرا أمام فيلا صغيرة أمامها حديقة محاطة بسور غير مرتفع ، وباب حديدى صغير . وقال له وهو يرقبه خلسة : « هنا تعيش سامية مع أختها » . . ومن خلال الظلمة رأى نافذة مضاءة ، ولم يستطع إلا أن يتساءل عما تفعله فى تلك الساعة . تقرأ ؟ . . تسمع الموسيقى ؟ . . ترقب التلفزيون ؟ . . وعلق بسخرية : « أصبحت أغنى مما كانت ! » . فقال نزار : « يقال إن زوجها كان ثرياً » . . وضحك عبدالرحمن بجفاف ، ولم يعلق . . لكنه لم يستطع أن يرد تساؤلا مر بخاطره مئات المرات من قبل : « هل تزوجت من أجل المادة ؟ وهل باعته وباعت كل ما كان يمثل فى نظرها من فن ، وذكاء ، ونبوغ . . فى سبيل المال ؟ إنها لم تكن فقيرة ، فهى من عائلة موسرة ، ولم تكن من أولئك اللواتى يجدن فى المال سعادة . كانت تقول بأن المال وسيلة وليس هدفاً » .

وتوقفت سيارة شكرى خلفهما ونزلت نسرين ، فأطلت من زجاج نافذة عبدالرحمن وأخذت تطالبه بالنزول وإكمال السهرة فى منزلهم . ورفض بالطبع ! . . وهكذا مرت تلك الليلة ، ولم يرها إلا فى صباح اليوم التالى . . وانقضى النهار كله ما بين تحضير للمعرض ، وتحضير لسهرة الليلة . لكن سامية لم تحضر سهرة الليلة التالية ، وقيل بأنها مصابة بزكام . وأحضر شكرى كنزه الثمين ، وهو عبارة عن صندوق ملىء باسطوانات يعود تاريخها إلى ما قبل التاريخ ! فسمعوا منيرة المهدية ، وأم كلثوم الصغيرة ، وبعض الموشحات الأندلسية . وقبل نهاية السهرة ، كان فاروق قد استطاع إقناع ثلاث سيدات بأنه معجب حتى آخر رمق ! وانفعلت إيفيت ، وسخرت سميرة ، ولم تتجاوب نسرين ، لكنها كانت تبدى نحوه شيئاً من اللطف ، أو هكذا خيل إليه !

وعندما عزف شكرى أنغامه السمجة ، راقص بشار سهى . وأخذ يهمس فى أذنها بكلمات مشبوبة ، وكان يبدو واضحاً أنهما فى غاية

الانسجام . ولو تمادى بشار قليلا لقضى ليلته تلك منشوراً على قباب صدرها . لكنه لم يفعل أكثر من أن ضغطها إلى صدره بعنف أثناء مراقصتها . وأخذ يتحسس انحدار خصرها ، ممعنا فى إثارة نفسه وإثارتها ! . . وربما كان قد خطر ببالها أن تنام على ذراعه ، فقد كان فى عينيها بريق متحفز ، ودعوة ملحة . لكن بشارا لم يكن له مثل جرأتها . . وهكذا ظل الباب موصداً ، والأرض البور قاحلة جدباء ، واللوحة الفارغة قطعة قماش لم تلون بعد !

* * *

يصعب القول متى وكيف بدأت عملية المطاردة المستترة . ففى يوم الافتتاح ، وكان عبدالرحمن يقف بكل عظمته بين جمهور غفير من المثقفين ، وأدعياء الثقافة ، وأشباه الفنانين ، وقطيع كبير من سيدات رصعت صدورهن وأصابعهن بالجواهر والحلى ، وهاتيك يكن فى العادة ممن يغرمن برجل تخطى الأربعين ، ويضع على عينيه نظارات طبية بإطارات سوداء أنيقة ، له شعر بلون الرماد ، وتاريخ طويل حافل بالنضال الفنى والسياسى .

يومئذ ، وكان المجد يحيط به من كل جانب ، لمح سامية تقف فى زاوية منعزلة بجانب النافذة ، ترقبه من خلال دخان سيجارتها الذى لا ينقطع . وادعى عدم رؤيتها ، وادعت هى عدم المراقبة . وغيرت موضعها ، وغير موضعه . ولكن ، وبعد انقضاء دقائق ، وجد نفسه مراقباً من قبلها ! وعندما لحظته استدارت بوجهها وادعت الانشغال بمراقبة اللوحات ! . وتكرر الموقف ، تكررت المراقبة ، وتكرر التهرب. وبعد ما كان يظن أنه لا يعبأ بها ، أخذ يتحين الفرص لضبطها متلبسة «بفعلة» النظر إليه . لكنها كانت أذكى من أن تدعه يضبطها ! . . وكان هناك عاملان يثيرانه ويؤثران فيه : كان هناك ذاك الشريط الحافل بالذكريات ، ذكريات ما قبل الاعتقال ، وذكريات ما بعد الاعتقال . هذا يجذبه

وذاك يبعده ، هذا يثير حنينه وذاك يثير غضبه ، واستفاق فجأة ليجد نفسه غاضباً منها ، وتساءل متعجباً : « ألم أكن غير عابئٍ بها ؟ لقد نسيت ألمي وغضبي ، نسيت الجرح العميق الذى خلفته فى قلبي وكرامتى . وها أنا أجد نفسى فجأة غاضباً ، جريحاً ، مهاناً . فماذا يعنى هذا ؟ أننى ما زلت أعبأ بها ؟ » . . وعندما خرج زوار المعرض جميعاً ، ولم يبق إلا أفراد المجموعة ، أخذ يبحث بعينيه عنها ، لم يكن يريدها أن تذهب . وأحس بارتياح شديد حين خرج إلى قاعة الكتب ورآها من خلال القاطع الخشبي المزخرف تجلس وراء المكتب ، تدخن بصمت ، وتراجع مجموعة من الأوراق والقوائم . ولمحته ينظر إليها ، فتهرب بعينيه وأسرع متجهاً نحو أحد رفوف الكتب يختبىء خلفه ، وكان ذلك الجزء من القاعة شبه مظلم ، إذ كان الوقت غروباً متأخراً . ورأى كرسيًّا وحيداً يقبع بين رفين متقاطعين ، فجلس عليه وأخذ يفكر بإصرار : « لن أدعها تسيطر على تفكيرى ثانية . لن أدعها تعبث بى مرة أخرى ، فأنا لا آبه لها ، ولن أعبأ بها ! » . . وكانت هى تفكر وقلبها يدق بانفعال : « هل كان يرقبنى ؟ هل رأيت فى عينيه اهتماماً ! هل تعمد النظر إلى ؟ » . . فى حين كان هو يسترجع الماضى البعيد : « فى ذاك الحقل ، بجانب قريتنا البعيدة ، وكان الربيع يفرش الأرض بألوان . . ألوان . . ألوان . . مروج . . مروج من أزهار « البانسيه » ، و « المرجريت » الصغيرة تضىء العالم بعيونها الصافية كعيون الأطفال . ومن بعيد ، رأينا حقلا يمتد بامتداد النظر . كان لونه زهريًّا يميل إلى الزرقة . حقلا لا حدود له من زهيرات ثدى البقرة . وأخذنا نركض إليه ، نركض ، نركض . . . وارتمت عليه بفرح الأطفال الصغار . وانفرش ثوبها الأصفر حولها حلقة من نور . كانت تعرف أنى أحب الأصفر . . وكانت جميلة . . . جميلة . . والعالم جميل : الربيع . . الحشائش . . وبساط الزهر غير المحدود . وكان كل شىء يصطبغ باللامحدودية . العالم بلا حدود . . .

والجمال بلا حدود . . وأحلامنا . . وحبي لها . . كل شيء بلا حدود !

« كنت سعيداً . . كنا سعداء . لم أحس يوما بسعادة أكثر . حتى ولا فى (عمان) ، يوم مجدتنى الصحافة وطبلت لى الأجواء الثقافية . . ولايوم بيعت إحدى لوحاتى بمئات الدنانير . صحيح أن الفن سعادة ، لكن الحب هو القمة ، قمة السعادة . فكيف أحاول أن أثبت غير ذلك فى مقالى المزيف ، بقولى إن الفن هو الحقيقة الباقية أبداً ، و إنه الحب الأبدى الذى لا ينطفىء ، ولا يبرد أواره . . الحب المقدس الذى كلما أحبه الإنسان ازداد حباً ، والطعام الروحى الذى كلما أكلنا منه ازددنا جوعاً . ولكن للحب رعشة حساسة تثير كل خلايا الجسم والروح والأحاسيس . وكنت أحبها ، وكانت تحبنى ، هكذا كانت تقول ، وكنت أصدق ، وكنت سعيداً إذ صدقت . هه ! . . كانت تدعى أنها ستموت إذا تركتها ، وأنها ستقطع شرايين يديها إذا رأتنى أغازل امرأة أخرى ، وأنها ستغتالنى بدون رحمة إن أنا فكرت فى واحدة غيرها . فكيف تركتنى إذن ؟ كيف تركتنى . . . ؟ ! ! »

وكان ينوى أن ينهض مسرعاً ليذهب إليها ، يدفع الباب ، يغلقه بالمفتاح ، يشدها عن كرسيها ، يهز كتفيها وينظر فى عينيها مباشرة — لأول مرة منذ عشر سنوات ! — ويسألها صارخاً : « لم تركتنى . . ياخائنة.. يامتوحشة . . يا من أحببتك حب الإنسان لنفسه ! » . . ولكنه لم يفعل . بقى فى مكانه يقطر عرقاً وألماً وغضباً . فقد عاد الماضى ، عادت الذكرى بألوانها الحية ، عاد الألم من جديد ! . . وسمع أصواتا من وراء الرفوف المجاورة ، كانت أنات وتأوهات ، وصوت رجل يهمس بلهجة فاترة :

— حبيبتى . . حبيبتى . .

كان صوت « بشار » !

وسمع صوت احتكاك أقمشة الملابس ، وكانت المرأة تتأوه وهى تردد زجراً ، فيه من الدعوة أكثر مما فيه من الردع ! . . والتفت عبد الرحمن

نحو مصدر الصوت ، ولكن الرفوف كانت تحجب الشخصين . ومن خلال الخشب كان هناك شق طويل رأى من خلاله بشارا يعانق « سهى » ، يتحسس خصرها وظهرها ، يغمر وجهها بالقبل وهو يلهث : «ستكونين لى.. لن أتركك ! » . وكانت تهمهم حين تجد مجالا لعتق شفتيها من فمه :

— أتركنى . . أتركنى !

وتلف ذراعيها حول عنقه وتشد رأسه إليها أكثر وتقول : « أقول لك اتركنى ! » . ويبدو أن بشاراً كان فى أوج الاشتعال ، إذ قال وهو يعصرها : « سنتزوج » . . وأجفلت هى ، ودفعته عنها ، وقالت وهى تحاول تمالك نفسها : « لا . . أنا لن أتزوج ! » . . قال وهو يمد يديه إليها ثانية : « بل سنتزوج . . فأنا أحبك . . ألا ترين أننى أحبك ؟ ألا تصدقين ؟ » . . فارتمت بين ذراعيه وهى تنشج برقة مثيرة : « وأنا أحبك . . لكننى لن أتزوجك ! » . . وابتسم بشار وهو يشدها إليه بعنف كاد يطبق على أنفاسها ، وأخذ يهمس فى أذنها بكلمات مثيرة ، وهى تتلوى بين ذراعيه وتقول ببطء :

— أنت عنيف . . عنيف . . عنيف !

وعندما استفاق عبدالرحمن ، أحس بالخجل من نفسه ، ولكنه كان منفعلا لأقصى درجة . لقد ذكره الموقف بمواقف ملتهبة مشابهة وقفها مع سامية قبل عشر سنوات ! . . وبقى جالساً فى مكانه فترة طويلة ، حتى بعد أن ذهب بشار ورفيقته . وسمع وقع أقدام تقترب ، كانت أقدامها ، خطواتها ، نفس الإيقاع الذى حفظه عن ظهر قلب ، تلك الخطوات التى كانت تشابه خفق النبض فى قلبه . واقتربت الأقدام . . أكثر . . وأكثر . . هنا . . وهناك . . وأخيرا وقفت . ورآها أمامه . . قالت بجدية غريبة : « معذرة » ، واستدارت متراجعة !

« جاءت تبحث عنى . . تبحث عنى . . ولكن . . فلتبحث ، فلتبحث العمر كله ، كما بحثت عنها ولم أجدها ، فى ذلك الوقت . .

فى أحلك ساعات العمر . . فى وحدة السجن . . تحت وطأة التعذيب بين يدى الربانية .. لم أجدها .. لم أجد حتى طيفها يقف معى ، يساندنى ، يواسينى . . حتى حبها ، حتى روحها ، حتى نفسها ، حتى كل الروحانيات التى يحتويها الإنسان كانت قد أخذتها بعيداً عنى ، وأنا فى أشد الحاجة اليها ! تركتنى وراء القضبان وذهبت . . تزوجت من مغترب ثرى ، وتركتنى وحدى . . وها هى ذى تبحث! فلتبحث كما بحثت أنا عن طيفها ولم أجده.. كما بحثت عن حبها ولم أجده . . كما بحثت عن ذكراها ولم أجد سوى العذاب والألم ! »

وكانت هى تقف أمام نافذة القاعة المظلمة تنظر إلى العتمة فى الخارج ، والريح تصفر ، والمطر يتساقط ، وفروع الشجر تهتز ، وكانت الدموع تنهمر من عينيها ، وقلبها يئن بلوعة : «لقد نسينى . ماعاديعبأبى . . هل كان يحلم بمقال جديد ، أم بلوحة جديدة ؟ » . ودخلت المكتب ، وأغلقت الباب ، وأنزلت ستارة ثقيلة على القاطع المزخرف ، وهبطت على أريكة فى الزاوية وأخذت تبكى فى الظلمة . كانت ترتجف ، تنصهر ، تموت ! . . وأخذت تضغط راحة كفيها إلى شفتيها وهى تتخيل أنها كفه هو ، وتهتف من أعماقها : « ليتنى أموت . ليتنى أموت! » . . وقفت وراء النافذة الصفراء ، وأحست أغصان الخنشار الباردة تدغدغ وجهها الساخن . وكانت ما تزال تشد كفها إلى شفتيها وتتمتم بوله ، من خلال شهقات البكاء : « عبدالرحمن.. عبدالرحمن .. عبدالرحمن .. »

وكان هو يفكر : « فى ذاك الحقل ، بجانب قريتنا البعيدة ، والربيع يفرش الأرض بألوان . . ألوان . . ألوان . . وكان ثوبها الأصفر مفروشاً حولها كحلقة من نور . . استلقت على الأرض ، كانت تنظر إلى بابتسامة لن أنساها .. لن أنساها . . كانت فى ابتسامتها شفافية ، حساسية ، إشراق نرجسة طويلة العنق ، ندية الشفاه . وكنت أمسك بيدها الناعمة أتحسسها بشفتى . . ونامت على ساعدى . . وكان وجهها قريباً من وجهى . .

وكنا نتبادل . . آه . . وكنت سعيداً . . كنت أحب رائحة شعرها الأسود الناعم . . وكانت تقول إنها ترى فى عينى إشعاعاً ذريًّا سيكون السبب فى إحداث عاهة لديها إن أنا واصلت تسليطه عليها ! . . وكانت تمسك بنظارتى تسحبها . . وتغلق عينى بشفتيها ! »

وكانت هى ما تزال تبكى : «لو يعرف أنى خنت نفسى أكثر مما خنته، وأنى منذ بعدت عنه بعدت عن ذاتى ، فكل الأشياء أصبحت تافهة ، الألوان كالحة ، الطبيعة ما عادت جميلة ، وأنا كذلك ما عدت جميلة . »

وفتح باب المكتب ، ورفعت رأسها المتعب ونظرت . كان هو . . وظلت تنتظر . . تنتظر . . لكنه عاد متراجعاً . أغلق الباب ومضى . وسقطت فى شبه غيبوبة : «أهو يحاول الانتقام، أم أن ذاك مجرد صدفة؟» وكان هو يفكر بحزم : « لن أضعف ثانية مهما حدث ، مهما تعذبت ، مهما جبنت ، مهما حدث . فهى ليست أكثر من خائنة تافهة ! »

* * *

وكانت تلك هى الليلة الأولى التى تسهر فيها مع المجموعة . غسلت وجهها ، أعادت زينتها ، شدت قامتها ودخلت . وهلل الجميع لقدومها ، ولم تنظر حواليها ، فقد كان يحتسى الوسكى وهو يتعمد عدم رفع عينيه إليها ، وقد استطاع ذلك ، لكنه لم يستطع رفع عينيه عن الشابين العاشقين اللذين كانا يتبادلان الأحاديث والنظرات واللمسات المشتعلة . . ولقد كان عاشقاً مثلهما يوما . وكانت هى مصممة على فكرة معينة : ستجذبه إليها من جديد ، لا على أساس أنها حبيبة سابقة ، بل على اعتبار أنها امرأة جديدة تدخل حياته ، ولابد أن تدخل ! . . وابتلعت مقداراً من النبيذ أعاد الدم إلى وجنتيها ، وأخذت تفكر فيما يشغلها عنه وعن ذكرياته . كانت تريد أن تمحوه تماماً ، أن تغسل نفسها منه ، وتحاول فعل ذلك معه . ستنسيه سامية القديمة وستعود إليه امرأة أخرى ، أكثر نضجا وذكاء وخبرة . صحيح أنها ما عادت جميلة كذى قبل . لكنها واثقة بأنها ليست بشعة . وعبدالرحمن لا يأبه

كثيراً بالشكليات والمظاهر ، فهى تعرفه جيداً . كان دائماً يعجب بالشفافيات . بالروح ، بالفكرة ، شأنه شأن كل فنان أصيل !

وكان فاروق يجلس بين إيفيت وسميرة ، وشكرى يعزف ألحاناً مملة على البيانو ، وبشار وسهى يجلسان فى أريكتين صغيرتين متلاصقتين ، وهما لا يكفان عن الحديث وتبادل النظرات واللمسات! . . ونسرين تجلس على مقربة من عبدالرحمن ونزار اللذين كانا فى شغل شاغل عن المجموعة باحتساء الوسكى والتقاط حبات الزيتون وقطع الجبن الصغيرة. وقام فاروق وبدأ يراقص إيفيت تارة ، وسميرة تارة أخرى . وكان مشهداً طريفاً ، وكان الثلاثة فى غاية الانشراح من هذه الرقصة الثلاثية المستحدثة . وقالت سميرة ضاحكة :

ـ أراهن بأنك تستطيع مراقصة ثالثة !

وكانت نسرين ترقبهم بتسلية ، فقفزت ومدت له يدها ، فتناولها وترك الاثنتين واقفتين تنتظران رحمته أن تشملهما ! . . وقال عبد الرحمن معلقا على الموقف : « يبدو أنك تطبق منهاج : للرجل مثنى وثلاث ورباع » فأفلت فاروق يد نسرين وأخذ يتلفت حواليه وهو يتساءل : « وأين الرابعة؟ هيا . . من ستكون الرابعة ؟ » . وأخذ ينادى : « يابشار ! أقرضنى حسناءك لحظة . » . . وتقدم من سهى برشاقة ، فقامت معه ، ودارت بضع دورات ثم عادت تجلس بجوار بشار الذى كان قد اقترب من نزار وبدأ حديثاً ضاحكاً معه . وأخيراً وقف فاروق وسط القاعة ، وصفق بيديه بحركة تمثيلية ملفتاً انتباه الموجودين وقال : «والآن ، سيداتى ، سادتى ، المشهد الختامى لما قدم إليكم ، وهو قمة ما وصل إليه الفن الحديث » . والتفت إلى شكرى وقال راجياً ، بتعاظم : «موسيقارنا العظيم ، هلا عزفت لنا شيئا من « الفالس » ؟ ! » . . وابتدأت أنغام الفالس الحانية ، ناعمة رقراقة ساحرة . وأخذت كل فتاة تقول «هذه الرقصة لى» . واقترب فاروق من إيفيت وتساءل : « أتوافقون على هذه ؟ » . صاحت الفتيات : « لا . . »

. . واقترب من سميرة وتساءل : « وهذه ؟ » . . صاحت إيفيت بغيظ : « لا . . » . . وعندما اقترب من نسرين ، لم يجد من تعارض فى اختيارها ، لكنه عندما وصل إليها غمزته وهمست : « خذ سامية ! » . . وحملق بعينيه متسائلا ، فأكدت بهزة من رأسها . وانفلت فاروق مغيراً اتجاهه ، ووقف فجأة أمام سامية وقال بأدب :

ــ سيدتى الجميلة .

ومد يده بحركة تمثيلية فائقة الظرف . فأخذت ترمقه بابتسام كما لو كانت تتساءل : « وما نتيجة هذا المزاح ؟ » . وقالت نسرين مشجعة : « هيا . . هيا . . أثبتي أنك أمهر منه ! » وأيدتها سميرة : « نعم ، أثبتى أنه رقاص وليس راقصا ! » وصفقت سهى مرحبة بالفكرة ، وأخذت تنادى : « إذا لم ترضى بفاروق ، رشقتك برفيقه ! » . وصاح بشار : « كلى تخفز ! » . وأخذت سامية تهز رأسها وهى تبتسم . . فصاح نزار من مكانه : « أتعرف لم ترفضك ؟ » تساءل فاروق : « عرّفنا يا علاّمة عصرك ! » . أجاب نزار : « لأنها بانتظارى أنا ! » . وقام واقفا واقترب منها وقال هامساً : « هيا . . لا تخذلى عظمتى أمامهم ! »

ابتسمت ، ومدت يدها إليه وهى ما زالت تبتسم ، فأخذوا يصفقون مهللين . وعلقت سميرة بصوت مرتفع : « السيدة سامية تعرف كيف تنتقى ، وقد انتقت رجلا ! » . فضحكوا ، بينما أخذ فاروق يحدجها باسما ويسألها : « وما أكون أنا ؟ » . قالت هامسة : « سل المرآة » . قال مغيظا : « سأجعل منك مرآتى ، وأنا أتحدى إن كان بإمكانك إنكار ملامح رجولتى ! » . فاحمر وجهها ، وانفلتت هاربة من جانبه لتندس بجانب سهى .

ثم نهضت سامية ترقص بنعومة مع نزار . وكان هذا يتأملها بإعجاب ومودة . وعلق هامساً : « يبدو قلقاً ! ؟ » . قالت باسمة : « أريده أن يبدو هكذا ، بل أكثر من هذا ! » فسألها : « ألا تخافين ؟ »

قالت بسخرية مريرة : « ومم أخاف ؟ أن أفقده ؟ لقد فقدته وانتهى الأمر . ألاّ أراه ثانية ؟ وهذا ما سيحدث حتماً . أن أغضبه ؟ وهذا ما أريد . أريده أن يغضب . أن يذكى غضبه ! » . وتذكرت فكرتها فى محو عبدالرحمن من مخيلتها ومحاولة الظهور له بشكل امرأة جديدة! وسألت نزارا رأيه ، فأبدى عدم موافقته ، قائلا : « ستفقدين أصالتك التى هى سر جمالك . شخصك الحقيقى هو الذى أحبه عبدالرحمن ، فلا تشوهيه . يكفى أن الظروف قد وضعت ما يكفى من العراقيل والشوائب ، فلا تزيدى المسألة تعقيداً . وعبدالرحمن حساس جدّاً ، ولن تستطيعى خداعه أو التمثيل عليه ! » . قالت بيأس : « ماذا أفعل إذن ؟ أنا لن أركع عند قدميه ! » . قال بتفهم : « لا ، فهذا ما سيزيد من نفوره». وصمت لحظات ، ثم قال بعد تفكير : «ابقى كما أنت ، فإما أن يعود إليك وأنت ما أنت عليه ، أو لا يعود إذا كان مآله أن يتركك بعد أشهر . والآن..» وابتسم فى وجهها وقال : « أرى أمامى الآن ثمرة ناضجة تغرينى بما لا قدرة لى على مقاومته ! » . قالت ضاحكة : « أواثق من سلامة أسنانك؟ » وأخذا يضحكان .

وكانت الموسيقى ناعمة على غير عادة ، وكان ثوب سامية الأصفر الناعم يتموج بحركات أثيرية ، وعلى وجهها ابتسامة فيها شفافية ، حساسية ، إشراق نرجسة طويلة العنق . . وثوبها ينفرش حولها كهالة من نور . وعبدالرحمن يرقبها بانشداه . وعلقت نسرين بفرح : « أترون كم هى رشيقة ؟ ألا تعتقدون أنها جميلة ؟ » . قال فاروق : « تذكرنى بأميرة موناكو ، فيما عدا أن أميرتنا سمراء خمرية » .. وكانت سميرة ترقبها بإعجاب فريد ، وتتساءل : « كيف تستطيع المرأة أن تكون رقيقة بهذا الشكل؟ ». فقال فاروق : « عندما تكف عن حشو رأسها بحكايات سخيفة عن الشاكوش والرقاص ! » . قالت بأسف ضاحك : « فعلىّ رحمة الله إذن ! » . وهمس نزار لسامية : « إنه يرقبك ! » . قالت بصوت متهدج :

« أكاد أحس بنظراته تخترق ظهرى! »

واستمر فى الرقص . وكانت تبدو كطيف خيالى ، وعبدالرحمن يرقب خطواتها الرقيقة ويهز رأسه على وقع الأنغام بدون وعى ! كان هناك عاملان يعبثان بنفسيته : الوسكى ، وطيف المرأة التى أحبها كما لم يحب أحداً من قبل — وربما أكثر مما أحب فنه ، وهذا شىء غير طبيعى بالنسبة للفنان ! — وكان مستغرقا فى التفكير : « تبدو أكثر جمالا من الماضى ! أم أننى سكران ؟حزن عينيها يزيد من جاذبيتها . إذن فصحيح أن الحزن يزيد من جاذبية المرأة بالنسبة للرجل . لماذا ؟ ألأنها تشعره بأنه الأقوى ؟ ألأن الحزن يذكر الرجل بأنه الجانى ؟ وعندئذ يكون حب الرجل كما يكون حب الجانى للضحية ؟ ! مسكين أيها الإنسان ، ما أعقدك ! . . ومسكين أنا ، ما أبلهنى ! . . رجولتى وعزتى تأبيان لى أن أكون فى وضع المجنى عليه من قبل هذه المرأة ، فتحاول مخيلتى أن تخلق لها هى وضعاً حزينا ، لتبدو فى دور الأضعف ، حتى أكون أنا فى دور الأقوى ! . .سلسلة من العبث : فمن الذى يعبث ؟ نحن بأنفسنا ، أم أنفسنا بنا ؟ يذكرنى ثوبها بيوم بعيد ، فى حقل بعيد . . وكان الربيع يفرش الأرض بألوان . . ألوان .. ألوان . . هيه! لن أعود لنبش الماضى . . ولكنى أتساءل : لماذا يجعل الحب المرأة أكثر إثارة ، وحساسية ، وجاذبية ؟ . . وصوت المرأة العاشقة فيه رنة تدغدغ الحواس : كصوت سهى حين كانت بين ذراعى بشار .. كصوت سامية يوم نامت على ساعدى فى الحقل البعيد . غريب ! حتى أكثر النساء خشونة يصبحن لينات فاتنات مثيرات . وحين تمتلىء قلوبهن حباً يضحين شهوانيات ! أظننى بحاجة لامرأة هذه الأيام ! »

وسألته نسرين : « ألا يعجبك ثوب أختى ؟ » . همهم بدون وعى : « طبعا . يبدو كقطعة من الشمس ! » . . قالت نسرين مفسرة : « سامية تحب الأصفر . تقول إنه يذكرها بشبابها » . وأخذت تضحك : « أختى غريبة الأطوار ، تظن أنها باتت عجوزا ! » . أخذ عبدالرحمن

ينظر فى عين نسرين بدون تركيز ، وتساءل بلهفة سكرى : « من ؟ أختك عجوز ؟ فما أكون أنا ؟ » . وكان الوسكى قد بدأ يعبث بتوازنه ، فأخذ يردد كمن يحلم : « الأصفر يجمع بين صفات الألوان الشفافة والألوان الصاخبة . فهو مثير ، ومع ذلك فهو رقيق ! » . وواصلت نسرين : « وهو مشرق لأن فيه وهج الشمس وتألقها ! » . قال بكآبة : « وهو كئيب لأنه يذكر بالذبول والمرض ! » . قالت نسرين : « فيه خصب القمح المحصود » . قال : « وفيه فتور الأوراق الخريفية المتساقطة » . قالت : « فيه طراوة عيون النرجس البرى » . . فأجفل قليلا ، ونظر فى وجه نسرين بعينين خدرهما الوسكى : « من أين جئت بأوصاف الأصفر هذه ؟»

— لم تبتكرها قريحتى ، فقد سمعتها من سامية .

قال بحدة المخمور المضعضع : « بل هى منى . . من فيض قريحتى أنا ! » . نظرت نسرين فى وجهه بعجب ، وقالت بلطف : « أستاذى ، هل آتيك بفنجان قهوة ؟ » . تساءل بخجل : « هل أبدو مخمورا ؟ » . قالت بابتسام : « قليلا . » . . فوضع الكأس من يده وقال : « سأتوقف عن الشراب . . وعن النظر إليها » . تساءلت نسرين : «إليها؟ من هى ؟ » . قال بكآبة : « لا . . لا شىء » . قالت بخبث : « ألا تعجبك ؟ » . تساءل مضطربا : «من ؟ » .

— أختى سامية !

أجفل وقال : «بلى . . فهى سيدة محترمة » . وسكت قليلا ، ثم عاد يتساءل : « ولكن ، لم هذا السؤال ؟ » . أجابت : « لأنى لم أرك مرة واحدة تكلمها بألفة ! » . قال متذرعاً : « أختك غير ميالة للمرح ، ثم إننى أحترم انزواءها ، فقد تكون فى غنى عن صحبتنا ! » . قالت نسرين ساهمة : « مسكينة أختى ، أعتقد أنها تعيسة جداً» . قال مستدرجاً : « كل أرملة تحس بإحساسها » . فقالت دون وعى : « ولكنى لا أعتقد أن موت

زوجها هو سبب تعاستها ، فهى لم تكن مغرمة به ! » . فسأل مستغرباً : « لم تكن ؟ ! » . أجابت : « لا . . وأظنها كانت تضيق به ، رغم محاولاته المستمرة أن يكون لطيفاً ومرحاً ومؤدباً . . » ، فعاد يسأل باهتمام : « وما السبب إذن؟ » . قالت نسرين : « إنها تبدو كمن تعيش فى «زنزانة» نفسية ، فرغم حريتها السطحية إلا أنى أعتقد أنها مكبلة من الداخل! »

قال باهتمام : « كيف ؟ » . قالت بحيرة : « لا أدرى . . فهى قليلة الكلام ، انطوائية ! » . وأخذت ترقب أختها بإشفاق ، وعادت تقول : « للمرة الأولى منذ سنوات أراها تبتسم ابتسامة متسعة بهذا الشكل ! »

ـ وكيف كانت تبتسم من قبل ؟

قالت بحيرة : « لا أدرى ، ولكن ابتسامتها لم تكن ابتساماً ، كانت نوعاً من البكاء الجاف المعكوس ! » . تساءل : « بكاء جاف معكوس؟» ضحكت ضحكة صغيرة وقالت : « هذا ما أعتقده». تساءل : « أليس لها أصدقاء ؟ »

ـ أبداً ، فهى ترفض أى نوع من الصداقة . أتدرى ! أحياناً أظنها تعيش فى عالم غير عالمنا ، عالم الأشباح مثلا . ربما كان لها أصدقاء منهم!

وأخذت تضحك ، وقالت وهى تغطى فمها بيدها : « اعذرنى ، يبدو أننى أنا المخمورة الآن ! » . فابتسم وقال مشجعاً : « بل أنت فتاة ذكية». قالت بامتنان : « أشكرك ، فأنت ترفع من معنوياتى » . ثم قالت فجأة : « صحيح ، نسيت أن أقول لك إن " نزار " هو صديقها الوحيد . إنه رجل طيب ، ألا تعتقد هذا ؟ هو مهذب» . فأجاب : « فعلا ، وهو صديقى القديم أيضاً . لم نفترق إلا أثناء اعتقالى وخروجى من البلاد . ولكنك لم تقولى لى : متى رجعتما من أمريكا ؟ » . أجابت : « مضت الآن على رجوعنا سنة ونصف تقريباً » . فعاد يسأل : « وهل رجعتما حال وفاة المرحوم ؟ » . قالت مصححة : «لا ، بل بقينا هناك سنة . ولكن سامية كانت تحن للعودة إلى الوطن ، فهى من ذاك النوع الذى يعتقد أن للأرض

رابطة تشد الإنسان ! » .

— وأنت ، ألا تعتقدين هذا ؟

— لا ، فالمكان الذى يوفر لى سعادة أكثر ، هو الذى يشدنى أكثر!

قال بتأمل : « يجب أن أناقشك فى هذا الموضوع حين أكون صاحيا تماما ! » . قالت باسمة : « أتريد إقناعى بما فشلت فيه سامية ؟ » . قال محاولا السيطرة على تركيزه : « نعم . . » ، فقالت مبتسمة : « ستتعب معى ! » . قال : « تعب الواجب راحة » .

قالت وهى تهز رأسها : « لن أقتنع ، فهذه البلاد تعيسة وكئيبة . الناس هنا سلبيون وكثيرو التأفف . ووضع المرأة هنا مضحك ومقرف . وأنا امرأة . . أقصد فتاة . . وتعاليمهم يجب أن تطبق على أيضا ! » قال بتفهم : « أفهم ما تحسين به ، ورغم هذا سنتحدث ونتناقش حين أكون فى كامل وعيي ! » . قالت نسرين : « كانت سامية تقول إنها ستكون فى وطنها أكثر سعادة ، والذى أراه أن وضعها لم يختلف ، فهى باقية كما كانت : انعزالية ، انطوائية ، تعيسة . والوطن لم يسعدها ، بل أشقانى أنا أيضاً . . وهى ما زالت شقية ! » . قال مستدرجاً : « شقاؤك أنت سنجد له حلا . أما شقاء أختك فما هو مبرره ؟ ثم كيف تعرفين أنها ما زالت شقية ؟ » . أجابت فى عفوية : « كيف أعرف ؟ ألا ترى ذلك الحزن الذى يسكن فى قاع عينيها ؟ إن أحداً لا يخطئ التكهن بذلك من أول نظرة . أتعرف ؟ أذكر قبل ذهابنا لأمريكا — رغم أننى كنت صغيرة حينذاك — أنها لم تكن بهذا الشكل . لقد كانت إنسانة أخرى . كانت غيرها الآن ! . تساءل فى شرود : « حقًّا ؟ » .

— نعم . . نعم ، أنا واثقة بأنها لم تكن بهذا الشكل !

* * *

وكانت الموسيقى قد توقفت ، والمجموعة تصفق للراقصين اللاهثين . . فى حين أخذ هو يراجع فكره : « الأصفر يذكرها بشبابها . أى بالفترة

التى عرفتها فيها ؟ ؟ وهل صحيح أنها لم تكن سعيدة مع زوجها ؟ أتكون قد احتفظت بذكراى ؟ . . هه . عدنا للسخف . . اسمع يا عبد الرحمن ! أين المنطق ؟ . . امرأة تظل تذكر رجلا طوال عشر سنوات ! ! أهذا منطق ؟ ولكن ألا يجوز أنها لم تلق رجلا يملأ فراغها أكثر منى ؟ بل ربما كان ضميرها يعذبها بشأنى . يذكرها بى باستمرار ، حتى باتت تحب عذابها أكثر من حبها لى . هناك أناس يستسيغون العذاب ، يبحثون عنه ، يستمرئون طعمه . وهؤلاء فى العادة مرضى . وقد تكون هى مريضة . ولكنها لوكانت من هذا النوع لاستعذبت ألم انتظارى ، ولانتظرتنى ! لكنها هربت ، وهذا دليل الضعف والجبن . والمرأة مخلوق ضعيف ، ولهذا نحبه . لا ، لا ، أنا أحب المرأة القوية ، الصبور ، ذات المبادئ والمثل . أنا لا أجد فى المذلة أنوثة كما يجد رجال الشرق . أنا أحب المرأة الصلبة بدون عنف ، الرقيقة بدون ميوعة ، الجميلة بدون غرور . وقد كانت هى رائعة . أى رجل كان باستطاعته أن يحبها كما أحببتها ؟ وأى رجل كان باستطاعته إقناعها كما أقنعتها ؟ كانت تقول بأنى « خارق »، ولا أعتقد أن هناك الكثيرين ممن تسميهم « خارقين » . وهى ليست امرأة عادية ، فإن لها نفسية فنان . ولو أنها غير منتجة . أى أنها من صنف الآلهة غير الخلاقة . وبهذا فهى لن ترضى بأى رجل ! . . ولكن ، أترانى أحاول إيجاد ثغرة أنفذ منها إليها ؟ . . أحاول تبرير موقفها منى ؟ . . أحاول إقناع نفسى بأنى كنت السبب فى تعاستها ؟ أحاول إثبات أن ذكرياتنا معا ما زالت ترسب فى مخيلتها ؟ حتى أنا نسيت هذه الذكريات ، فكيف لا تنساها هى ؟ . . ولكن ، يقال إن المرأة أكثر تعلقاً بالذكريات من الرجل ! ثم إن الظروف التى مررت بها لا تدع لى مجالالأجلس بهدوء وراء مكتب محاط بشتى الأجواء التى تذكر بأيامنا معاً ، كما تفعل هى ! . . اللون الأصفر باتت له قيمة خاصة عندها ، وهذا تعلق غير طبيعى ممن لا يعيش عالم الألوان كما نفعل نحن عباد

اللون والحركة . فلكل فنان لون معين يظل يدور فى فلكه مهما تنقل بين الألوان . فأنا أعرف برتقالى "جوجان" من بين ألف لوحة ، وأصفر "فان جوخ" ، ونبيذى "رمبرانت" .. هذه أشياء تخص الرسامين .. أما هى ؟!

« وتلك اللوحة : « المرجريت » حين أهديتها لها كنت ما أزال رساماً مغموراً ، وكانت معرفتى بها سطحية . كانت تعجبنى مثل أية فتاة جميلة مثقفة ذكية . وكنت أعجب كيف تسنى لها أن تظل بعيدة عن « زنزانة » الزواج ، رغم أنها فى أواخر العشرينات من عمرها ؟ . وقد أجابتنى عندئذ ضاحكة : « لم أجد الرجل الخارق بعد ! » . وسألتها : « وهل يجب أن يكون خارقا ؟ » . أجابت ضاحكة : « نعم ، إن كان يود الاقتران من إنسانة غير عادية » . فسألتها : « تعنين أنك غير عادية ؟ » .. فتطلعت فى وجهى بتحد ، وقالت : « ستحكم أنت بنفسك ! »

« ورأيتها عدة مرات . تناقشنا معا فى أمور كثيرة . انتقدت رسومى الفاشلة ، وحتى الناجح منها كانت تشير إلى موطن الضعف فيها ! وكنت أحتد ، وبعد تفكير ودراسة أجد أنها كانت محقة ، وأنها تمثل رأى الجمهور المثقف ، الحساس ، الصادق ! . . ومقالاتى كانت تقرأها حرفاً حرفاً ، وتناقشها كلمة كلمة ! لقد أحببتها بكل ما هى عليه من صراحة . وقالت مرة إنى إنسان خارق ، فسألتها : أهذا يعطينى تبريراً للاقتران بإنسانة غير عادية ، فضحكت . وبما أننى كنت فقيراً ، ومغموراً ، وملاحقاً من قبل الشرطة ، اتفقنا على أن تظل علاقتنا علاقة عواطف فقط ، ولو أنها لم تخل من أشياء طفيفة . ويوم أهديتها تلك اللوحة ، كما يهدى العاشق حلية لحبيبته ، كان يوماً مطيراً كهذا اليوم ، لقيتها فى النادى ، وأخذتها إلى غرفة المكتب الخالية ، وقلت لها أشياء حلوة . أسمعتها كلمات رقيقة . . وبكت بين ذراعى ! . . كانت حساسة ، وكانت حساسيتها تثيرنى ، تهزنى . كانت تعرف كيف تحب .. والنساء عادة يعرفن كيف يتلقين الحب ، ولكن لا يعرفن كيف يعطينه ! ..

ربما فى هذه البلاد فقط ، فالمرأة الغربية تجيد الحب أكثر من المرأة الشرقية ، وهذا منطقى . فالمرأة هنا مكبوتة ، معقدة ، وخائفة . وحين تندفع يكون حبها اندلاعاً . . انفجاراً . . كنار هوجاء مخربة !

أما هى فكانت تعرف كيف تحب . ربما لأنها كانت تحب بعمق ، وبصدق ، والنساء يصبحن مثيرات فاتنات ، شهوانيات ، حين تمتلئ قلوبهن حبًّا . حتى أشدهن جفافاً وأكثرهن خشونة ، تصبح طيعة لينة ناعمة . وقد كانت هى جنية فى ثياب امرأة . والفنان يعشق الجن والأساطير والغيبيات . الناس والمجتمع والتقاليد ما كانوا يعنونها أكثر مما يعنيها قيام انقلاب فى ملاوى أو السنغال ! وأهلها كان معظمهم ممن اغتربوا لأمريكا ، وأمها كانت عجوزاً ، وبذا كانت سيدة نفسها ! !

* * *

وكان عبدالرحمن ينظر إلى سامية الآن بعينين زائغتين . وكانت هى ترتجف بانفعال تحت مجهر عينيه الحزينتين . وكان داخلها ينشج بلوعة وهى ترى دموعاً شفافة تغبش عينيه . . والكل فى انشغال : رقص ، وضحك ، وموسيقى . أما ذلك التيار الخفى من الحزن والشوق والألم ، فكان شريطاً لاسلكيًّا يربط بينهما رغم كل الحواجز ، رغم الاعتقال ، رغم الخيانة ، رغم السنوات العشر من الغربة والضياع . . رغم النسيان الذى لف ذاكرته ، والذكرى التى ما برحت عنصر الحياة المشوق بالنسبة لها . رغم المرارة والألم والغضب. كان بينهما ذاك الشريط الحساس . . يعيدهما . . يقربهما . . يربط بينهما . . وكان فى عينيه عتاب . كانت تسمع نداء عينيه . إنه نداء غاضب ملىء بالألم العميق : « لم تركتنى؟ . . لم تركتنى ؟ . . لم تركتنى ؟ » .وأخذت دموعها تتساقط . وكان هو يفكر بذهول : « تبكين ! . . تبكين ! . . الآن تبكين ؟ إذن فأنت تعرفين كيف تبكين! ولكن ما فائدة كل هذا وقد ضاع الحب ، بعد أن ضاعت الثقة ؟ »

وانسحبت هى من المكان . دخلت مكتبها المظلم ، وغرقت فى

غيبوبة من المرارة والتعاسة . . وكان هناك أمل ، أمل فى أن يتبعها ، أن يفتح الباب كما فعل قبل السهرة ، وأن يعاتبها ويلومها ويعنفها . . وأن يصفعها إذا اقتضى الأمر !

كانت تنتظر . . وعندما فتح الباب ، وكان هو يقف فى الظلمة ، أخذت تبتهل بصمت وهي ترتجف : يارب.. يا رب.. يا رب ! .. ويبدو أن الله لم يستجب لابتهالها ، إذ لم يقل عبدالرحمن سوى بضع كلمات وخرج . قال : « الدمع لا يمحو الخطأ ! »

وأخذت أعماقها تنزف : « منذ متى كان قاسياً ؟ منذ متى كان حقوداً ؟ ! » . . وكانت نسرين تقف بالباب تضيء النور وتتساءل بجزع : « ما بك . . ما بك ؟ أهو عبدالرحمن ؟ إنه مخمور ، لقد لاحظت ذلك ، رأيته خارجاً من هنا ، هل فعل شيئاً ؟ » . وكان نزار يقف خلف نسرين ، فقال بجفاف : « اتركيها ، دعيني أسألها » . واقترب منها وسألها : « هل تكلم ؟ هل تكلم؟ » . قالت من خلال دموعها : « الدمع لا يمحو الخطأ . . هذا ما قاله » . وسألها بلهفة : « وأنت ، ألم تقولي شيئاً ؟ ألم تقولي شيئاً ؟ » . هزت رأسها نفياً .

— وأين ذهب ذكاؤك ؟ أين ذهب الذكاء ؟ لقد كانت فرصة لا تعوض . كان يجب أن تستوقفيه ، وأن تقولي شيئاً يعيد الحنين إلى قلبه!

وكانت نسرين تردد بذهول : « ماذا أرى ؟ أنا لا أفهم شيئاً !! » . قال نزار وهو يستدير إليها : « اسمعي ، أنت ما عدت صغيرة ، ذاك الرجل كان يحب أختك ، وكانت هي تحبه ، وتزوجت أختك وتركته فى المعتقل ! » . فغرت نسرين فاها وتساءلت بذهول : « رجل كهذا يترك ؟ هذه فظاعة ! » . فازداد نحيب الأخت وهى تردد : « الدموع لا تمحو الخطأ . . الدمع لا يمحو الخطأ ! » .

. . وظلت تردد هذه الجملة طوال ليلها ، ورأسها على وسادتها الباردة ، والغطاء يغمرها بمزيد من الوحشة والحنين . وكانت تدفن رأسها

فى صدر خيالى لرجل خارق . . وكان ذاك ينام مخموراً وهو يردد : الدمع لا يمحو الخطأ !

كانت « سهى » تهتف وهى بين ذراعيه : « أنت عنيف . . عنيف . . عنيف ! » . . وكان مفروشاً على قباب صدرها ، يلثم وجهها بحنان ويقول : « أنا آسف . . آسف ! » . قالت هامسة : « أتأسف لأنك أسعدتنى ؟ » . وضاعا فى لجة من العنف واللطف والنشوة ! . . واعتقد بشار للحظات أنه امتلكها بكل ما فيها من حواس وأفكار ومواهب ، ولكنه أفاق بعد أيام ليجدها تقول له وهى لا تنظر فى وجهه : « نعم يا عزيزى . . أحبك لكننى لن أتزوجك ! » . . وصاح فى وجهها : « أمجنونة أنت ؟ » . ولم تجب ، بل قالت بهدوء : « لقد أفهمتك منذ البداية أنى لن أتزوجك ! » فأمسك بذراعها يهزها : « وذاك الحب ؟ وذاك العنف ؟ وذاك الالتحام ؟ » . قالت بشرود : « تجارب يا عزيزى » . وأصابه ذهول كاد يفقده عقله : « ومن ستتزوجين إذن ؟ » . قالت بابتسامة غريبة : « الفن » ! فصفق الباب وتركها فى غرفة الفندق ومضى .

وأخذ يتردد عليها . كل يوم نفس الحكاية : محاولات فاشلة لإقناعها بوجوب وحتمية الزواج ، وأن الزواج مرحلة لا بد من تخطيها ، وأنها إن لم تتزوجه هو فستتزوج غيره ، وطالما أنها تحبه كما تقول ، فلم لا تتزوجه وينتهى الإشكال ؟ . . وكانت تقول بترو : « أولا الزواج ليس فريضة حتمية ، فما وجد بعد شىء باستطاعة الإنسان أن ينعته بـ « المحتم » ، لأن لا حقيقة على وجه الأرض ، وكل شىء "جائز"! » . ثم ابتسمت بلطف معلمة مدرسة ابتدائية ، وقالت : « هكذا قال زرادشت » .

وحملق بشار فى وجهها : « ما هذا التخريف ؟ ولا يهمنى من يكون زرادشت ! ولكن من هو زرادشت هذا ؟ سمعت عنه لكنى لا أعرفه ! » . فضحكت بحنان وقالت وهى تقرص أذنه : « أترى ؟ لن نستطيع الحياة

معا ، فأنا من طينة وأنت من أخرى ! » . وكان يعرف أن كل كلماته ستضيع سدى ، فهو فى واد وهى فى آخر . وهو لا يستطيع الإمساك بها ، فهى تحلق فى سموات أبعد من أن يطاولها حتى بالنظر . فلا يجد أمامه متنفساً إلا جسدها الفاتن . . وكان هو وحده الذى اكتشفه ، فقد أدرك أنه هو المكتشف الأول ، ويبدو أن هذا كان اكتشافه الأخير من ناحيتها ، إذ ما عاد بإمكانه التغلغل فى حياتها أكثر . فقد كانت تسير فى عوالم أخرى غريبة . كانت تفكر بطريقة غريبة ، وتتكلم بطريقة غريبة ، وتمارس الحب بطريقة أغرب ! . . وكان هذا العنصر الأخير هو عنصر الإثارة والتشويق بالنسبة له ، فبدلا من أن يفتر حبه ويبرد ، ازداد توقداً واشتعالا . لقد كانت غريبة فعلا ، وكان فى بعض الأحيان يشك فى أمرها ، فتصرفاتها توحى بشىء ما ، فهى إما نصف مجنونة أو أنها تتعاطى المخدرات . وقد كان يود أن يسألها عن ذلك خاصة ، يوم شم تلك الرائحة الغريبة فى غرفتها عصر ذاك اليوم ، ولكنه خاف غضبها فظل صامتاً . كانت غامضة كالأحجية ، وربما كان غموضها قد زادها سحراً وفتنة ، فازداد تعلقاً بها ، وأخذ يلاحقها محاولا إقناعها بالزواج منه . وكان لا ينفك يسألها ، حتى فى أدق اللحظات وأشدها خشوعاً : « أتحبيننى ؟ » . . فتجيبه : « جداً » . . فيسألها : « أتتزوجيننى ! » . . فلا تتحرج من أن تصدمه بقولها : « لا ! » . . فيزداد معها عنفا ووحشية . . !

* * *

ومضت بضعة أيام ، وكان المعرض قد أوشك على النهاية . لم يبق سوى بضعة أيام وتنتقل اللوحات ، وينتقل عبدالرحمن ، وتنتقل سهى ، وينتهى كل شىء ! ولم يجد بشار سوى صديقه فاروق يشكو إليه همه وخيبته . وفوجئ ذاك بالموضوع تماماً ، فالكل على اعتقاد ثابت بأن بشارا وسهى متفاهمان ومتفقان على الزواج ، هذا شىء مفروغ منه ،

فما هذا الذى يسمعه فاروق من صديقه ؟ وقال فاروق بعد تفكير : « أمصمم أنت على الزواج منها ؟ أتريدها فعلا ؟ » .

ــ أريدها ، أريدها ! يجب ألا تفلت من يدى وإلا جننت !

وكان وضعاً يستحق الرثاء والعجب : امرأة ، عربية ، تخطت السابعة والعشرين ، ترفض زوجا ، موسراً ، متعلماً ، وسيما ! ! . . وقال فاروق: «سنشرك عبد الرحمن فى الموضوع!» . فسأل بشار : «وما دخل عبد الرحمن؟» . فأجاب فاروق : «هو الوحيد الذى سيتمكن من إقناعها.»

ــ ولكن ألا تظنه يفكر بنفس طريقتها؟ والدليل أنه غير متزوج؟!

ــ وكيف يتزوج وقد قضى معظم أيام شبابه ما بين الزرقاء والجفر؟

قال بشار : « فعلا » . فاستطرد فاروق : « إذن فموعدنا الليلة ؛ وستكون السيدة « سامية » هنا . ستجىء هذه الليلة ، مهلا ، تلك هى نسرين فلنسألها . »

وكانت نسرين تقترب منهما . وحيت باسمة ، وهى تقول : «مرحباً ، ما آخر الأخبار ! هل قرأتم مقال عبدالرحمن الجديد ! له آراء غريبة فى الحب !». قال فاروق وهو يتأمل قبعتها الفرائية البيضاء : «تليق بك هذه القبعة» . فسألته : «تجربها ؟» . قال محذرا : «أترغبين فى رؤية دكتور زيفاجو؟». قالت : «لا أعتقد أنك ستقارن بين نفسك وعمر الشريف!».

ــ ولم لا ؟ أهو أكثر وسامة منى ؟

ــ معاذ الله ، وهل هناك من هو كذلك ؟

قال وهو يرفع رأسه وحاجبيه بكبرياء : « لم تلده أمه بعد ! » . . فتدخل بشار بجفاف : « يا أخى خلصنا . ألن تسألها ؟ » . قال فاروق وهو يفرك كفيه بحركة أنيقة : « لم تقولى لنا يا آنسة نسرين ، ما أخبار السيدة سامية ؟ » ، فأجابت :

« بخير ، أنفلونزا بسيطة ، لكنها ستجىء هذا اليوم . من عادتها أن ترقد فى الفراش بضعة أيام كلما أصيبت بالبرد . لكنها ستجئ إحالا .

لقد خرجت قبلى من المنزل . »

وسمعوا وقع أقدام تسير فوق الممر الخارجى المؤدى للقاعة ، ورأت نسرين أختها تمشي ببطء فوق بلاط ممر الحديقة. فقالت: «هاهى ذى».. وكانت علامات الإعياء والتعب بادية على سامية. كانت قد قضت ثلاثة أيام شاقة بعد تلك الليلة الكئيبة . وبرغم أن عبد الرحمن بدا كالضائع بعدها ، وكان يبدو واضحاً أنه يبحث عنها فى كل مكان ، لكنه لم يسأل أحداً ! وكانت نسرين قد أخبرت سامية بأنه كان بادى القلق زائغ النظرات ، فابتسمت تلك بتشاؤم غير المصدق ، وقالت إن كل ذلك إن هو إلا خيالات وأوهام ! . وقال فاروق لبشار : « ما رأيك فى أن تفاتحها أنت فى الموضوع ؟» « .. فاتجه بشار نحو الباب الزجاجى ليفتح لسامية وهو يقول : «هذا ما سأفعل !» . ومشى ليلحق بسامية، فى حين تساءلت نسرين : « أى موضوع » . فأجابها فاروق : « تعالى أقل لك » . وجلسا حول منضدة فى زاوية بعيدة ، وأخذ يقص عليها الموضوع : « بشار يعبد سهى . . . . سهى تحب بشارا . . بشار يود الاقتران بسهى . . سهى ترفض الزواج من بشار ، لماذا ؟ لا أحد يدرى ! أهناك مانع ؟ لا ،ليس هناك أى مانع على الإطلاق.. فبشار شاب مرح ، صيدلى ناجح موسر ، عائلته محترمة ، وسيم ومثقف ؛ وهى تحبه . أليس هذا غريباً ؟ » ، فهزت نسرين رأسها بحيرة وقالت : « لا أدرى ، ألا يمكن أن تكون مرتبطة برجل آخر ! »

— لكنها تحب بشاراً،وهى ليست طفلة لتحب رجلا وترتبط بآخر!

— من المحتمل أنها تود تكريس نفسها للفن ، حسب نظرية عبد الرحمن فى مقاله الأخير .

— هذه خزعبلات ، فأى امرأة شابة، جميلة ، فياضة الحيوية مثلها ، تستطيع الحياة بدون رجل ؟ إلا إذا كانت شاذة ؟ !

خبأت نسرين وجهها فى كفها وأخذت تضحك ، فقال فاروق

وهو يرمق خجلها متحدياً : « أليس هذا صحيحاً ؟ قولى ، هل يستطيع الإنسان أن يحيا بدون الجنس الآخر طواعية ؟ قد تجيء ظروف قاهرة تمنع ذلك ، ولكنه لا يختار ! » . قالت نسرين : « فما بالك أنت ؟ ! »

— ومن قال لك إنى أعيش بلا نساء ؟ لا يا آنستى ، أنا رجل غير ميال للعفة أو الشذوذ !

فأخذت نسرين تقهقه . وارتفع صوت إيفيت المنغّم : « ما نوع النكتة ؟ دعونى أضحك معكم » . وجلست فى مواجهة فاروق ، وأخذ هذا يقص القصة من أولها : « بشار يعبد سهى . . سهى تحب بشارا . . بشار يود الزواج من سهى . . سهى ترفض الزواج من بشار . . لماذا ؟ إلخ » . . فقالت إيفيت بعجب : « أمر غريب فعلا . لو كنت مكانها لقبلت فوراً ، فهو شاب ممتاز . تعجبنى عضلات صدره وساعديه القويين ! » . ورمقها فاروق وابتسامة خبيثة على شفتيه . وأخذ يوجه لها نظرات غريبة لم تلحظها نسرين ، التى قالت ضاحكة : « يتساءل فاروق فيما إذا كان باستطاعة الإنسان أن يحيا بدون الجنس الآخر طواعية ؟ » . فقال فاروق وهو يرمق إيفيت بنظرات ساخنة : « هل يستطيع الإنسان أن يعيش بدون جنس ؟ أنا أشارك « د . ه. لورنس » رأيه حين يقول إن الجنس هو أصل المعرفة وأصل الحياة ، وإنه التحقيق الوحيد لذات الإنسان » . وكانت إيفيت تغض الطرف عن نظراته التى تحمل ألف معنى ومعنى ! . . وقالت نسرين : « من يعلم ، ربما كان هناك سبب يمنع سهى ! » . ثم نهضت فجأة قائلة : « اسمحا لى ، يبدو أن سامية بحاجة إلى » . وكانت سامية تشير لأختها من وراء القاطع الزجاجى المزخرف .

• • •

وبقيت إيفيت مع فاروق . . فظلت هى صامتة تنظر إلى المنضدة البنية أمامها ، فى حين أخرج هو غليونه وعلبة التبغ وأخذ يحشوه

بدقة ، ثم أشعله وسحب نفساً طويلا ، بينما كانت عيناه تبحثان عن عينيها بإصرار . وقال من طرف شفتيه ، والغليون مازال يحتل الطرف الآخر : « لم أرك منذ مدة ! » . فابتسمت إيڤيت وهى تحمر ، ولم تجب . . فأخذ يتأملها من جديد : جميلة ، بشرة وردية رائعة ، شعر أسود فاحم يتوج رأسها المحمول على عنق يضاهى عنق نفرتيتى . وعندما انحنت قليلا للأمام ،وهى تشبك ذراعيها على صدرها ، لم يحتمل الثديان الضغط فقفزا إلى أعلى ، وظهر شق صدرها من خلال فتحة الثوب الأرجوانى . كان مثل واد سحيق توجت جباله بالثلج الناصع المؤتلق البياض . وأخذ فاروق يتأمل المشهد بدقة ، والاضطراب المنفعل ينشره ويطويه ، ثم قال بصوت دافئ محاولا كسب ثقتها : «لم أكن أعتقد أنك تجيدين الرقص هكذا ! . . . إنك ترقصين مثل « باليرينا » ، لم أراقص من هى أرشق منك » . . . فهمست بصوت منفعل : « شكراً » . قال بدون كلفة : « ماذا تفعلين هذه الأيام ؟ » . قالت بكآبة : « أحيا » . قال بحنان مفاجئ : « إيڤيت ، حزنك الداخلى هذا لا يعجبنى . ماهذا الجواب الكئيب ؟ ها . . ما هذا الجواب ؟ أهذا جواب شابة جميلة دافئة ذكية مثلك؟أتعرفين ما معنى هذه الكلمة؟ معناها أنك تحيين فقط ، أى تأكلين وتشربين وتنامين . . أما السعادة الحقيقية ، التوهج المشع ، والازدهار المشرق الذى نسميه حبًّا . . فذلك مالا تعرفينه . أنا واثق بأنك لا تعرفينه ! » وسكت لحظة ثم قال بصوت يحمل كل الشفقة التى حواها العالم :

ـــ حرام . . . حرام . . . حرام . ! !

وكانت هى ما تزال تنظر إلى المنضدة وذراعاها معقودان على صدرها تشده بانفعال ، فيزداد الشق انحداراً ، وتزداد الهضاب شموخاً . . وقال هامساً بدفء وحنان مثيرين : « كل مرة أراك فيها يزداد قلقى عليك . . أرى فى عينيك ما هو أعمق من الحزن نفسه . خبرينى إيڤيت ، اعتبرينى

صديقاً ، أخا ، زميلا ، اعتبريني أى شيء ولكن قولي لى ، ما بك ؟ »

قالت وهى تهز رأسها بشرود : « لا أدرى . . » .

– لا تدرين ؟ كيف ! أهناك إنسان لا يدرى ما به ؟ المريض يعرف ما به ، يتألم ، يعرف أين يكمن الوجع . والجائع يعرف ما به ، يأكل . والعطشان كذلك ، وأنت ما بك ؟

كان الاحمرار والانفعال يعلوان وجهها الطفولى الجميل ، وأخذت دموعها تتساقط فجأة وبغزارة .. فهتف بإشفاق : « إيڤيت .. صغيرتى ، ما بك ؟ إيڤيت ! » . وأمسك بيدها التى كانت تأخذ طريقها نحو محفظتها لتخرج ورقة « كلينكس » ، وأخذ يتحسس يدها الطرية الدافئة ويضغطها وهو يهتف مكرراً : « إيڤيت . . إيڤيت » . وسكت فترة وهو يرقبها برقة ، وعاد يردد : « إيڤيت . . إيڤيت الجميلة . . إيڤيت الرقيقة .. إيڤيت الحساسة» . وازدادت دموعها انهماراً . كانت تلك هى المرة الأولى التى تسمع فيها رجلا يهمس فى أذنها بكلام ملىء حناناً بهذا الشكل ! وأخذت كلمات زوجها تطن فى أذنها : « إيڤيت ، ما أغباك ! . تصرفاتك أمام الناس تورثنى الجنون . . معاملتك للأولاد لا تعجبنى . . أنت قاسية وأنانية ، وتفتقدين روح الحنان .. أنت إنسانة هوجاء .. أنت غير طبيعية .. سطحية .. والناس يسخرون منك ! »

وبينما كان فاروق يردد : « إيڤيت الرقيقة ، إيڤيت الذكية ، إيڤيت الحساسة» .. أخذت تبتلع غصتها بجلدة وتسائل نفسها : «أى إيڤيت أنا؟ أى إيڤيت ؟ إيڤيت الذكية أم إيڤيت الغبية ؟ إيڤيت القاسية أم إيڤيت الرقيقة ؟ إيڤيت الأنانية أم إيڤيت الحساسة ؟ . . أى إيڤيت أنا ؟ ! ! »

وكانت الحيرة تحتدم فى عينيها ، والألم والوحدة والوحشة تمضغها بضراوة : « ما أتعسنى . . لا أعرف من أنا » .

وكان فاروق يردد : « إيڤيت . . غريب كيف تستطيع امرأة أن

تكون كل هذا ! كيف تستطيعين أن تكونى أنيقة ولبقة بهذا الشكل . . كيف ؟ ؟ ! » وكان صوت زوجها يردد : « إيڤيت أين الجوارب ، ألا زالت فى الغسيل ؟ إيڤيت ، أزرار القمصان كلها مقطوعة . إيڤيت ابنتك تبولت على الأرض . . وخادمتك البلهاء مازالت نائمة » . . وكان فاروق يقول : « إيڤيت . . كنت أظنك تصبغين شعرك ، غريب! كيف تجتمع البشرة البيضاء والعيون الزرق بهذا الشكل مع هذا الشعر الفاحم الأسود ؟ . . كنوز ، كنوز . إيڤيت أنت لا تعرفين ما أنت ! » . . وكانت أعماقها تردد : «وكيف أعرف؟ كيف أعرف !!» فى حين كان صوت زوجها يقول : « إيڤيت ، ما هذه التسريحة السخيفة ؟ تبدين كالهاربة من مستشفى المجاذيب ، وحلاقك هذا يعرف كيف يضحك على مثيلاتك . . يفرغ رؤوسكن وجيوبكن . . اللهم صبرنى حتى لاأخطف موساه يوماً وأشكل له تسريحة أنيقة فى أنبوبة عنقه الملتوية!»

وكان فاروق يقول : « ألا تنظرين فى المرآة لترى ما أنت ؟ ياالله . . كيف تستطيعين الاحتفاظ بكل هذا التواضع وأنت ما أنت عليه ؟ ! » . . لكنها أخذت تحملق فى المنضدة وهى تبكى وتبكى : «أية مرآة . . أية مرآة . . مرآتك أم مرآة زوجى ! ! » . . فى حين استمر هو يقول : « إيڤيت ملاك فى ثياب امرأة ! » بينما أعماقها تصرخ بوحشة : « من أنا ؟ من أنا ؟ من أنا ؟ » . . وأحست بيديه الاثنتين تضغطان يدها المرتجفة . . وكانت يده العليا تفرك بشرة كفها بنعومة ورقة فتحس بيدها تنزلق فى وعاء ماء دافئ ، ثم تحس بميل شديد لأن تلقى بكل جسمها وروحها وثقلها فى ذاك الوعاء . وبالضبط كان هذا مايحاول فاروق الإيحاء به إليها ! . . وكان يقول كمن يهمس بسر خطير : « أتظنين أنى كنت ألعب الكرة فى إنجلترا ؟ وأن شهادتى المترامية الأطراف حلية أزين بها جدار مكتبى؟ لقد كنت أدرس أشياء كثيرة، أشياء كثيرة جداً . وكلها معلومات تجعل من الرأس مفاعلا ذرياً .

ولا تدهشي إذا قلت لك إني درست علم النفس فوق كل مادرست . درست علم النفس حتى بت لا أعرف نفسي ! »

وعلى اعتبار أنه أطلق نكتة وجيهة ، فقد أخذ يقهقه قهقهة أرستقراطية فيها الكثير من الكبرياء والأنانية ، ورنين الذهب الموروث . وقال مردداً وهو يطأطئ برأسه وينظر في وجه إيڤيت من أسفل : « أليس هذا مضحكاً ؟ أن أدرس علم النفس حتى بت لا أعرف نفسي ؟ . . ها ها ها ها ها ها و » . ورفرفت هي بعينيها ، وابتسمت ابتسامة صغيرة بحجم « اللوزة » . وضرب هو المنضدة بيده صافعاً خشبها وقال : « وتخبئين الشمس عني في يوم مطير كهذا ؟ هيا . . إشراقة أخرى بحق الذي سواك وعدلك ! » . . فابتسمت هي ابتسامة أكبر ، بحجم « الجوزة » . . وأخذ يضغط يدها ، يشدها ، يداعبها ، يتحسس أظافرها المطلية ، وهو يرسم على وجهه نظرة فيها الكثير من الخشوع الدنس : « مذ رأيتك عرفت من أنت . . عرفت أنك جميلة » — وكان صادقاً هنا — « وعرفت أنك لطيفة وبسيطة — وهو محق هنا — « وعرفت أنك ذكية » — وكان هنا أكثر كذباً من مسيلمة الكذاب نفسه ! — « . . عرفت أنك من طينة أخرى ، طينة خاصة من صنع إله الخير والرحمة . في عينيك طهارة الياسمين في أول مواسمه . . اعذريني إيڤيت ! لا تقسي باللوم علي إذا صارحتك بأني أغار من زوجك ! » .

وأخذت هي تنظر إليه بتفهم ، فهو مسكين حقاً ، فكيف لا يغار من زوجها ؟ زوجها الذي يستطيع أن يضم إيڤيت الجميلة ، الرقيقة ، الحساسة ، بين ذراعيه ؟ وكيف تلومه ؟ لا ، إنها لن تلومه أبداً . . ! وسألها : « إيڤيت ، أي نوع من « الكريم » تستعملين لتحصلي على هذه البشرة الناعمة ؟ » . ونظرت إليه والابتسام في عينيها . وكانت دموعها قد جفت ، فبدت الآن في عز تألقها . وكان هو يتأملها وهو لا ينفك يضغط يدها . . « لا بد من نيلها . . لا بد . . فهي رخصة . .

رخصة . . عنقها الحريرى يثير فىّ ارتعاشات لن تهدأ إلا إذا غمرته بفيضان من القبل ! . . صدرها الغنى بكنوز الملك سليمان يوقف شعر رأسى . . ساقاها العاجيتان تحفران خنادق فى سويداء قلبى . . سأنالها ! » . . وأخذ يهمس لها : « ألا تؤمنين بالصداقة بين الرجل والمرأة ؟ باعتقادى أن الصداقة بين الرجل والمرأة تكون أعمق بكثير مما تكون عليه بين امرأتين ، إذ لن يكون هناك مجال للغيرة ، والحسد ، والتحدى ، والمنافسة . خذى نزاراً مثلا ، ألا تعتقدين أنه مثال الصديق الوفى لسامية وأختها ؟ ثم أنا ، خذينى مثلا : ألا تعتقدين بأنى صديق ودود عفيف النفس شريف المقاصد؟ قولى ، ماذا ترين فىّ ؟ »

وكان يتحين الفرصة ليرميها بنظرة قاتلة من سهام لحاظه الفتاكة. ورفعت عينيها الزرقاوين الصامتتين ، وكان ينظر فى وجهها بألفة وإعجاب وشهوة . كان فى عينيه بريق أخاذ سلب قلبها الصغير ، وكذلك عقلها ! وأخذ يدغدغ يدها بحركة جعلت جسدها كله فى حالة غليان . فأخذ قلبها يدق ، ويدق ، وهو ما زال يغرس فى عينيها انطباعات لم تعرفها من قبل . وأخذت تسائل نفسها حائرة « أهذا هو الحب الحقيقى ؟ أهذا هو الحب ؟ » وبدأت يدها ترتجف بين يديه ، وأثارته رجفتها بعنف ، وأخذ يفكر : « ما يضير المرأة قليل من العبث ! وهى لن تفقد شيئاً على كل حال ، فهى امرأة ! » . .وقال جاداً : « إيفيت ، يجب أن أساعدك . يجب أن أفعل شيئاً من أجلك ، أنا صديق ودود عفيف النفس شريف المقاصد ، ولن أتوانى عن مد يد المساعدة . اسمعى ، يجب أن تقرئى ، يجب أن تطلعى على أجواء أخرى ، وأن تعرفى ما يدور فى العالم . أن تعرفى أن المرأة إنسان له الحق كل الحق فى الحياة كالرجل تماماً . لها الحق فى أن تعمل ، وتكسب ، وتبنى نفسها ومن حولها . وأن تمارس حقها فى البناء والإنتاج ، وأن تفكر ، وتبلور أفكارها فى أفعال . وأن تفعل ما يحلو لها ، أى شىء يحلو لها ، تماماً

كالرجل . يجب أن تقرئى ..» .. فتمتمت بدون ثقة : «ولكنى أقرأ» .

ــ ماذا تقرأين ؟

ــ يحضر لى شكرى مجلات عربية وإنجليزية ، مثل « . . . . »

فأطلق فاروق ضحكة مستخفة مليئة بالهزء ، ارتجت لها أعماق إيفيت المضعضعة . . بينما استطرد هو : «أحرى بزوجك الفالح أن يحضر لك مجلة أطفال ! أواه من رجال الشرق ، أنا أعرفهم ، يريدون من المرأة أن تقبع خلف جدار سميك من التخلف والتبلد .. زوجك يحضر لك مجلة « . . . . » الله أكبر ! أهذه هى الثقافة ؟ . . لا لا ياسيدتى ، يعز على مثقف مثلى أن يرى سيدة رائعة مثلك ولا يساعدها. أعوذ بالله . زوجك هذا ـ أقصد كل الأزواج ، كل الرجال فى الشرق ، يتعمدون إبقاء عقولكن مغلقة على ما فيها من رواسب الماضى البغيض !» .. وأخذ ينقر المنضدة مفكراً : « اسمعى ، سأبدأ تثقيفك بنفسى : سأعطيك كتباً تغير مفاهيمك للحياة . تفتح عينيك على حقائق ما زالت مجهولة بالنسبة لك . أنا قرأت ودرست وجربت.. لا تسأليني غن خبرتى فى الحياة ، فأنا لا أحب الكلام عن نفسى ، كما أننى لا أحب الغرور ـ برغم أنه يحق لى أن أغتر ! فقد منحتنى الحياة الكثير : مال ووجاهة وأصل طيب ، ولا تنسى والدى النائب فى البرلمان ، ثم العلم الذى أصبح الإنسان لا يساوى بدونه شيئاً . لقد نلت الماجستير فى ثمانى سنوات ، تصورى ، ثمانى سنوات فقط . لا تتعجبى كثيراً ، فقد كنت من الطلبة المبرزين طيلة عمرى . كما أننى جيد التربية ، تستطيعين أن تقولى إنى جنتلمان راق . ولكن ما لنا ولهذا الحديث ، أنا لا أحب الكلام عن نفسى وإنما أحب المساعدة ، أنا لا أترك يداً ممدودة دون أن أمارس واجبى المقدس كمثقف وكصاحب مسئولية اجتماعية ووطنية . وأنا كصديق ودود ، عفيف النفس شريف المقاصد ، لن أبقيك على ما أنت عليه . حرام . . حرام ! » .

وأمسك بيدها يشدها : « تعالى ، سأعطيك كتباً تنمى مداركك » . .

* * *

ومشت معه نحو الرفوف ، وأخذ يقلب الكتب وهو يهمهم ويدندن : هذا كتاب سخيف ، وذاك كتاب جاف ، وهذا كاتب تافه . همنجواى غير صادق ، وشتاينبك سوقى ، وديكنز موضة قديمة ، وجين أُوستين باردة ، وشارلوت برونتى لها رومانتيكية المراهقات .. ثم التفت إليها وقال : « هل قرأت لألبرتو موراڤيا ؟ لا ؟ غريب ! ! أهناك إنسان ذكى مثقف لم يقرأ "امرأة من روما" ؟ » . وأخذ يهز رأسه بإشفاق : « أنا لا ألومك أنت ، وإنما ألوم زوجك الذى يحكم عليك بالبقاء وراء سور من التخلف والجهالة . اسمعى : خذى هذا الكتاب ، اسمه « السأم » ، إنه رائعة موراڤيا التاريخية ، سيجعلك تهيمين فى أجواء لن يفسرها لك غيرى . دراستى لعلم النفس تساعدنى على فهم الكتب العميقة كهذا الكتاب . . وهذا أيضاً : فيلسوف إنجلترا اللامع « د . ه. لورنس » . لقد بذ "كارلايل" نفسه ! » . أما من هو لورنس ، ومن هو كارلايل ، فتلك أسماء ارتجفت لها أعماق إيڤيت ! وحيرتها أمام هذه الأسماء جعلته يزداد انتفاخاً وكبرياء ، فيستطرد : « خذى هذا ، تحفة لورنس الخالدة ، كتاب أقام الدنيا وأقعدها : محاكمات وتحقيقات ، ومصادرة . . والكثير الكثير من المشاكل واجهت هذا الكتاب ، أتعرفين لماذا ؟ لأنه يحتوى الكثير من الأفكار المتحررة — وما كان الحكم فى بريطانيا يسمح بذلك ! — هئ ، يظنون أن الكتاب صودر وحوكم لأنه يحتوى بعض المشاهد التى نمارسها فى حياتنا يومياً ، خذيه واقرأيه » ، وناولها كتاباً بالإنجليزية عنوانه « عشيق ليدى تشاترلى » . ثم قال وهو يقترب منها كثيراً : « إذا احتجت لأى شىء اسألينى ، أى سؤال يخطر ببالك ، ما عليك سوى أن تلمحى لى به ، وأنا سأجيبك بكل ترحاب ، فأنت صديقتى ، وأنا صديقك ، وأنا

أعتز بصداقتنا هذه » .

وكانت هى تقف وراء الرفوف المتعاكسة ، بعيداً عن العيون .. بعيداً عن زوجها ، والناس ، والمجتمع ، وفى يدها كتابان هما تحفتا العصر اللتان ستقلبان مفاهيمها الخام ، ستعطيانها ما هى بحاجة إليه من اتساع وتفهم وعمق . كان فى يدها « السأم » و« عشيق ليدى تشاترلى» .. ومضى فاروق يواصل البحث بين الكتب . انحنى ،جلس القرفصاء ، وهو يعبث بين المجلدات ، وهى تنظر إليه برهبة وتوجس ولهفة ، فقد كانت سترته الجوخ ،بتربيعاتها البيضاء والسوداء ، ورائحة تبغ الغليون التى تنبعث منه . ورباط عنقه الجميل ، ثم شعره المقصوص حديثاً بأناقة . كان كل ذلك يثير فى مخيلتها حكايات وحكايات عن الحب ، وساحات رقص مضاءة بشموع خافتة ، ومدفأة تدفئة جيدة . . والنوم على أسرة مغطاة بأقمشة وردية ، وبجانب السرير منضدة عليها نبيذ ، وعطر ، وغليون ! . . وقال وهو ما زال مطأطئاً :

– انظرى هذا المجلد .

وطبعاً لكى تنظر ، كان عليها أن تنحنى مثله ، وأن تجلس القرفصاء بجواره. وارتفع ثوبها عن فخذين رائعين أخذ يتأملهما بانشداه ! وأمسك بالمجلد ، وضعه على ساقه وقال مشيراً لصورة فيه : « هذا مجلد عن « بوتتشلى » ، أترين هاتيك العذارى الفاتنات ! كل واحدة منهن تمثل فصلا من فصول السنة الأربعة . ثم هذه . . » ، وقلب الصفحة فظهرت صورة ملونة لامرأة عارية ،تقف على صدفة ضخمة فى البحر ، ووجه يمثل إله الريح ينفخ على أمواج البحر . . وقال مهمهماً : « أتكهن بأن لك جسما كهذا ! » . . وأخذت هى تلهث بصمت . . «أليس لذيذاً أن تحس المرأة بأنها موضع إعجاب رجل وسيم أنيق مثقف كهذا ! » .. وكان رأسه يقترب منها .. كانت هى تعرف هذا ، لكنها ادعت النقيض . وكان أن أصبح وجهه أقرب من أن تستمر فى

إنكار وجوده . ونظرت إليه . وكان ينظر إليها كما لو كان مشدوها بفعل مفاجآت القدر الغريبة التى جمعتهما — يا سبحان الله — هكذا ، مصادفة ، بعيداً عن العيون ، خلف رفوف الكتب ، جالسين القرفصاء ، ورداؤها مرفوع حتى منتصف فخذيها . . وأخذت هى ترتجف ، أصبح وجهها بلون القرمز ، وأعماقها المتلمظة تهتف : « كم هو لذيذ أن نحب . كم هو لذيذ أن أجد من يفهمنى ! » .

واقترب بشفتيه من خدها ، ومسه بنعومة فائقة . . فأخذت تتمتم : «أنا خائفة .. خائفة ! » . . وهمس فى أذنها وهو يدغدغ شحمة أذنها بفمه : « تخافين منى أنا ؟ منى أنا ؟ ! » . . واستيقظت فجأة لتتذكر من هى وما تفعله ، فهتفت بفزع : « لا ، أرجوك . اتركنى » ووقفت ، ووقف قبالتها بعد أن وضع المجلد من يده . وكانت نظراتهما ما تزال مشدودة ، وأنفاسهما تلهث ، وأعصابهما مترترة . . ومد يده ، وشدها إلى صدره بنعومة . . فانهارت ، وأخذت تبكى ، وهى تدفن رأسها فى صدره . وأخذ يقبل عنقها وأذنها . . ووجهها . . وشفتيها . . وهى تغمغم بانفعال : « حبيبى . . حبيبى . . » وأخذ يضغطها إليه ، وهى تغوص . . تغوص . . تغوص . . وشعرت بنفسها سمكة ملونة صغيرة فى وعاء بلورى ملىء بماء دافئ . . دافئ . . دافئ . . وصوت يغمغم : « كم أنت دافئة . . كم أنت شهية . . يجب أن أراك فى غير هذا المكان . . عدينى يا حبيبتى بألا تتركينى ! » .. فقالت وهى تنشج : «أنت حياتى .. فكيف أتركك ؟ ! » وأخذ يضغطها وهو يهمس : « أنا أعرف أنك متعطشة للحب ، وسأرويك ! » . . وكانت هى تفكر بسذاجة : « لم لا أشعر هكذا مع شكرى ؟ إذن فهذا هو حبيبى ، لا ذاك ! » .

وارتفع صوت « نسرين » يخاطب زبوناً من بعيد ، فقال فاروق مجفلا : « ابتعدى من هنا . . هيا ابتعدى ! » ، فمشت مبتعدة ، واتجهت نحو باب قاعة السينما ، دون أن تدع مجالا لأحد أن يراها .

وعندما خرج فاروق من وراء الرفوف ، قال لنسرين بهدوء من كان غارقاً فى دائرة معارف : « ألا زال بشار مع أختك؟ » ، فأجابت : « نعم ، ما زالا فى حجرة المكتب » . فقال وهو يتأملها : « تليق بك هذه القبعة » .
— تليق بك أكثر ، ألست أكثر وسامة من عمر الشريف ؟
ضحك بانطلاق عصفور برىء ، ومشى متجهاً نحو المكتب . .

٨

أصبح موضوع بشار وسهى موضوع الساعة ، ومشكلة المجموعة كلها . بشار لم يدع أحداً لم يستشره ويوسطه ، وفاروق محامى بشار المفوض ، هو الآخر لم يدع أحداً إلا وناقش الموضوع معه. سميرة رفضت التدخل فيما لا يعنيها ، سامية قالت إن الموضوع خاص جداً ولا يعنى إلا صاحبيه . عبدالرحمن قال إن لسهى ظروفاً خاصة عليهم احترامها ، لكن ذلك لم يثن فاروق عن انتهاز كل فرصة للخوض فى الموضوع ، فزميله مغرم لدرجة الذوبان ، وسهى لا تبدو أقل منه ولهاً ، وكل شىء سهل المنال ، فما المانع ؟ سهى قالت لبشار إنها من طينة تختلف عن طينته . وبعد بحث وتنقيب فى مقالات قديمة عنها تبين أنها من عائلة فقيرة مغمورة الشأن ، والدها سكير يدمن الخمر ويدمن ضرب أمها ليلا ، فهل هذا هو السبب ؟

أهى خائفة من الزواج لأن زواج أمها كان السبب فى إحداث شرخ فى نفسيتها ؟ أهى خائفة من التعرض لما تعرضت له والدتها ؟ إن كان هذا هو السبب ، فما من داع للقلق . أما إن كانت تحاول الظهور بمظهر الرسامة الشهيرة التى تفوق الناس العاديين بطولة ، فذاك موضوع يستحق الدراسة ، وتستحق سهى بعد ذلك صفعة على مؤخرتها ، فهى ليست أكثر من ابنة سكير حقير ! هذا ما فكر فيه فاروق ، وقرر كشف اللثام عن القصة التى أصبحت أكثر إثارة من أى موضوع آخر ، إلا إيڤيت طبعا !

وأخذ يتحين الفرصة المناسبة ليناقش الموضوع بشكل جماعى. كان يريد أن يمثل أحد أدواره البطولية التى يظهر فيها كإنسان متفوق. وفى مثل هذه المجالات ، وحين تكتسب الموضوعات حساسية معينة وتصبح مثيرة لكل انتباه ، تصبح لذكائه قيمة وفعالية . وهو عدا أنه شاب وسيم — ولا شك فى هذا ، بعد أن اختبرت وسامته فى مختبرات التجربة عدة مرات ، وكانت النتيجة إيجابية ولا ريب — فهو يريد أن يثبت أنه قادر على حل الأزمات بقوة شخصيته ، وهاهوذا يستعد لإدخال ثقافته وذكائه معركة منافسة وتحد ضد العوائق التى تحول دون هذا الزواج. وقد كان من الممكن أن يظهر نفس الحماسة تجاه أى موضوع طلاق لو استعين به فيه ، فالقضية ليست قضية حماسة من أجل الجمع بين الناس أو تفرقتهم ، بقدر ما هى عملية استعراض لمواهبه المتألقة !

وكانت ليلة هادئة . لم يبق إلا يوم واحد وينتهى المعرض . وكان الجو قد أصبح أقل مرحاً عن ذى قبل : شكرى وإيفيت فى خصام دائم . سهى وبشار ما عادا فرحين كذى قبل ، هى تريد حباً وهو يريد زواجاً . سامية وعبدالرحمن فى عملية المراقبة المستترة . نسرين ترقب الجو بحذر . وسميرة التى تسلمت رسالة من ابن عمها ، خطيبها ، الذى يتخصص فى طب الأطفال فى إنجلترا ، منزوية مع رسالتها. وفاروق يتربص لأخذ موعد « جاد » من إيفيت . وللخوض فى قصة الموسم ، قصة سهى وبشار !

وكان شكرى يعزف ألحاناً حزينة مملة ، وكل يمضغ أحزانه ومشاكله. وقال فاروق كمحام يفتتح الجلسة : « لم يبق إلا يوم غد وينتهى المعرض ، وبهذا يكون قد انتهى أول نشاط قدمه نادينا هذا ، فما رأيكم ؟ هل كان المعرض ناجحا ؟ » . فتوقف شكرى عن العزف ، واقترب من المجموعة الملتفة حول المائدة الطويلة ، وجلس قرب زوجته الحردة . وقالت سميرة وهى تخبئ رسالتها فى حقيبتها ، وتدخل فى النقاش فى محاولة لخلق جو مرح : « من رأيى أن نبدأ بالتفكير فى النشاط الذى نزمع القيام به بعد المعرض ،

فما رأى الأستاذ عبد الرحمن ؟ » . قال عبدالرحمن بفتور : « هذا يتوقف على رغبتكم أنتم » . قالت سميرة مجاملة : « كيف ! لقد اتخذناك رئيس شرف لهذا النادى ، ويجب أن تدلى بدلوك فيه » . قال عبد الرحمن بابتسامة كئيبة : « من الأفضل أن تبقونى بعيداً عن الموضوع ، وإلا حدث مالا تحمد عقباه » . قالت سميرة بابتسام : « تقصد الشمع الأحمر؟ » . قال وهو يهز رأسه بفتور : « شىء من هذا القبيل ! » . . فقال فاروق : « من رأيى ألا يتخذ نادينا صفة ثقافية فقط ، بل واجتماعية كذلك ، أى أن ندعو للمحاضرات التى تختص بالمشاكل الاجتماعية ، كالزواج والطلاق والحب والجنس وتحديد النسل وما إلى ذلك ». قالت سميرة مؤيدة : « فعلا ، نحن بحاجة لهذه النشاطات » . قال فاروق : « مجتمعنا العفن هذا ملىء بالأدران الخبيثة والأورام المتأصلة ، وعلى المثقفين أن يبدءوا بشد العزائم لخوض معركة ضد التخلف والجهالة قبل البدء فى أى شىء آخر . نحن بحاجة ماسة لنهضة عصرية تضم المجتمع كله ، بمختلف طبقاته ، بمختلف عناصره ، بنسائه ورجاله ومثقفيه ، وعماله وفلاحيه . . » قالت سميرة محبذة : « هذه أفكار ممتازة ، فيجب ألا يقتصر نادينا هذا على الطبقة المثقفة فقط ، يجب أن يكون للجميع ، فهذا عصر اشتراكية لا عصر احتكار » . . قال فاروق بامتعاض خفى : « يبدو أن الآنسة سميرة قد فهمتنى خطأ . فأنا حين قلت نهضة عصرية تشمل فئات الشعب لم أقصد أن النهضة ستكون منبعثة من نادينا المتواضع هذا ، بل من كل مكان . من كل شارع . من كل بيت ، من كل حانوت . ولن يكون نادينا هذا هو المكان لإجراء تجارب النهضة ، لأسباب عديدة ، أهمها أن هذا المكان قد وجد من أجل المثقفين فقط . » . . قالت سميرة معارضة : « على المثقفين ألا يظلوا قابعين فى بروجهم العاجية بعيداً عن الشعب ومآسيه ، عليهم أن ينزلوا من عليائهم ويندمجوا فى الأوساط المختلفة ، فى البيئات المتخلفة ، فى كافة الأجواء المريضة والسليمة ، لكى يكون الارتباط

وثيقاً بين القائد والجندى ، بين المخطط والمنفذ ، بين الهادى والمهتدى» .
قال فاروق مناقضاً : «ولكن لا بد للرئاسة من مكان يخصها» .
— ومن الذى حال دون ذلك ؟ ها نحن نجلس الآن نناقش ونخطط ونحلم ونفكر ، فهل منعك فرد من أفراد هذا الشعب من فعل ذلك ؟

قال ببرود مصطنع : «وجود أشخاص لا ينتمون إلى طبقتنا سيكون كالنغم النشاز فى مقطوعة موسيقية جيدة !» . قالت بعجب : «ولكن ما هى طبقتنا ، ومن هى طبقتنا ؟ »

— المثقفون طبعا .

— تقصد الطليعة ؟

— بالضبط ، الطليعة .

— حسناً يا أخ فاروق ، فطالما أنك تعتبرنا طليعة هذه الأمة ، فعلينا أن نأتى بهم إلينا إذا كان من المتعذر أن نذهب إليهم ، وهذا أضعف الإيمان . يجب أن يكون هذا المكان معبداً يؤمه كل المصلين ، وإلا كان فاشل المقصد ، سيئ النوايا .

تساءل وهو يرسم علامة تعجب على وجهه : «سيئ النوايا ؟!» . فأجابته فى حماسة : «نعم ، يؤسفنى أن أقول هذا ، إذ أننا بتخصيص هذا المكان لطبقة معينة كما نسميها ، أو لأفراد معينين ، نعزز مبدأ التفرقة الطبقية ، ولكن منذ متى كان للمثقفين طبقة خاصة بهم ؟ الثقافة كانت أولا وأخيراً من الشعب وإلى الشعب ، حضارة مستقاة لحضارة قادمة ، هذا هو مفهومى عن الثقافة» . وصمتت قليلا ثم قالت مواصلة كلامها : «هناك فقرة قرأتها بهذا الشأن ، وما زالت ذاكرتى تحتفظ بها . يقول أحدهم : «المعرفة والثقافة يفتحان أعين أشد الناس تواضعاً وضاعة ، ويكثران من عدد العقول المفكرة إلى ما لا نهاية» . قال عبدالرحمن موافقا : «هذا قول صحيح ، فالثقافة ينبغى أن تظل فى متناول الجميع» .. وانبرى فاروق مدافعاً عن رأيه : «ولكننا لن نفتح هذا المكان للسوقة وأبناء

الشوارع ! » . قال عبدالرحمن باستهجان : « لمن تفتحه إذن ؟ لسيدات المجتمع ذوات الحلى البراقة ، والأظافر المصقولة ؟ أم لذوى الذقون المعطرة والجيوب المنتفخة ؟ » . فهز فاروق يده ملوحاً بحركة أنيقة : « لا ، لم تفهموا قصدى ، أقصد أن هناك بعض الشباب لا يأتون لمثل هذه النوادى إلا لأسباب معروفة ، وهى تصيد الفتيات والتمحك بهن ! » . . فقالت سميرة وهى ترقبه بنظرة ساحرة : « والمثقفون ، ألا يفعلون هذا ؟ على الأقل عند ما يفعل السوقة هذا ، وبطريقتهم المتواضعة فى الغمز واللمز وترقيص الحواجب ، لا يلامون ! » . . وانطلقت قهقهة طويلة من الجميع ، فواصلت سميرة : « يظل الشاب الذى تسميه سوقيًا : خجولا ، قليل الثقة بنفسه ، متواضعاً ، ترضيه نظرة ، ترضيه كلمة ، أما أصدقاؤنا المثقفون ، فلا أظن أن احتياجاتهم تتوقف عند هذا الحد ! » . فعلقت نسرين بخبث : « وقد يكونون من صنف لا يميل إلى العفة ! » . فاحمرت أذنا فاروق ، لكنه واصل بمزيد من الحذر : « ولكنهم لن يرضوا ، حتى ولو فتحنا الباب على مصراعيه وقلنا لهم « هاكم محاضرة عن فرويد مثلا » ، فلن يأتى أحد! » قالت سميرة : «لم الممانعة إذن فى فتحه طالما لن يجيئوا؟ على الأقل لا يتخذ النادى صفة طبقية » . . قال عبدالرحمن معلقاً : « ولماذا تقولون : « هاكم محاضرة عن فرويد » ؟ أنتم بهذا تبعدونهم قصداً ، تذكرون أسماء غريبة تنفرهم . قل مثلا « هاكم محاضرة عن تعدد الزوجات ، أو السعادة الأسرية ، أو عن الجنس » ، وسنحكم بعدها إن كانوا سيجيئون أم لا ! »

قال فاروق : « ولكن لكل فئة من فئات الشعب مكان تجتمع فيه ، وهذا المكان لنا ، فهل نشاركهم نحن أماكنهم حتى يشاركونا أماكننا ؟ » . قال عبدالرحمن : « هذا هو المطلوب ، أن تشاركهم ويشاركوك . أن تعطيهم ويعطوك : أن تفيد وتستفيد » . قال فاروق ساخراً : « وماذا باستطاعتهم أن يعطونا أو يفيدونا ؟ » . قالت سميرة بغضب : « فلم أسميتنا

بالطليعة إذن ؟ إذا كنت تعتبر نفسك أحد أفراد هذه الطليعة فعليك أن تبدأ بالعطاء . العطاء المجانى . وحتى ذاك الذى تطلب من ورائه مقابلا لن يسمى عطاء . أو مبادلة ، أو مقايضة ، إلا إذا كان له طرفان : أنت وهو ، أى أنت وابن بلدك ، أى أنت وشعبك » .

قال عبدالرحمن مؤيداً : « فعلا ، هذا هو دور المثقف فى المجتمع . ثم ما معنى أن يكون الإنسان مثقفاً ؟ الثقافة بتعريف الفلاسفة ليست العلم ولا الذكاء . . إنها انفتاح العقل والقلب والحواس وكل الملكات ، وليس تقييدها بأساليب أو ارتباطات معينة ، وأنت حين تعتقد بأنك مثقف الآن ، فقد تعتبر جاهلا غداً . ولكن لا بأس . لا أحد ينكر أنك مثقف بمقياس التناسب الشهير ، فأنت بالنسبة لشعبك مثقف ومتعلم ، أى أكثر معرفة وعلماً من أكثرية أفراده ، ولكن قد لا تكون أكثر الناس عطاء وبذلا . وبالعطاء وحده نميز إنساناً على آخر ، وبالبذل نعرف من الأكرم ، ومن الأخلص . أنت تمجد المثقف على اعتبار أنه الأقوى ، وبما أن على الأقوى أن يكون الأحسن ، فعليه أن يكون أكثر احتمالا ، وتواضعاً ، وتضحية . وهنا تكمن الثقافة : أن تعرف نفسك وتنكرها ! »

ثم استطرد عبدالرحمن ، بعد لحظة صمت : « اعذرونى ، ربما أكون قد خلطت بين دور الفنان ودور المثقف ، ولكن ما من فنان غير مثقف ، وإلا ما كان فناناً . وبما أن الفنان هو أكثر الناس حساسية وتحسساً ، وأحملهم للعبء وأصبرهم على الفشل ، وبما أنه فيلسوف يعبر باللحن واللون والكلمة عن مفاهيم قد تسبق روح العصر وأفكار المجتمع ، إذن فهو أكثر الناس تحرراً ، أكثرهم وعياً وعمقاً وانطلاقاً ، فهو متميز بكل مواصفات الثقافة التى بيناها ، وهنا نخرج بنتيجة غريبة ، وهى أن الفرق بين الفنان والمثقف فرق ضئيل ، على اعتبار أن لهما ملامح متشابهة وهدفاً واحداً . فالفنان منتج ، والمثقف متذوق ، هذا فرق تصنيفي فقط ، أما من ناحية المسئوليات فهي واحدة ولا شك ،

فبدون المثقف لن يجد الفنان من يتذوق أعماله ويعيّن مقاصدها وأهدافها ، لن يجد من يحكم عليها أولها ، وهذه تجربة مريرة ، أن ينتج الفنان ولا يجد من يتذوق هذا الإنتاج أو يعبأ به . فوظيفتنا هي كالتالى : أنا أنتج يا أخ فاروق. وأنت تحكم وتقيم ، وبالتالى تنتقد وتتفهم وتتكهن ، وعن طريقك أجد أنا نجاحى ، وعن طريقك يجد الشعب واسطة تترجم له ما لم يستطع الوصول إليه منفرداً . فالمثقف هو الطليعة لأنه الأقوى والأصبر والأحسن . وأنت مثقف ، إذن فأنت مسئول ! »

وكانت سهى حتى تلك اللحظة ترقب الموقف دون الاشتراك فى النقاش ، ولكنها ما كادت تسمع ما قاله عبد الرحمن عن المثقف والفنان حتى انبرت قائلة : « اسمح لى يا أستاذ بأن أسترجع بعض ما قلت . تقول بأن الفرق بين المثقف والفنان إنما هو فرق طفيف ، وأن مسئولياتهما واحدة ! هنا أختلف معك ، فالمنتج هو غير المتذوق . المبدع غير الناقد . والفنان فى نظرى هو أقرب الناس إلى الكمال ، وبذا يكون هو الأقوى وهو الأصبر ، وهو الأحسن . . وليس المثقف ! »

وهنا تدخلت سامية فى المناقشة ، لأول مرة ، قائلة : « لكن الثقافة فن كذلك » . . فقالت سهى بحماسة : « الثقافة شبه فن ، وليست فنّاً قائماً بذاته ، لأنه ليست فيها أصالة ولا إبداع » . . وهنا تساءل بشار : « وما الأصالة ، وكل يقول عن نفسه أصيلا ؟ وما سمات الأصيل ، ومن أين تأتى أصالته ؟ » . فقالت سهى : « الأصالة فى البساطة ، وفى التعبير الصادق الحساس ، وليس كل من ادعى الأصالة أصيلا ، فهى كما يقول « يونج » نبتة طبيعية تنمو تلقائيًّا من الجذر الحيوى للعبقرية . . تنمو ، ولا تصنع . أما الثقافة فتصنع » .

ــ لكن الثقافة تنمو كذلك ، فالثقافة والأصالة شبيهان .

قالت سهى بإصرار : « بل الثقافة تقليد للأصالة ، لأنها لا تحتوى

على روح الإبداع . هى تصنيع ، تصنيع لأفكار مستوردة ، مستوردة من أولئك الذين امتلكوا الأصالة أصلا . وهنا يكمن الفرق بين المثقف والفنان . المثقف ينظر للإنتاج بعين جواهرى خبير ، يعرف الماسة النادرة من الماسة العادية . وهو الذى باستطاعته معرفة ما إذا كانت اللؤلؤة من محارة عذراء لم تمسسها يد إنسان ، أو لؤلؤة مستوردة من مزارع اللؤلؤ فى اليابان ! ... أما الفنان فهو المنجم ، المنجم الذى اقتطعت منه الماسة ، المحارة التى احتوت اللؤلؤة ! » .

وقال عبدالرحمن : « فى الحقيقة أن المثقف كما قلت قبلا واسطة بين الطرفين : بين الفنان المبدع الذى ينتظر الحكم ، وبين الشعب الذى لا يستطيع إدراك مواطن الإبداع إلا عن طريق المثقف . » . . وهنا اندفع بشار يقول ، بإحساس المهان : « إذن فهو «شرابة خرج» ، حسب تعريفكم ! » . فانبرى عبد الرحمن مفنداً ومصححاً : « بل هو القاعدة ، قاعدة البناء ، وكيف يقوم البناء الحضارى بدون قاعدة ؟ » .. فقالت سهى بتأكيد : « أما الفنان فهو البناء ، قمة البناء . » . . فقال فاروق ساخراً : « أى أنكم فى الأعالى ، ونحن فى أسفل السفح ! »

وهنا قالت سهى ، بشىء من الكبرياء : « نحن لم نختر ، هكذا وجدنا ! » . . فقال بغيظ : « ماذا تقصدين بـ «وجدنا» هذه ؟ أتعنين أنكم وجدتم فى القمة ، أم تعنين أننا وجدنا فى القاع ؟ » . قالت سهى بمزيد من الكبرياء : « أنا أقول بأن الفنان هو القمة ، وكفى ! » . . وقالت سامية بصوت عميق : « أى هو الأقوى ؟ » . ورددت سهى بإيمان : « بلا شك ! » . .فقالت سامية ، بصوتها الهادئ الرخيم : « منذ دقائق قرر الأستاذ عبدالرحمن بأن الأقوى هو الأحسن ، والأحسن هو الأكثر عطاء وبذلا ، فهو الأكرم ، والأكرم هو من يعرف قيمة نفسه وينكرها ، أى أن يكون متواضعا . » . . ثم ابتسمت لسهى وتساءلت : « أليس كذلك ؟ » — واختلست نظرة لعبد الرحمن ، وكان

ذاك يرمقها باهتمام — ثم واصلت : « يقول " وردزورث" : « لا فرق بين الشاعر ، أى الفنان ، وبين أى رجل آخر ! » ، فقال عبدالرحمن مقاطعاً ، بأدب : « اسمحى لى يا سيدتى ، أهذا ماقاله فقط ؟ » . . فنظرت إليه نظرة قصيرة ، وقالت وهى تغض ببصرها ، « قال أشياء كثيرة ، هذا أهمها » . . فعقب ، مواجهاً لأول مرة : « أوافقك على أن هذا من أهم ما قاله فى الشاعر ، ولكن يبدو أنك قد نسيت الشطر الآخر من القول . ألم يقل : «لا فرق بين الفنان أو الشاعر وبين أى رجل آخر كجنس . ولكن كمرتبة ؟ »

وأخذ ينظر إليها ، مصراً أن تجيبه مباشرة ، لكنها ابتسمت بلطف وقالت : « أنت أدرى ! » . وقالت سهى : « تستطيعين أن تقولى « أنت الأدرى » لأنك الأقوى ، لأنك الأحسن ، أتعلمين لماذا ؟ لأنه الفنان ! » فقال عبد الرحمن وهو يلتفت إليها باسماً : «لا تؤلهينى !» . وقال فاروق ساخراً : « إنما هى تؤله نفسها من خلال الفنان على اعتبار أنها فنانة » . فقهقهت سهى وقالت : « سبحان الله ما ألعنك ! لقد ضبطتنى ! »

ابتسم فاروق بغيظ ، إذ هى باعترافها أنها ضبطت إنما تقرر وتصر على ألوهية ذاتها ، أى أنها تتفوق على المثقف الذى يمثله هو ، هو بكل إمكانياته ومواهبه ونبوغه ، وهذا ما لن يغفره لها ! وخطر بباله أن يهتف فى وجهها بسخرية : « قليلا من التواضع يا ابنة السكير ! » لكنه لم يقل سوى : « إذن فأنت فى القمة ! » . فقالت بإصرار : « بل فى الطريق إليها » . . فقال ملمحاً : «ولهذا لاترغبين فيمن يحول بينك وبين القمة!». وأخذ ينظر فى اتجاه بشار الذى احمر وجهه خجلاً وغضباً ، فقالت سهى وهى تحدق فى وجه فاروق بغضب من أحس بنواياه : «الحب لا يضع العراقيل فى وجه الفنان ، بل يلهمه» ، وأمسكت بيد بشار تشدها ، فقال فاروق بخبث : « أما الزواج فيضع العراقيل فى وجه الفنان ، أليس كذلك ؟ »

وكان الموقف قد بات حرجاً، والجميع فى انتظار ما ستقوله سهى الغاضبة، لكن تلك أمسكت بزمام أعصابها وقالت : « على اعتبار أنك من المعجبين بـ «د . هـ . لورنس» ومؤيديه ، يسرنى جداً أن أقدم لك فقرة من أقواله : « إن الروح الإنسانية لفى حاجة ملحة للجمال الحقيقى أكثر مما هي بحاجة للخبز نفسه » . أى أن الإنسانية بحاجة للإنتاج الجمالى أكثر من الإنتاج المادى ! » . فقال فاروق متحدياً : « لكن لورنس قال أيضا إن الشيء الوحيد الذى يستطيع الإنسان معرفة نفسه من خلاله هو رغباته ودوافعه » . فقالت بتحد : « أكمل . . أكمل » . فقال بفتور : « هذا ما قاله » .

— بل انه قال بعد ذلك : « ولكن كلا الاثنين ، الرغبة والدافع ، يفضيان إلى تلقائية ميكانيكية ليهويا من الحقيقة التلقائية إلى حقيقة مادية ميتة ، وإن على الثقافة أن تقف حائلا دون هذا السقوط » . وابتسمت بسخرية ، ثم استطردت : « وبما أنك مثقف يا أستاذ ، فعليك أن تقف حائلا دون هذا السقوط ! » . فقال وهو ينظر فى اتجاه بشار ، محاولا إيغار صدره : « أو تسمين الزواج سقوطاً ؟ ! » . فقال عبدالرحمن متدخلا : « فى اعتقادى أن المناقشة الموضوعية يجب أن تبتعد عن روح التحدى والتجريح ! » . فقال فاروق بأدب زائف : « أنا آسف » . وأغلق فمه . لكن سهى عادت وأمسكت بطرف الموضوع : « إن مايربك صديقنا فاروق ليس موضوع الزواج أو عدمه، بل كون الفنان أرقى من المثقف ، أليس كذلك ؟ » ، وأخذت تحدق فى وجهه بسخرية وشماتة . ثم واصلت وهى تتلمظ لإغاظته : « يقول شيللى بأن الفنان هو «الأسعد، الأحسن ، الأحكم ، وأكثر الناس تألقاً » ، أرأيت يا أستاذ فاروق ، أنا لم أجئ بأحكام من عندى ، بل من فلاسفة عظام ، وأظن أن هذا يصدمك . أليس كذلك ؟ » ، وأخذت تقهقه بشماتة ، فتساءل بغيظ : « أى أن الفنان هو الإنسان الأسمى : السوبرمان ؟» . . فقالت ، بإيمان

مبالغ فيه : « هذا هو الواقع ! » ، فى حين واصل هو : «وأنه القمة؟» ، فقالت بإصرار : « فعلا ! » ، فقال بنعومة : « . . ونحن من سكان القاع ! » ، فأخذ الجميع يقهقهون ، وظنت سهى للحظات أنها قد انتصرت عليه وأرضخته وأرغمته على الاعتراف ، لكنه قال وهو يقف فجأة بحركة تمثيلية بارعة ، ويمد يده بأصبع الابهام : « فكيف تنازلت وأحببت واحداً من سكان القاع ؟ » . . فاربد وجه بشار وأخذ يزفر . وعندما حاولت سهى الإمساك بيده رفض ذلك واستدار بوجهه عنها ، وكان السؤال فى انتظار الجواب فتبرع عبد الرحمن بالتدخل لتهدئة الموقف قائلا : « الحب عاطفة سامية ترقى بالإنسان وتلهم الفنان ! » . فقال فاروق شامتاً بلؤم : « ولكنك قررت فى مقالك الأخير عكس ذلك ! » ، فتساءل عبد الرحمن متعجباً : « أنا » ؟

ـ نعم أنت ، قلت بأن الحبيب قد يشغل الفنان بحبه الفردى عن حبه الجماعى للإنسانية ، وقلت بأن الفنان قد يمر بحب يعتصر روحه وقلبه وجمالياته ، فيصبح كرة فارغة ، أو زهرة بدون شذى !

ودون وعى ، التقت عينا عبدالرحمن بعينى سامية ، فأرخت تلك أهدابها باستسلام ، شأن من قبلت حكماً جائراً بصمت ! . . وتساءلت نسرين لأول مرة : « أستاذ! ألم تمر بحب ما ؟ » ، فقال بشرود : « بلى ، مررت بحب فاشل ! » . قالت مستدرجة : « لكنك لم تقدم فناً فاشلا . » ، فقال مفكراً : « لقد توقفت عن الإنتاج مدة طويلة ، عدة أشهر ، وربما سنة أو أكثر ، لم أستطع خلالها رسم لوحة أو كتابة كلمة ! » . وكانت الكلمات تمثل عتاباً مبطناً بالنسبة لسامية ، لكن نسرين واصلت : « وما أول لوحة أنتجتها بعد تلك الفترة ؟ » . قال وابتسامة مريرة تحيط بوجهه : « لحظة حب » ، كانت هى أول لوحة . لقد كانت استغراقاً فى ذكرى رفضت اعتبارها ذكرى . وفى تلك اللوحة عشت لحظة ، بل لحظات وساعات ، مع ملهمتها . كنت أحلم بها ، أتمناها ، أعيش معها ولها!»

٩

وانتقلت عينا سامية نحو اللوحة المعلقة فى مواجهتها ، وتذكرت يوماً بعيداً ، بجانب قرية بعيدة ، والربيع يفرش الأرض بألوان . . ألوان . . ألوان . . وكان ثوبها الأصفر يتطاير مع الهواء،وزهر المرجريت الصغير يضىء العالم بعيونه الصافية المتألقة . فى ذاك اليوم قالت له إنها ترى فى عينيه إشعاعاً ذرياً سيكون السبب فى إحداث « عاهة مستديمة » لديها، إذا استمر فى تسليطه عليها . والتفتت لترى الإشعاع يحيط بها ، يغمرها ، يغرقها ، يغوص فى أعماقها !

وواصل عبد الرحمن وهو يستدير بعينيه ناحية اللوحة : « كنت أرفض الواقع ، كنت أرفض الألم ، كنت أخلق لنفسى واقعاً من وحى فنى ومخيلتى . كنت أرفض واقع المرارة والخيبة ، وعشت فى اللوحة لحظات سعيدة ، لكنها كانت من صنعى أنا، وبفضلى أنا، ولم تكن بفضل الملهمة ! » . . فقالت نسرين : « بل بفضل الملهمة ، فلولا الملهمة ما جاء الوحى! » . . فقال وهو يهز رأسه بمرارة : « وكم تمنيت لو فقدت الوحى ولم أفقد الواقع ، لوفقدت قوة مخيلتى ولم أفقد إثارتها . ولكن ، هذا ما حدث . لقد كان إبداعى أروع من إبداع الطبيعة ، وكانت الصورة أفضل من الأصل ! » .

وأحست سامية بأعماقها تترنح . . كان عبد الرحمن ممن يجيدون توجيه الصفعات المعنوية ! . . وقال شكرى فى محاولة لإرضاء زوجته الحردة : « هذه اللوحة ستكون من نصيبى ، أهى معروضة للبيع ؟ » . وتوقفت أنفاس سامية بانتظار الحكم ! : «هل سيبيعها ؟ هل سيبيعها ؟» . كانت اللوحة تمثلها ، كانت هى . . فهل يبيعها ؟ . . قال عبدالرحمن ببطء : « سأفكر فى الموضوع . » . . « إذن فهو متردد . . والتردد معناه حدوث صراع ما . . ولو ضئيلاً ! » . . وقالت نسرين : « بل سنشتريها للمكتبة . » ، فقالت إيڤيت بنزق : « نحن السباقون ! » .

وقالت نسرين : « عندما تكون اللوحة فى المكتبة ، تكون ملكاً للجميع ، نراها كلنا ، فما رأى الأستاذ ؟ » . قال عبدالرحمن متراجعاً : « وقد لا أبيعها . . سأفكر فى الموضوع . » . . واهتزت أعماق سامية : « لن يبيعها ، لن يبيعنى ! » . . ونظرت إليه بامتنان ، لكنه استدار بعينيه ولم يواجه نظرتها ! . . وتساءلت سميرة : « اعذر فضولى يا أستاذ ، ولكن هل بالإمكان معرفة من كانت ملهمتك ؟ » . لم يجب ، فقالت سميرة بأسف واعتذار : « أنا آسفة . » ، فقال بهدوء : « لا بأس . لقد جرت العادة أن تكون عواطف الفنانين مسرحاً مجانيًّا للجمهور ، ولكنى لا أميل لهذا النوع من الدعاية ، فهناك أشياء تخص الإنسان وحده دون غيره ، وإذا نشرتها الصحف وخاض فى تفاصيلها أهل الصحافة ، أصبحت مضغة ملوثة ، أصبحت مشاعاً ، وفقدت قدسيتها » !

وكانت سامية تتابع حديثه بلهفة «فذكراى ما زالت مقدسة لديه.. ما زالت مقدسة. أعرف أنه لا يقصد كيل أى مديح لى، ولكن كلمته هذه تعتبر نوعاً من المديح، فهو لا يريد لقصتنا أن تصبح مضغة ملوثة، ولا مشاعاً، خوفاً من أن تفقد قدسيتها . ومهما اتخذ من مواقف لا مبالية، إلا أنه ما زال يبالى ، ما زال يبالى ! » . . وقال فاروق : « هذا دليل آخر على أن الحب يمثل عاملا حيويًّا بالنسبة للفنان، عاملا مقدساً كما تقول ، فكيف تحاول إثبات العكس فى مقالك ؟ » . فقالت سهى : « الحب عنصر مثير ، يثير المخيلة ، يثير الحماسة الروحية ، فيزداد إنتاج الفنان ! » . . فتساءل فاروق مصطنعاً البراءة : « أفهم من هذا أنك تحبين الفن ولا تحبين الحبيب ؟ » . . فتساءلت محرجة : « كيف هذا؟».. فأجاب : « أقصد أنك تحبين من أجل زيادة الإنتاج ، كمن يزيّت الآلة ليشحذ طاقتها ! » . . قالت بغضب : « هذا غير صحيح ، فلو كان كل فنان يفعل هذا ، لكان تاجر حب أكثر منه مبدعاً جماليًّا ! » . فقال بسخرية : « وكيف نستطيع نحن سكان القاع التمييز بين تاجر

الحب والمبدع الجمالى ؟ ! » . قالت وهى تصرف بأسنانها : « عندما تستطيع أخذ دورك فى طابور الطليعة المثقفة ، تستطيع أن تعرف ! » . فتساءل وعلى شفتيه ابتسامة خبيثة : « وهل بشار ممن أخذوا مكانهم فى الطابور ، ليعرف ؟ » ، فتساءل بشار بدهشة : « أعرف ماذا ؟ »

— الفرق بين تاجر الحب والمبدع الجمالى .

ولم يجب بشار ، فقد كان فى وضع لا يحسد عليه . فى حين قال فاروق ملمزاً : « جرت العادة فى الشرق — وحتى فى الغرب أيضاً — أن تكون المرأة هى الضحية ! » . . فقالت سهى باندفاع : « أعتقد يا أستاذ أنك تتدخل فى أمور لا تخصك . كما أعتقد أن على المثقف الحقيقى ألا يتلمظ على المشاكل والدسائس ! » . . فتساءل بغضب : « أية دسائس ؟ » . صاحت بحنق : « منذ البداية وأنت تحاول إيجاد ثغرة للنفاذ منها ، تريد أن تعرف لِمَ أمانع فى الزواج من بشار ؟ ! » . . فقال محاولاً الظهور بمظهر الصديق المخلص : «بشار صديقى ، وأنا أحاول مساندته . » . . قالت بغضب : « بشار صديقى أكثر مما هو صديقك ، ثم إنك تحاول مساندته ضد من ؟ ضدى أنا ؟ ثم من الذى طلب مساعدتك ؟ » . فقال مواجهاً بشار : « هو الذى طلب مساعدتى ، هو الذى وسطنى ! » . . فالتفتت سهى إلى بشار وقالت بغضب : « كيف حدث هذا يا بشار ! كنت أظن أن قصتنا إنما هى شىء خاص بنا فقط ! ». فقال فاروق بسخرية : « الفنان ليس ملكًا لنفسه فقط ، « فالسوبرمان » لا يحق له أن يكون ملكًا لنفسه ! » . ولم تجبه سهى ، بل ظلت تحدق فى بشار ، بانتظار جوابه ، لكنه لم يجب ، فواصلت : « ألم تسمع ما قاله الأستاذ عبد الرحمن ، بأن هناك أشياء تخص الإنسان وحده ، وأنها تفقد قدسيتها إذا أصبحت مشاعاً ؟ » . فقالت سامية متدخلة : « أعتقد بأن على الشخصين اللذين تربطهما علاقة عاطفية أن يناقشا مشاكلهما فيما بينهما ، وألا يدعا لأحد مجالا

للتدخل . » ، فقالت سهى باندفاع ، وهى تهب واقفة : « أعتقد بأن هذا عين الصواب ، ولهذا فأنا أستأذن أملا فى أن أناقش الموضوع مع بشار فى مكان آخر . » . . وانسحبت ، بينما تبعها بشار صامتا .

وقالت سميرة : « أعتقد أن السيد فاروق قد أثار إشكالاً نحن فى غنى عنه ! » ، فقال هذا بحقد : « كان لا بد من مساندة بشار ، فهو ضعيف أمامها . لا أدرى كيف سحرته ، إنى لأعجب كيف تستطيع امرأة مهما بلغت من الذكاء والجمال والدهاء ، أن تسيطر على رجل وهى ليست أكثر من امرأة ! » ، فقالت سميرة بدهشة : « ماذا تعنى ب« ليست أكثر من امرأة ؟» هل تعتبر المرأة مخلوقًا ناقصًا ؟ ». فقال بكبرياء ضاحك : « للرجل مثل حظ الأنثيين . » . . وأخذت إيفيت تنظر إليه بدهشة ، متسائلة : « ألم تقل بأن المرأة إنسان له الحق كل الحق فى الحياة مثل الرجل تماماً ؟ » . . وكانت سميرة تهتف شاهقة : « أنت تقول هذا ؟ أنت ؟ »

— وهل ينسى الإنسان دينه ؟

لكنها واصلت باندفاع : « ولم لا تذكر دينك إلا حين يقف فى مصلحتك ! » . . فقال منتفخًا : « بل أذكره فى كل وقت . » . فقالت بسخرية : « ألا تسرق ؟ » . قال بكبرياء : « لا ، لست بحاجة لمال أحد ! » . قالت : « هناك أشياء أخرى غير المال قابلة للسرقة ! » . . وكانت إيفيت تنظر إليهما بقلب خافق وأعصاب متوترة ، فقال فاروق : « لم أسرق ، ولن أسرق ! » . وفكرت إيفيت : « أظنه كاذباً ! » . أما سميرة فسألته : « ألا تكذب ؟ » ، فقال بتحد : « أنا أقل الناس كذبًا ! » . . وفكرت إيفيت : « بل أظنك أكثرهم كذباً ! » . وتساءلت سميرة : « ألا تزنى ؟ » ، فابتسم فاروق وقال ، وهو يتنحنح : « فى الحقيقة هذا سؤال محرج . سبحان الله يا عروبة ! لقد أصبح فيك نساء يطالبن بالحب ويعارضن الزواج ، ويسألن أسئلة محرجة ! »

قالت سميرة : « أجب ولا تهرب ! » ، فقال بكبرياء : « حسن ، فأنا أعترف ، ولكن على اعتبار أنى أمارس الحب لا الزنا ! » . . فقالت سميرة بسخرية : « لا تبطن الكلمات ، فسواء أسميناه زنا ، أو أسميناه ممارسة حب ، فهو الخطيئة الملعونة ! » . . فقال بعجب : « ما هذا الانغلاق ! ألا تعيشين فى هذا العصر؟ ألا تعرفين بأن الجنس أصبح غير ما كانه فى الماضى ؟ لقد اختلفت القيم والمفاهيم ، اختلف معنى الشرف المتعارف عليه ! » . وكانت سميرة تتساءل بمرارة : « أهو معنى الشرف الذى اختلف فقط ؟ ألم يختلف وضع المرأة أيضًا ؟ ألم تصبح عاملاً حيويًّا فى بناء المجتمع وحضارة الأمة ؟ أريد أن أفهم يا حضرة المثقف ، لم اختلف معنى الشرف ولم تختلف أشياء أخرى فى مقابل هذا ؟ » . وكانت إيڤيت تتساءل داخليًّا : « قال لى بأن المرأة إنسان كامل، ألم يقل هذا؟ » فى حين واصلت سميرة سخريتها المريرة: « لقد وقعت فى الفخ يا صاحبى ! ، فلست سوى متدين مزيف يتخذ من دينه حجة وذريعة لكى يصل إلى مصالحه وغاياته . أنت « متدين مصلحة » يا أستاذ ! » . وأخذ الباقون يقهقهون .. فقال فاروق باندفاع غاضب : « مهما قلت ، ومهما فلسفت الأمور ، تظل المرأة هى الأضعف ، والرجل هو الأقوى ، وتظل العاقبة سطحية بالنسبة للرجل ، بينما تكون وخيمة بالنسبة للمرأة ، فعندما يمارس الرجل الحب فهو لا يقدم على جريمة ، أما بالنسبة للمرأة . . ؟ » . . فصاحت سميرة متممة : « فجريمة ! ! » .

وكانت أعماق إيڤيت تتلوى : « أيها الغادر الملون ، فما رأيك فىّ إذن ؟ » . وقال فاروق مجيبًا سميرة : « نعم ، للأسف هذا هو الواقع ، ولهذا فأنا أعجب كيف ترفض « مهى » الزواج وقد جرى ما جرى ! » . . فتساءلت نسرين وهى تحس بأن القضية باتت قضية دفاع عن حق المرأة عمومًا فى الحياة : « وماذا جرى ؟ » . قال بخبث : « أنت أدرى . . » .

قالت مواجهة : « لا ، لا أدرى ، فهلا أفهمتنى ؟ » . قال :

ـ أنت تعرفين بأنهما يمارسان الحب !

قالت غاضبة : « لا ، أنا لا أعرف ، وأنت كذلك لا تعرف ! » . قال ضاحكًا : « هيا ، لنكن صرحاء ، ألا يعرف الجميع بأنهما يمارسان الحب ؟ » . قالت بغيظ : « وكيف عرفت ؟ هل أخبرك بشار؟ »

ـ ذلك واضح وضوح الشمس فى وسط الظهيرة !

قالت سامية : « أظن أن الخوض فى مواضيع كهذه غير لائق ! » . قالت نسرين : « بل من اللائق أن نعرف وجهة نظر الأستاذ فاروق فى المرأة حين تحب رجلا ! » . قال : « أعتقد بأن الحب شىء ، وما نقصده بممارسة الحب شىء آخر ! » . قالت سميرة : « تقصد بالنسبة للمرأة فقط ، أليس كذلك ؟ » . قال موضحًا ، وقد كست البراءة وجهه : « لا تلومونى على عادات المجتمع ، لست مرشد هذه الأمة ! » .

ـ لقد أيدت عادات المجتمع باعتبار أنها رائعة وملائمة ، فأنت ملام لتأييدك ، وعدم إيجابيتك فى التطوير !

تساءل متجهمًا : « تطوير ؟ أى تطوير ؟ وهل أنا المسئول عن ذلك ! » . قالت سميرة : « تظل مسئولا طالما بقيت تعتبر نفسك أحد أفراد الطليعة المثقفة » .

ـ وماذا باستطاعتى أن أفعل فى هذا الخضم من التقاليد والقيود ؟

ـ على الأقل أن تكون أقل تزمتًا وأكثر عدالة !

ـ أى تزمت ، وأية عدالة !

ـ ألا تقف من المرأة موقف الجلاد ، تحرم عليها ما تحلله لنفسك ، وألا تخوض فى تفاصيل قصص الحب التى تراها من حولك . . ثم ألست تطالب بالديموقراطية . . . إلخ .

ـ (مقاطعا) بشرط أن تكون فى صالح المجموع !

قالت بتأكيد : « هذا شىء لم نختلف عليه ، ولكن بما أنك توافق

على مفهوم الديموقراطية ، فعليك أن تراعى حرية الفرد ، طالما أنها لا تمس حرية الآخرين ! » . قال فاروق : « لكن سهى ما عادت ملك نفسها ، هى التى قررت ذلك . وعلى هذا ، يحق لنا أن نضع تصرفاتها تحت المناقشة . » . قال عبدالرحمن بمرارة : « كنت أتمنى لو أن الناس يعبأون بإنتاج الفنان بقدر ما يهتمون بتفاصيل حياته الخاصة . فمثلا نحن نعرف عن تفاصيل حياة سارتر وسيمون أكثر مما نعرف عن أفكارهم ! . . نعرف عن كوكتو وراسكين وبودلير وغيرهم أكثر مما نعرف عن مؤلفاتهم ! . . وأرى أن الحال معكوس بلا مبرر ، فبدلا من أن يوضع إنتاج الفنان تحت المجهر ، أصبحت حياته الخاصة ، وعلاقاته العاطفية والجنسية هى التى توضع تحت المجهر . أليس هذا مثيراً للدهشة والتساؤل ؟ » . قال فاروق : « بصراحة ، بصراحة ، أنا لا أحب نوعية سهى . هذه النوعية الثائرة على كل عرف وتقليد ، فهى ابنة الشرق أولا وأخيراً ! » . وكانت إيڤيت تفكر بمرارة . . : « فماذا تقول عنى أيها المخادع ؟ » . . فى حين قال زوجها شكرى : « فى الحقيقة إن النظريات شىء ، والتطبيق شىء آخر . اعذرونى يا كرام إن قلت لكم بأن على المرأة أن تكون أكثر تحفظاً ، فماذا يحل ببيوتنا لو أن كل امرأة ألقت بحبلها على غاربها ؟ » . فقال فاروق مؤيداً : « فعلا ، ماذا يحل بأولادنا ، ماذا يحل بنسائنا ، ماذا يحل بشرفنا ! ؟ » . . وأخذت دموع إيڤيت تتساقط بصمت . وقال شكرى : « أنا رجل شرقى ولا أحب أموراً كهذه ! » . فقال فاروق بحماسة : « وأنا مثلك يا أخ شكرى . مثلك تماماً . » . . فقال شكرى مستطرداً : « ولا أحب العبث بالشرف والمقدسات . » . ، فقال فاروق موافقاً ، وبحماسة تتزايد : « بالضبط ، هذا ما كنت أريد قوله . وبصراحة ، لو كنت مكان بشار ، للفظتها لفظ النواة ، فكيف يتزوج بفتاة شبع منها ! » . فصاحت سامية لأول مرة : « كفى . . كفى . . ما هذا ! ؟ » . وهتفت إيڤيت

بقلب يحتضر : « أرجوكم . . أرجوكم ! » . . والتفت شكرى ليرى وجه زوجته غارقًا فى الدمع ، فتساءل بدهشة واستنكار : « ما بك ! أهذا وقت دموعك ! ؟ » . ولكزها بمرفقه خلسة ، وقال هامسًا : « لا تجعلينا سخرية أمام الناس ، اسكتى ! » . فصاحت غير آبهة به : « بل اسكت أنت ! » . ثم التفتت إلى فاروق صائحة : « وأنت اسكت.. أنت اسكت. . يا أكبر كذاب ولدته امرأة . أغلق فمك ، أغلقه حالا ! » .

. . وأخذ الجميع ينظرون إليها بدهشة . . فى حين قالت سامية وهى تحاول تمالك أعصابها : « إن ما حدث لهو فوق قدرتى على الاحتمال. أنا لا أسمح لأحد بنهش الآخرين أمامى ! . . أبداً ، أبداً ، هذا منتهى الجبن والابتذال . أهذه هى مجتمعات الثقافة فى هذه البلاد ؟ نهش وتحد وتجريح ! ثم تلك الفتاة ، تدينونها كما لو كنتم أنبياء مطهرين ، لماذا ؟ من أنتم وكيف عرفتم وتأكدتم مما فعلته ؟ ثم على افتراض أنها فعلت ما يحلو لها ، هى حرة . وذاك التهجم على المرأة عمومًا ، إنه شىء مهين ، مهين .فأين الثقافة يا أدعياء الثقافة؟ أنا واثقة بأن الواحد منكم عندما يختلى بفتاة ساذجة يشتهيها يأخذ فى حشو رأسها بما لذ وطاب عن حرية المرأة ، وعن كيانها ، وثورتها ، وحقوقها . . وعند ما ينال ما يريد ، يقول بصلافة ووقاحة « لن أتزوج من فتاة شبعت منها ! »

فصاحت إيڤيت : « ويقولون أكثر . . يقولون أكثر ! » ، فلكزها شكرى ، لكنها صاحت ثانية : « اسكت . . ابتعد عنى . . لا تكلمنى لا تلمسنى ! » . وكان فاروق يحدجها خلسة بقلق ، فماذا لو زل لسانها وفضحت ما فعلاه ! فهى غبية وسطحية وهوجاء ، وزوجها عريض المنكبين قوى الساعدين ، وممن يعتدون بالشرف ! . . ولم يلبث شكرى أن قال فى شبه اعتذار : « إيڤيت سريعة الانفعال ، هذه عادتها ، تبكى لأتفه الأسباب ! » فقالت سميرة : كنت أود أن أفعل مثلها ، لكن دموعى لم تطاوعنى » . وقالت نسرين : « أما أنا فميولى أكثر

عنفاً ، فبدلا من البكاء كنت أود أن أصفع من يهينني ويعاملني بشكل مذل ! » . فقال شكري بدهشة : « ما من أحد أهانك يا آنسة نسرين ، فأنت فتاة محترمة » . ، لكنها صاحت بثورة : « بل أنا غير محترمة ، ولا أريد أن أكون محترمة في نظركم ، لأنكم لن تحترموني حتى ولو كنت البتول نفسها ، يكفي أني امرأة لأكون إنساناً ناقصاً ! » فقال عبد الرحمن مهدئاً : « ما كان ذلك لائقاً يا سيد فاروق ، من غير اللائق فعلا نهش الأعراض ، أنا أمقت هذا ! » . فقال شكري ببلادة : « نحن لم نأت بجديد ، هذه هي الوقائع ، والواقع مر » . فقال عبد الرحمن : « بل أنتم تزيدون من مرارته » . وأخذ يقول كلاماً لطيفاً عن المرأة ، محاولا استرضاء المجموعة النسائية الغاضبة . لكن إيفيت المفجوعة استمرت في البكاء دون توقف ، فاضطر زوجها للاعتذار والانسحاب . . وكذلك فعل فاروق . . ولم يبق في القاعة سوى أربعة : عبد الرحمن ، وسامية ، ونسرين ، وسميرة . وعندما حاولت سميرة الاستئذان ، أصرت نسرين على استضافتها لتلك الليلة ، فغداً يوم جمعة ، وهناك الكثير مما تود استشارتها فيه والتحدث عنه ، وهناك موقف فاروق من المرأة المتحررة ، وهناك موقف شكري المتزمت ، ثم ذلك الضعف الذي أبداه بشار أمام استفزازات رفيقه ، والحقيقة التي لا مجال لإنكارها هي أن شخصية سهى أقوى بكثير من شخصية بشار ، فلا عجب إذا رفضت المرأة الزواج من رجل أضعف منها ، ولكن العجيب أن الرجال لا يعترفون بإمكانية تفوق امرأة ما ، وبدلا من احترامها يحاولون تحطيمها ، وهذا جبن ونذالة ، وهذا بالفعل ما كانه موقف فاروق !

ترى أهذا موقف الرجل العربي المثقف عموماً من المرأة المتحررة ؟ إذن فأفكارهم التي غرروا بهن بواسطتها منذ البداية ما كانت سوى طعم يصطادونهن به ! يريدون قضاء أوقات مسلية على حسابهن

ويستخدمون أفكاراً لا تمت لعقليتهم الشرقية بصلة ، ولقد وقعت الطيبات فى الفخ بسهولة . فما صبغة النادى إذن ؟ أهو مكان تنبثق منه الأفكار المتحررة ، أم بؤرة ينام فيها العفن ؟ !

وإيفيت المسكينة كم كانت حساسة . ما كان المظنون أنها ترى فى الإهانات الموجهة لأية امرأة أخرى ، إهانة تنال منها شخصياً . وقد كان موقفها برغم ما فيه من سذاجة ، نبيلا وكريماً . لقد بكت تأثراً وغيظاً من موقف زوجها وفاروق من سهى . بكت غضباً من موقف الرجال عموماً من المرأة ، وقد نعتت فاروق « بالكذب » لأنه افترى على سهى . وباختصار كان موقف إيفيت نبيلا وكان فاروق محتالا فى ثياب المثقفين ، فهل كل المثقفين بهذا الشكل؟ فما يكون موقف نسرين وسميرة إذن ! هل تقاومان ، فى محاولة لإصلاح الاعوجاج ، وبذلك تعرضان سمعتهماللنهش والاستغابة ، أم تتقوقعان كما تفعل فتيات هذه البلاد ، حتى تظلا بعيداً عن الاتهامات والإدانات ؟

وكانت الشابتان قد انزوتا فى ركن بعيد فى القاعة وهما تتساءلان وتتشاوران ، وأخيرا هبتا معاً ، واقتربتا من المائدة المهجورة حيث كان يجلس الجمع المنفرط الذى لم يبق منه إلا سامية وعبد الرحمن . . وقالت نسرين لشقيقتها سامية : « أعطينى مفاتيح الجاراج ، سنمر بمنزل سميرة لنخبرهم بأنها ستقضى ليلتها عندى » . . ثم انصرفت الشابتان .

١٠

ولم يبق فى المكان سوى سامية وعبد الرحمن ، والقاعة متسعة ، دافئة ، مليئة باللوحات والألوان . وقدح ويسكى فى يده ، وسيجارة فى فمها ، والسكون يلف المكان ، فيما عدا صوت الريح العابث آتياً من وراء زجاج النوافذ ، وصوتاً بعيداً لرشات المطر تنقر المزاريب ومدخنة المدفأة الضخمة . ولو كانت الأفكار تسمع ، لسمعت القاعة احتدام الصراع فى النفسيتين المتقابلتين !

وظلت سامية تنتظر أن يقول عبد الرحمن شيئاً . تنتظر ، تنتظر ، وترفع عينيها لتنظر فى وجهه . فترى عينيه تصوبان إليها نظرات فيها حدة وتوجس ! كان يريد من كل قلبه أن يخاطبها كأية امرأة أخرى يجدها أمامه فى مثل هذا الوضع ، كان يريد أن يعتذر لها عما بدر من الرجلين من إساءة ، فهو نفسه لا يقر أفكارهما ، وقد كان يريد أن يناقشها فى موقف فاروق من سهى ، يريد أن يفهمها بأن حملة فاروق كانت بدافع الغيرة أكثر مما هى بدافع المبدأ ! . . وكان يريد أن يواصل ، ويواصل ، ويقول لها بأنه يشعر بالوحدة ، وأنه يتمنى أن يجد امرأة تفهمه كما فهمته هى فى الماضى ، وأنه يود بل يحلم بالاستقرار مع امرأة تمنحه قلبها وروحها وجسدها . امرأة تفتح له الباب مساء ، تتحسس جبينه بحنان حين يهده التعب ، وتواسيه حين يهاجمه النقاد ، وتقول له كل ليلة إنها تجده رجلا مليئاً بالحيوية ، وإنها تعتبره خارقاً . . وإنها تحبه !

. . ولكنه لم يقل سوى : « أتسمحين لى بإحدى سجائرك ؟ » ، ثم نهض من مكانه فتناول سيجارة من علبتها ، ووضع العلبة مكانها ، فتناولتها وسحبت واحدة ، ووقف هو حائراً ، هل يجلس بجوارها ويواصل حديثاً انقطع منذ عشر سنوات ؟ ومعنى هذا أنه سيعاتبها ويلومها ، ويقسو عليها ، وقد يهز كتفيها وهو يصرخ فى وجهها : « لم تركتنى ياخائنة ؟ لم تركتنى يا متوحشة ؟ لقد كنت ملاكى ، كنت العالم كله ، كنت حبيبتى ، أتسمعين ؟ كنت حبيبتى ! » . وعاد يجلس مكانه بشرود ، ونسى أن يعيد قداحتها إلى مكانها ، وظلت هى تنتظر وسيجارتها مطفأة فى فمها ، فى انتظار شعلة ، فى انتظار كلمة : « لم لا يشعل سيجارتى ! هل نسى وجودى ؟ لم لا يقترب ؟ كنت أظنه سيقترب ، فالجو مناسب ، المكان كله مناسب ، وأنا على استعداد لاحتمال أية كلمة جارحة يلقيها فى وجهى ! . إنى أرى

حيرته فى عينيه ، وأرى عناداً كذلك ، وأرى شوقاً يحاول دفنه ، ولكنى لن أسمح له بذلك ، فأنا أريده حيًّا ، متوقداً ، متوهجاً ، كما كان ، وأكثر ! »

وانتبه هو ، فراح يحدث نفسه : « يالى من أبله ! سيجارتها فى فمها ، فى انتظارى ! » . . واقترب ، وطأطأ منحنياً ليشعل سيجارتها ، وكانت يده قريبة من وجهها ، قريبة من فمها . يده الكبيرة ، الحساسة ، الحانية . . قريبة من شفتيها . . وشعلة صغيرة زرقاء تنبعث منها . ورآها تلمس بسبابتها نار الشعلة الصغيرة وهى تنظر فى عينيه بألم ، فأجفل وسحب القداحة بسرعة وصرخ : « لم فعلت ذلك ؟ ؟ ! »

وكانت دموعها تسيل ، وإصبعها الملسوعة ما زالت ممدودة . . فجلس بجوارها ينظر فى وجهها ، فى دموعها الحزينة ، وكان منفعلا . وقال بصوت جاف : « أرينى إصبعك » . ، وأمسك بها ، ورأى علامة حمراء فى وسطها ، وكانت الإصبع رقيقة ، ناعمة ، لها ظفر نظيف مطلى بلون باهت ، وكانت إصبعها ترتجف كما لو كانت تطلب النجدة . فأمسك بالإصبع يحتضنها فى كفه ، وهو يتمتم بدون وعى : « هل تؤلمك ؟ » ، ونظر فى عينيها الحزينتين ، وكيانه كله فى حالة تحفز ، ونسى كل شىء . نسى عشر سنوات من الضياع والعذاب والألم ، نسى غدرها ، نسى خيانتها ، نسى الحواجز التى أقامها الزمن بينه وبينها ، ولم يذكر سوى الإصبع الرقيقة الحساسة المرتجفة التى تطلب رحمته ونجدته . وهتف بإشفاق : « لم فعلت ذلك ؟ ! »

وكان فى صوته حنان ، فازدادت دموعها انهماراً . وعاد يسأل بإشفاق : « هل تؤلمك ؟ » . ولم تجبه . كانت تبادله النظر فقط ، وفى عينيها أوجاع العالم كله . وهو رجل حساس ، ودموع المرأة تثير حنانه وشفقته ورحمته ، والنظرة الحزينة العميقة من هاتين العينين الرائعتين لها وقع خاص ، فيه رعشة ! . . وهمس وهو يقرب الإصبع من فمه : « سأقبلها . . ولن تؤلمك بعد ذلك » . . فهزت رأسها كطفلة مقتنعة

بأن القبلة فى الإصبع الموجوعة تمنح شفاء ، بينما أدنى هو الإصبع من فمه يقبل العلامة الحمراء . . وعاد ينظر فى عينيها وهو يهمس : « هذه الإصبع ، كانت الآمر الناهى ، كانت إشارة المرور ، وإشارة التوقف . بإشارة منها كنت أركض كالحصان ، وبإشارة منها رقدت ميتاً بدون حياة . وقد كانت قاسية ، فبإشارة منها دفنت وأنا بعد حى ! »

ولم تقل شيئاً ، فقد كانت دموعها تقول كل شىء . . وواصل هامساً : « سامية . . لم فعلت ذلك ؟ »

وكان سؤالا غريباً ، له أكثر من معنى : لم فعلت هذا بإصبعها ؟ أم به ، بخيانتها؟ وواصل الدمع التدفق ، فعاد يردد : « سامية . . لا تبكى . . أجيبى : لم فعلت ذلك » ؟ . . لكنها لم تجب ! . . وكانت إصبعها مازالت فى يده ، قريبة من فمه ، وعاد يلثمها بحنان وهو يتساءل : « ألا زالت تؤلمك ؟ » ، وهزت رأسها كطفلة نالت عقاباً شديداً ، وأحس بنفسه جلاداً قاسياً : فامرأة كهذه ، حساسة ، رقيقة ، مرهفة ، لا تستحق جزاء قاسياً . امرأة جميلة رائعة كهذه ، تستحق الإعجاب والحب فقط . ويدها المرتجفة بين يديه ، لا تستحق ناراً تكويها ، بل قبلة حنوناً فى باطنها . وأخذ يقبل باطن اليد الملسوعة ، واليد تتحسس وجهه بشوق ، بلهفة ، وحنان . ثم سألها وهو يرفع رأسه ثانية وينظر فى عينيها : « لم فعلت ذلك ؟ »

واحتارت بم تجيب ، فتابعت الصمت ، فعاد يكرر بإلحاح : « لم فعلت ذلك بإصبعك ؟ لم ؟ » ، فقالت هامسة : « كنت تعيسة ! » . . فتساءل وهو مازال ممسكاً بيدها يحتضن الإصبع برأفة : « ألأنك تعيسة تحرقين إصبعك ؟ » فقالت بخجل حزين : « وكنت أريد إثارة انتباهك ! »

كان صدقها هو أحد المزايا التى أحبها ، فابتسم بحنان وتساءل : « وهل أفلحت ؟ » . قالت بحذر : « يخيل إلى ذلك »

— أتظنين أن إحراق إصبعك هو الذى أثار اهتمامى؟ لو أننى لا آبه

بك ما كان اهتمامى ليثار ولو أحرقت جسمك كله !

ــ وحتى هذا كنت على استعداد لفعله لو اقتضى الأمر !

ــ إذن فأنت تحبينى !

ولم تجب . . كانت تخاف أن يسخر منها ، ومن حبها ، ومن تاريخها الأسود معه ، ففضلت الصمت ! لكنه قال ملحاً : « أجيبى ، ألا تحبينى ؟ » ، فنظرت إليه بحيرة وخوف وألم ، ولم تجب ! فقال بمزيد من الإلحاح : « قولى . . قوليها ! » . قالت هامسة « أنت تعرف ! »

ــ أعرف ماذا ؟ هيا قولى . . أعرف ماذا ؟ !

قالت وهى ترخى أهدابها باستسلام : « أنت تعرف أنى أحبك . » . . فارتسمت على وجهه ابتسامة مريرة ، وتساءل : « وكيف أعرف ؟ ! هل أنا نبى لأعرف ذلك ؟ هل أعطيتنى إثباتاً ؟ هل أعطيتنى علامة ؟ كيف أعرف بدون دليل !! » . . نعم ، لقد ابتدأ العتاب ، وهذا ما كانت بانتظاره ، هذا ما كانت تخافه ! قال وهو يشد كفها فجأة بعنف ، ويخرج الكلمات من بين أسنانه : « لم تركتنى إذن ؟ لم تركتنى ؟ »

وأخذت دموعها تسيل . فترك يدها ترتمى من يده ، واقترب بوجهه منها ، محاولا الغوص فى أعماقها ، ثم قال وهو يهتز : « لم تركتنى . . ؟ لم خنتنى . . ؟ لم غدرت بى . . ؟ ألم أكن أحبك ؟ ألم تكونى ملاكى ؟ ألم تكونى معبودتى ؟ ألم تكونى ما كنت عليه ؟ »

ولم تجبه ، وكان تدفق الدمع من عينيها يزيد من ألمه وغليانه ، فأمسك بكتفيها يهزهما وصاح : « وأنت . . أحببتنى . . وما زلت تحبينى . . أنا أعرف هذا . أعرف . أعرف ! . رأيت ذلك فى كل حركة من حركاتك : رأيته فى لوحة المرجريت ، وفى زجاج النوافذ . . فى ثوبك الأصفر الهفهاف . . فى خطواتك التى كانت تتبعنى كلما اختفيت ، وفى نظراتك المتلهفة الباحثة كلما اختبأت ! . . رأيته فى أعماق عينيك ، فى حزنك ، وفى دموعك وتهربك . . كنت تحبينى

وما زلت ، فلست امرأة قنوعاً ، يرضيها أى رجل والسلام . . بل كنت بحاجة لرجل خارق ، لإنسان يفوقك ذكاء وقوة وحساسية . . وقد كنت أنا ذلك الرجل : كنت أنا رجلك . كنت أنا معبودك . كنت إنسانك الخارق . فكيف تركتنى ؟ ولم ؟ لم ؟ هيا أجيبى قبل أن أضغط عنقك ! »

وكانت ثورته قد وصلت إلى أبعد حد ، وكانت هى ترتجف بين ذراعيه ، وجفناها المسدلان يرتعشان . وصاح : « كنت أود أن أقتلك ، وددت من صميم قلبى أن أقتلك . ولو كانت الظروف قد ألقت بك إلىّ فى تلك اللحظات ، لما تركت فيك عرقاً ينبض ! كنت أود لو أصفعك ، أدميك صفعاً . وأنشب أسنانى فى عنقك ، وأقصف عظامك عظمة عظمة ! . . كنت أود أن أحرقك . . أن أغمرك بفيض من البترول وأشعل فيك النار ، ولا أتركك إلا وقد صرت رماداً » !

ورفعت أهدابها تتأمل وجهه الحبيب ، بصمت ، فازداد هياجه وصاح : « لا تتخذى هيئة القديسات ! لا تنظرى إلىّ بهذه الطريقة التى تعذبنى . أنت تعرفين إن نظرتك هذه ستضعفنى ، فلا تسلطيها علىّ . وأنا أعرف أنك تضمرين آلاف الأشياء . . وأنك تودين أن تقولى شيئاً معيناً . . فماذا تريدين أن تقولى ؟ ماذا تريدين أن تقولى ؟ » . . فتساءلت هامسة : « كنت تريد أن تقتلنى ؟ » . . فصاح بغضب : « نعم . . نعم . . هذا ما تمنيت ! » . . « وكنت تريد إحراقى ؟ » . . « نعم ، وألف نعم ! » . . فتساءلت وهى تغرس نظراتها فى عينيه : « وأفزعتك لسعة فى إصبعى ! ؟ » . . وأخذا يتبادلان النظر بترقب وتحفز . وقال متمتماً : « مازلت ذكية ! ولكنك لئيمة ، لئيمة ! وخبيثة ، وغادرة متوحشة! ». قالت باستسلام : « نعم » . . « وتقولين نعم؟ ألا تخجلين من ذلك ؟» . . « من ينكر خطيئة ، إنما يرتكب أخرى! »

ــ ومازلت تجيدين الكلام . هيه ، وماذا أيضاً ؟ هيا استعرضى عضلاتك أمامى ، هيا . والآن ، ماذا تريدين منى؟ لم أثرت انتباهى ؟

ماذا تريدين مني ؟

قالت ببطء : « أن تحبني » . صاح بسخرية : « أحبك أنت ؟ أحب بربرية متوحشة ، لها قلب الذئاب وملمس الأفاعي ؟ أنت ؟ أنت ؟ وهل انعدمت النساء لأحبك أنت ؟ ! » . قالت ببطء : « وبرغم هذا فأنت تحبني ! » . صاح : « أنت كاذبة ، فأنا أمقتك ! ألا ترين هذا ؟ ألا ترين أني أكرهك ! » . . قالت هامسة : « لا . . فأنت تحبني » . . « بل أكرهك ، وأتمنى قتلك ، أتمنى ضغط عنقك وإنشاب أسناني فيه ! »

قالت بهدوء : « ولم لا تفعل ؟ » . . وأخذا يتبادلان النظر . . وكان في عينيها حكايات وحكايات عن الحرمان والشوق واللهفة . . وفيضان ، فيضان من الحب . . وترك كتفيها فجأة وأشاح بوجهه عنها وهو يقول ، بندم : « ما كنت أريد أن يحدث ذلك . لم أكن أريد أن أراك ثانية لأبدأ القصة من جديد . كنت أتمنى أن أراك فقط لأعرف لمَ تركتني ؟ ذلك هو ما كنت أتلهف لسماعه : سبب زواجك المفاجئ وخروجك من البلاد ، سبب هجرانك ، سبب خيانتك ! كنت قد وعدتني بدل المرة ألف مرة ، بأنك لن تكوني إلا لي ، وكنت تقسمين بشرفك وشرفي بأنك لن تحبي سواي ، طبعاً كل تلك الحكايات كانت أوهام شباب ! والآن ، وبعد أن أصبحنا كباراً ، وبعد أن داعب الشيب رأسي ، وحفرت الأيام خطوطاً في جبهتي ، وملأت قلبي بألوف المشاكل والمآسي ، أعرف أننا لم نكن سوى عاشقين حالمين . كنا أبعد الناس عن المنطق . كنت تقسمين أنك لن تحبي سواي ، وكنت أصدق هذا . كنا غريرين ، ولكنا برغم هذا كنا سعيدين . . تصوري ، كنت أتوقع منك انتظاري سبع سنوات ، سبع سنوات كاملة ، أخرج بعدها « حطام » فنان . . حطام إنسان . حطام رجل ! تصوري : كنت أتوقع أن أجدك بانتظاري ! ولكن ، وبعد تسعة أشهر ، تسعة

أشهر فقط . كنت فى أحضان رجل آخر ! . . إنما حدث ليس شيئاً غريباً ، وليس ظرفاً قاهراً ، فحكايتنا قد تتكرر كل يوم : رجل يسجن ويترك وراءه امرأة بانتظاره . . وقد تنتظره هى ، وقد لا تنتظر ، ولكنها فى الغالب لا تنتظر . وهذا ما حدث : رجل سجن ، وامرأة لم تنتظر . وما من غرابة فى ذلك ، كان شيئاً عاديا . ولكنى كنت أعتبر قصتنا فوق المستوى العادى ، وكنت أعتبرك إنسانة غير عادية ، وأعتبر نفسى إنساناً خارقا فعلا . . اعذرينى ، فقد صدقتك ! »

وصمت فترة ، كان لا يزال مشيحاً بوجهه عنها . ربما كان فى وجهه عذاب كاسح ، ربما كان فى عينيه ألم ممض ، ربما كانت فى حلقه غصة ملتهبة . كانت هى تتوقع هذا وتتكهن به ! . . وهمست : « عبد الرحمن . . ليتك تعرف » . ! . . فهز رأسه ببطء وتمتم : « لقد عرفت . . عرفت . . وهذا مازاد فى ألمى وتساؤلى ودهشتى ، كنت تعيشين أوهام قصتنا ، تمضغينها ، تجترينها ، تحتسينها قطرة قطرة . شىء غريب ، فماذا كنت تنتظرين ! وبماذا كنت تحلمين ؟ هى أن الظروف لم تجمعنى بأختك . هى أن المعرض لم يقم فى هذه المكتبة ، هى أنى نسيتك ! » . . فهتفت باندفاع : « ولكنك لم تنسنى ! » فالتفت إليها وقال بمرارة : « بلى ، لقد نسيتك . . صدقينى . . فالأيام كفيلة بأن تنسينا أى شىء ، أى شىء ، حتى آلامنا ، حتى أمانينا ، حتى عواطفنا ، كل شىء قابل للنسيان ، فالعالم يدور ، وأيامنا تدور ، وعواطفنا تدور معه . هذه حقيقة جافة وجلفة ، وبعيدة كل البعد عن الرقة والرومانتيكية . . فنحن نحلم بالحب الأبدى والحزن الأبدى والنجاح الأبدى ، ولو كان باستطاعتنا لحلمنا بالإنسان الأبدى . ولكن كيف والموت يذكرنا بضآلتنا وقصورنا ! والموت موجود حتى فى الحياة : نسميه النسيان ، لكنه فى الحقيقة ليس سوى الموت مستتراً فى ثياب النسيان ! وقد نسيتك . كنت قد مت بالنسبة لى ! »

فأخذت دموعها تسيل ، والذل يملأ قلبها ، فواصل : « وأنت أيضاً نسيتنى » . . فصاحت بهلع : « أبداً ، أبداً ، لم أنسك مذ عرفتك . . لقد عشت معى حتى فى غربتى . أى شىء ما كان لينسينى عبد الرحمن ، لا الموت ، ولا النسيان ، ولا أى شىء ! » . . فهز رأسه بتفهم وقال بأسى : « لم أكن بالنسبة لك حباً ، كنت « عقدة » ! » . . فنشجت باكية : « بل كنت حباً ، كنت حبى الأول والأخير ، كنت أسطورتى الأبدية » . . فهز رأسه ثانية ، وقال : « أترين ؟ ألم أقل لك إن الإنسان مازال يبحث عن الأبدية ؟ يحلم بالحب الأبدى ، بالحزن الأبدى ، بالنجاح الأبدى ، ولو كان باستطاعته لحلم بالإنسان الأبدى ، ألم أقل لك ؟ » . . فنشجت بصوت أعلى ، واستطردت : « لكنى لم أنسك ، لم أنسك ، ألا تصدق ؟ »

ــ بلى أصدق ، وما أصدقه هو أنك عشت عقدة وليس حباً . لقد كنت شوكة فى ضميرك ، وقد حاولت التكفير فكان أن أصبحت شوكة فى قلبك ، وهذا ليس حباً !

فصاحت بعنف : « بل كان حباً ، لا تقل هذا ، لا تعذبنى أكثر ! » ، وأخذت تهتز بصمت ، فقال وابتسامة مريرة على شفتيه : « وأنا نسيتك ، هذا طبيعى ومؤكد ، ولكنك عدت واستيقظت من جديد . لقد بعثت ثانية . ربما لو حاولت الاعتذار ، ولو حاولت اجتذابى ، ولو افتعلت مواقف درامية أو أقاصيص ملفقة لأغلقت الباب فى وجهك ولردعتك . ولكن طريقتك تلك ، مراقبتك المستترة ، تهربك من مجالستى . انعزالك وانطوائيتك وكبرياءك وتجاهلك لى . . كل ذلك أثار دهشتى ، والدهشة انقلبت تساؤلا ، والتساؤل بات إلحاحاً ، فملاحقة ، فإيجاد ثغرة فى الجدار الذى أقامه الزمن بينى وبينك ، والذى حاولت تحصينه أنا بلامبالاتى ، وادعائى عدم الاهتمام ! » .

* * *

وكانت تستمع بلهفة ، فقد عاد حنينه ، عاد كما كان ، وهي لن يهمها ما يسميه عبد الرحمن بالموت الحي ، وما يسميه بالنسيان ، ما يهمها هو أنه حاليًا في حالة « حب » ، وهاهوذا يعترف . . وكانت يده مرتمية على ساقه بإعياء ، وكان يبدو متعباً ، حزيناً . . فقالت بخوف : « دعني ألمس يدك . . » ، فالتفت إليها يحدجها بشيء من السخرية والعتاب ، فقالت مدافعة : « أرجوك! . . حتى لو فكرت أن تخرج الآن ولا تعود ثانية أبداً . حتى لو عزمت على ألا تدعني أرى وجهك مرة أخرى ، فلا تفعل ذلك قبل أن تدعني ألمس يدك ! » . . ابتسم بمرارة ، فقالت بصوت عميق حزين : «في تلك الليلة ، ساعة قلت لي إن الدمع لا يمحو الخطأ . . » لكنه قاطعها : « نعم ، أعرف . . أعرف أنك قاسيت ، وأنا كذلك قاسيت. تصوري ، كنت أعتقد بأن ما كنت أفعله هو الشيء الذي أريده وأقصده . ولكني في الصباح ، وعندما لم تحضري للمكتبة ، بدأت عملية الانتظار ، وبعد الظهر لم تحضري ، وانتظرت أكثر ، وكانت الساعات طويلة ، والدقائق جرارة ، ولم أهدأ إلا بعد أن صارحت نفسي بأني مازلت أهتم بك ، وأني أتشوق لرؤيتك ، وأني أرتاح للمجالس التي تحتويك ، بل إني ما عدت أعبأ بجلسة تخلو منك ! »

وأحس بيدها تمسك بيده ترفعها . وقالت وهي تتحسسها بخدها : « ساعة قلت لي إن الدمع لا يمحو الخطأ ، كنت أتخيل يدك هذه على فمي ، وأني أقبلها ، وأني أعتذر لها وأطلب منها الصفح ، وأدللها ، وأعانقها ! » . . وكانت كلماتها دافئة ، رقيقة ، صادقة ، فيها حنان عميق ، فيها ثقة بما تعنيه . وكان هو يستوعب كل ذلك ، يرتشف تلك الكلمات حرفاً ، حرفاً ، يشرب معانيها ، يحتسي نكهتها ! . . وواصلت : « كنت أحلم بأن أقول لك — وأنا ألقي برأسي على ركبتك — إني خنت نفسي أكثر مما خنتك . وإني منذ بعدت عنك بعدت عن ذاتي ، فكل الأشياء باتت تافهة . الألوان كالحة ، الطبيعة ما عادت

جميلة ، وأنا كذلك ما عدت جميلة . كنت أحلم بأن أقول لك هذا يوماً ، وأن أقنعك بصدقى ، وأن تصدقنى أنت ، فهل تصدقنى ؟ » .

قال بشرود : « لا أدرى ، فأنت غريبة الأطوار ! عندما أحببتك كنت أظن أنى أعرف جزئياتك ، تفاصيلك ، حذافيرك. أما الآن فأنا لا أعرف عنك سوى أنك الإنسانة التى أحببتها منذ عشر سنوات ثم نسيتها . الإنسانة التى وثقت بها فخانتنى ، والتى كانت لى فامتلكها رجل آخر! أما ما هى الظروف التى دفعت بك للزواج ، وما نوع ذاك الزواج ، ومن هو ذاك الرجل الذى قضيت معه كل تلك المدة ، والذى أنساك عهدك ووعودك . . ثم تلك السنوات العشر من الغربة والضياع . . فإن ذلك كله قد بات يقف حائلا بينى وبينك، جعل منك امرأة غريبة عنى ! اعذرينى ، أنا لاأقصد الإساءة إليك ، لا أقصد الانتقام، ولكنى بالفعل أتساءل عمن أحب ! أهو طيف الفتاة التى عرفتها فى الماضى ، أم هيكل المرأة التى أراها فى حاضرى ؟ . . وهناك فرق بين الواقعين ، فاعذرينى ، لقد بت غريبة . وهناك ألوف الجزئيات التى تفصلك عنى ، وأخاف أن أعدك بكلمات قد أندم عليها فى الصباح . أخاف أن أطمئنك الآن ، وأعود فأكتشف عنك أشياء تفاجئنى ، فأتراجع . . قد أضطر للتراجع ، ولا أريد أن أنكأ جراحك أو أن أجرح كرامتك ، فأنت امرأة رقيقة . . وهجرانى قد يذبحك ، كما ذبحنى هجرانك يوماً ! ولكنى كرجل استطعت الصمود . أترين ؟ لا أريد أن أجعل منك مختبراً لعواطفى ، لا أريد أن أعدك بشىء ، دعى كل شىء للأيام ، قد نلتقى ثانية ، وقد نفترق ، وقد نضيق نحن بذكرياتنا وقصتنا فنمزقها برضانا ورغبتنا . دعينا نكتشف ذلك ، لقد أصبحنا كباراً . وما من داع لأن ننكأ الجراح ونلعب بالعواطف والخيال ، فقد يصدمنا الواقع ! » . ثم قال وهو يلملم شتات نفسه : « والآن ، دعينا نذهب ، فالساعة الآن تقارب الثانية

والنصف بعد منتصف الليل ، وأختك لم تحضر بعد ! » . . فقالت بشرود: « ربما عادت للبيت مباشرة ، أظنها فعلت ذلك » . . فتساءل وهو ينهض : « هل أوصلك ؟ مشياً على الأقدام بالطبع ، فما من سيارة لدى . » ، فتساءلت بقلق : « وتعود مشياً ؟ المسافة بعيدة ! » ابتسم وهز رأسه : « لا بأس ، فأنا أحب المشى ، ترى هل كنت أحب ذلك حينما كنا معاً ؟ » . . وأخذت تتذكر ، فعاد يبتسم : «أترين ؟ لقد نسينا أشياء كثيرة عن أحدنا الآخر ، ويلزمنا بعض الوقت لإعادة الاكتشاف ، ولاستعادة الأنفاس ! »

* * *

كان الليل شديد البرودة ، والضباب يغطى الطرق والمنحنيات ، وسارا معاً تحت أشجار الصنوبر اتقاء لرذاذ المطر . سارا صامتين وكل منهما يجتر ما حدث ، ويتكهن بما ستأتى به الأيام : فهى مازالت غريبة عنه ، وهو مازال حلمها المعبود الذى لن تدعه يفلت ، ولو أفلتت منها الأنفاس ! وقال عبد الرحمن باتزان : « سامية ، نحن ما عدنا صغاراً ، بضع سنوات وأصبح فى الخمسين ، أتعرفين هذا ؟ » . قالت بصوت خافت : « أعرف » . قال وهو يلتفت إليها ويتأملها من خلال الظلمة : « وأنت شارفت الأربعين ! » . . « نعم . . » . . « أعنى أننا لم نعد صغاراً لنستسلم للعواطف ! »

فانبرت مدافعة : « العواطف هى أقدس ما يملكه الإنسان ، فإذا فقدها فقد إنسانيته ، وهى ليست مقصورة على الصغار فقط . هذا كلام غير منطقى وغير مثالى ، وأنت آخر من يتلفظ بكلام كهذا! فما الذى يميز إنساناً عن آخر سوى عواطفه ؟ . . وأنت ما الذى سما بك ورفعك ! أليست عواطفك ؟ ألم تمارس فن الرسم لتحيى مشاعر الناس ؟ ألم تكتب لتوقظ حساسيتهم وأدمغتهم رحمة بهم ؟ ألم تسجن من أجلهم ؟ ألم تتعذب من أجلهم ؟ » .

فقاطعها عبد الرحمن : « أنا لا أقصد العواطف الراسخة . أنا عندما قلت إننا يجب ألا نستسلم للعواطف إنما قصدت ألا ندع الانفعالات العابرة تعبث بنا ! » . . وكانت تفكر بألم . . « يريد أن يقنعني ويقنع نفسه بأن عواطفنا لم تكن سوى انفعالات عابرة ، ولكني لن أقتنع ولو استعار منطق أرسطو نفسه ! » . . ثم قالت بثقة : « لا تحاول إقناعي بأن الانفعالات العابرة لا تؤثر في حياة الفرد ، فمشاعرنا كلها عبارة عن انفعالات عابرة أحسسنا بها في مواقف معينة ، وهذه الانفعالات تتجدد بتجدد المواقف ، ولن تستطيع بصورة من الصور أن تفصل بين الانفعالات العابرة والانفعالات الراسخة . لأن الانفعال العابر هو جزء من كل ، خلية في جسم ، ذرة من كيان . وإذا حاولت الفصل فقد تضطر لاستخدام التفتيت والتكسير والتشويه » .

وكان يرمقها من خلال الظلمة باهتمام ، وقال باسماً : « أما زلت تطالعين كعادتك ! » فتوقفت هي ، وأخذت ترمقه بعجب . . فقال كمن يخاطب نفسه : « السنوات العشر الماضية لم تزدك إلا جاذبية ، وحساسية ، وصبراً ! » . . فقالت بخجل : « كنت أحس بأني قد بدأت أشيخ ! » . . فقهقه بلطف وتساءل : « حقا ؟ لم ألاحظ هذا ! » . قالت بتحد : « ليس الذنب ذنبي إن كنت قليل الملاحظة ! » . قال باسما : « وما زلت تحتفظين بروح النكتة ! » . قالت وهي تستدير إليه وتمسك بساعده تشده : « صدقني بأني دفنت هذه الروح حين افتقدتك » . وكانت في لهجتها حرارة وصدق وخشوع . وكانت تبدو فاتنة ، حارة ، لينة . وفي ليال باردة كهذه ، وفي عمر موحش كهذا ، يحلو للرجل أن يحتضن امرأة دافئة كهذه ! وابتسم خلسة وواصل السير . . فقالت بشرود : « هذا الدرب ، بأشجاره ، وحفر الأسفلت فيه ، وتلك الزيتونة الضخمة الغارقة في الظلمة ، وذلك البيت الصغير المضاء ، بقرميده الأحمر ، هذا

الدرب مشيته ألوف المرات بدونك ، وكنت أراه موحشاً : كئيباً مظلماً حتى فى عز الظهيرة . أما الآن ، فهو شيء آخر ! »

وكانت الأشجار المتلاصقة على جانبي الطريق ترسم ظلالا داكنة على الأرض ، وقد انبثقت من بين فروعها أنوار كهربائية خافتة الإضاءة ، بينما ارتفع القمر الشاحب فى سماء كحْلية الزرقة ، وهو يطل من خلف الغيوم ببخل وتوجس . وقالت : « ألم تشتق لهذه البلاد ؟ » . قال ساخراً : « كنت سأسألك نفس السؤال ! » . وتفادت هى سخريته ، وقالت بإيمان : « هذا مكانى » . فقال مؤكدا : « ومكانى أنا أيضاً ، فما من شيء فى الوجود يهمنى قدر ما أهتم بهذه الأرض وبمن عليها . وقد أسجن قريباً بتهمة هذا الاهتمام ! أترين ؟ أصبح الحب تهمة ، والرحمة جريمة ! أصبح الشرف خسة ، والبذل نذالة ! وقد أسجن قريباً ، إن لم يكن هذا الشهر ، ففى الشهر القادم ! » ، ونظر إليها باسماً : « لا تأملى كثيراً ، أتسمعين ؟ قد أسجن ! » . . وأحست بوخزة فى قلبها ، فهاهوذا يعيرها . وحدثت نفسها : « قل ما يحلو لك ، فأنا صامدة ، صامدة حتى ولو ذهبت بى إلى الجحيم ! » . ثم قالت بخبث : « ليتك تسجن ، لأنتظرك ! » . فقهقه بمرح ، فى حين ابتسمت هى وأمسكت بيده تشد كفه ! واستدار ينظر فى وجهها بألفة : « إذن هكذا ، تتمنين لى السجن ؟ ! » . . « لأثبت لك انى سأنتظرك ! » . . « ولو حكم على بالسجن المؤبد ؟ » . . « ولو مت ! » . . « وقد تتمنين موتى لتثبتى أنك ستنتظرين بعثى ! » . . « جرب ، وسترى . ! »

وأخذا يضحكان . . وعندما وصلت منزلها ، كانت الفيلا الصغيرة مضاءة ، فقد كانت الشابتان فى الانتظار . وقال وهو يمسك بيدها : « أما زالت إصبعك تؤلمك ؟ » . قالت متظاهرة بالألم : « جداً » . ابتسم وقال : « أظنك ستقترحين على معالجتها بطريقتى الخاصة! » . . ولم تجب ، بل أخذت تنظر إليه باسمة . . فهز رأسه بعجب :

« غريب ! لم تتغيرى كثيراً ، مازلت مغرمة باللف والدوران ! »
— لأمنحك فرصة الظهور بمظهر شرلوك هولمز العظيم !
وضحك ، وأمسك بأصبعها يلثمها .

١١

صاح شكرى : « إيفيت ، لا تصرخى هكذا ، ماذا حدث لك ؟ هل جننت ؟ قلت لك ألف مرة لا ترفعى صوتك بهذا الشكل ، أنا لا أطيق هذا ! » . . فصاحت : «ومن قال لك إنى أطيق الحياة كلها ؟ » ، وأخذت تصرخ باكية : « لم لا تأخذنى يارب؟ لم لا تأخذنى؟» . فجلس بجانبها على حافة السرير ، وأمسك كتفها بلطف ، محاولا فهم ما يدور فى نفسها : « أفهمينى ماذا حدث لك ، منذ أكثر من أسبوعين وأنت فى حال لا يصبر عليها إلا الملائكة ، هل أستطيع معرفة السبب ؟ » . صاحت وهى تغطى وجهها : « أنا تعبة . . تعبة . . أريد أن أموت ! » ، فصاح يائساً : « ولكن لماذا ؟ ماذا تريدين ؟ أفهمينى ما الذى يتعبك ؟ الخادمة واستبدلنا بها أخرى كبيرة . والقمصان بتنا نبعث بها للكواء ، والفستان الذى تطلبينه اليوم تنالينه غداً ، فماذا تريدين ؟ هل قصرت معك فى شئ ؟ قولى : هل قصرت فى واجباتى ؟ » فصاحت بهياج : « أنت لا تحبنى ! » .

فغر فاه وأخذ ينظر إليها بعجب وقال : « لا أحبك ؟ وما الذى نقوم به كل ليلة ! ؟ » . ارتمت على الأريكة ، خبأت رأسها فى ساعديها وأخذت تنشج ، فقام عن حافة السرير وجلس على حافة أريكتها وقال : « إيفيت ، كفى عن « الدلع » قليلا ، أرجوك . منذ أسبوعين لم تطبخى لنا أكلة تستحق المضغ ! » ؛ فاستدارت بجسمها عنه بعنف ، وأخذت تشهق وتشهق ، محدثة نفسها : « فاروق . . فاروق . . ذاك النصاب القذر ، كان يعرف كيف يجعل قلبى يرفرف كما لو كانت له أجنحة الحمام ! كان يقول كلاماً يذيب

المفاصل ، أما هذا الرجل فهو لا يقدم لى إلا العلف، يعلفنى كما لو كنت دابة ! . . ويعلف نفسه كخنزير شره ، ويحب ببطنه أكثر مما يحب بقلبه ، ولحبه رائحة الطبيخ! . . وعندما ينام معى إخاله يأكل من طبق طعام « بايت » ، وأنا ذاك الطعام ! » . . وصاحت ثانية : « لم لا تحبنى؟ » . هتف وهو يبسط يديه بيأس، والانقباض والملل يجترانه : « ولكنى أحبك ! »

— لا . . أنت لا تحبنى !

قام واقفاً وقال وهو يذرع الغرفة : « بلى أحبك » . . .قالت وهى تتمخط بعنف ، وتمسح دموعها المنهمرة : « أنت لا تعرف معنى الحب ، أنت لا تعرف كيف تحب ، أنت لا تحبنى ! » .

أخذ يتأملها بدهشة وصاح فجأة : « قلت لك أحبك ، أحبك . . هل أفتح النوافذ والأبواب وأسمع الناس صوتى لتصدقى ؟ هل أشق قميصى القذر هذا — وهو على فكرة قذر ، قميص قذر ، أتسمعين ؟ — قلت هل أشق قميصى القذر وأنا أقول لك « أحبك » حتى يلين قلبك وتصدقينى ؟ » وأخذ يذرع الغرفة بغضب ونفاد صبر ، وعاد يقول : « قميصى هذا قذر ، ومع هذا فأنا أحبك ، والأولاد هزلت أجسامهم من أكل المطاعم ، وبرغم هذا فأنا أحبك . هل صدقت الآن ؟ ولولا حبى لما صبرت على أعمالك وتصرفاتك ، لولا ذلك لما احتملت سخفك وسطحيتك وغباءك . ولو كان أى رجل آخر فى مكانى لشنقك ، لاغتالك ، أما أنا فلا أفعل شيئاً من هذا ، بل أقف هكذا مكتوف اليدين أمام سيدتى وأصيح من أعماق معدتى الفارغة ، وقميصى يقطر حباً وقذارة وأصيح : أحبك ، أحبك . . فهل صدقت ؟ » . . صاحت بألم : « اسكت ! اسكت ! لا أريد حبك . . اذهب إلى الجحيم أنت وحبك وقميصك ومعدتك ! »

مشى فى اتجاه الغرفة ينوى الخروج ، لكنه عاد ووقف قبالتها وهو يضم

كفيه أمامها بابتهال : « حاضر ، حاضر ، سأذهب إلى الجحيم ، ولكن عجبا ، كيف سموا الجحيم جحيماً وإيفيت ما زالت على وجه الأرض ! ! » . هتفت بقلب متوجع : « خذنى يارب ، خذنى ! » ، .. فى حين وقف هو يتأملها بغيظ ، قال : «شدماحيرتنى ! ماذا تريدين منى ؟ أن أحبك أم لا ؟ إن قلت لك إنى لا أحبك لاأرضيك . وإن قلت لك إنى أحبك . لاأرضيك . وإن نمت معك لاأرضيك ، وإن أهملتك ، لا أرضيك . إن اشتريت لك فستانا ، نظرت إليه بقرف وقلت : « لوكان لونه أحمر لكان أجمل » . وأقول لك : « لكنه أحمر » فتقولين : « هذا برتقالى يامصاب بعمى الألوان ، ألاترى ؟! » وأقول : « لونه أحمر كالدم ، وليس كالبرتقال » . فتقولين : « بل برتقالى مودرن . وأنت المخطئ ولست أنا » ، وأسألك حسماً للشر : «فهل أردالفستان؟» فتقولين : « لماذا ؟ أكثير علىّ أن ألبس فستاناً بعشرين ديناراً ؟» .. وهبط على الأريكة المقابلة وزفر : « لا حول ولا قوة إلا بالله ! أشتهى مرة أن أسمع منك كلمة حلوة ، كلمة لطيفة ، كأن تقولى لى : « سلمت يدك » أو : « شكراً » ، أو حتى : « فعلا هذا فستان أحمر ! » .. فأبعدت إيفيت يديها عن وجهها وصاحت : « وحتى الآن مازلت تدعى بأن لون الفستان كان أحمر ؟ أنا أعرف ماذا تقصد من وراء هذا كله ، تقصد أن تظهرنى بمظهر الغبية ، تريد أن تملأنى بعقد النقص ، تريد أن تحط من قيمة ذوقى ومن إرهاف حسى . لكنى لن أعبأ بك ولا بأحكامك ، ثم إننى منذ الآن فصاعداً لا أريد منك أى شىء ، لا تحضر لى أى شىء بيدك ، فأنا سأتولى عملية الشراء بنفسى ! » . قال هادرا : « لكنك تنتقين كل ما تريدين ، وأنا الذى يدفع ! » ، صاحت بغضب شديد : « وستدفع إلى ما لا نهاية ، ولكن لى أنا ، ستعطينى النقود قبل خروجك من المنزل . أم تريد فرض سلطتك علىّ أكثر مما تفعل ؟ . أنا أعرف ماذا تقصد ، تقصد أن تبقينى عالة عليك ، وأن تشعرنى بأنى أتكل

عليك فى كل صغيرة وكبيرة . لا يا سيدى ، فأنا لست بلهاء ، تريدنى أن أبدو ضعيفة الشخصية ، ومعقدة ، وغير مسئولة . . لكنى منذ الآن سأبدأ بنهج جديد . سأنمى شخصيتى بحيث أستطيع الدفاع عن نفسى أمام اضطهادك . وسأقرأ كتباً عظيمة ، وسأدرس الفرنسية ، وسأتعلم البيانو لأنافسك ، وسنرى من فينا الذى يعرف إذا كان لون الفستان أحمر أم برتقالياً ؟ ومن الآن فصاعداً ، لا تشتر لى أية مجلة . سأحضر كتباً ضخمة . . ضخمة ! والآن اغرب عن وجهى ، فأنا لا أطيقك ! اغرب قبل أن أقم القيامة ! » . . فوقف ورفع يديه وقال مبتهلا : « اللهم اشهد بأن هذه المرأة ستكون سبباً فى إصابتى بـ « الجلطة » . ماهذا ؟ ! ماذا فعلت كى تحل بى هذه المصيبة ؟ أهذا هو الزواج ؟ لعن الله أبا كل من تزوج ، ولعن الله أبى قبل الجميع ! » . . فأخذت تنشج بحرقة : « يارب ، أريد أن أموت ! » .

ودخلت الخادمة الجديدة بعد أن نقرت الباب . وكان الجو كئيباً ، فقالت برهبة : « سيدتى ، هناك رجل يريدك ، يقول إن اسمه فاروق » . صاحت إيڤيت : « اطرديه ، اطرديه ! » . . فوقفت الخادمة مشدوهة ، بينما قال لها شكرى : « انتظرى ، لا تذهبى ! » ، وصاحت إيڤيت : «أنا لا أطيقه . لا أريد رؤيته ! » . فقال بجفاف : « إن كنت لا تريدين رؤيته فأنت حرة . أما أنا فأريد رؤيته ، وهل ستمنعينى من رؤية أصدقائى أيضاً ؟ الفستان الأحمر وقلنا عنه برتقاليا ، أما أصدقائى فلونهم أزرق كالعفاريت ، أتعرفين العفاريت الزرق ؟ هاهاها . . فما رأيك ؟ لم يبق إلا أن تمنعينى من رؤية أصدقائى ، لا ياسيدتى ، سأرى « فاروق » و « بشار » وسأرى أى رجل يعجبنى ، هل منعتك من رؤية أحد ؟ » . صاحت : « لكنه نذل ! » .

ــ نذل ؟ لماذا ؟ ألأنه شريف ؟ ألأنه يغار على المبادئ والشرف؟ ألأنه شرقى يفخر بشرقيته ؟

– بل هو كذاب . . كذاب !

– وكيف عرفت أنه كاذب ؟

ولم تجب بل أخذت تنشج . فقال وهو يقترب منها ويطأطئ على رأسها مقبلا شعرها : « وهاك قبلة ، ها ، وماذا تريدين أكثر ؟ هل أقبل يدك ؟ مستعد . أقبل ركبتك ؟ مستعد » . ، وهمس فى أذنها : « وأقبل نهديك أيضاً . . فقط ارحمى أعصابى يابنت الناس » . . فحملقت فى وجهه مشدوهة وقد هزتها الصدمة ، وعادت تنشج : « ياقليل الذوق ، ياعديم الرومانتيكية » . . . وأخذ يضحك وهو يغادر الغرفة ، بينما سبقته الخادمة وهى تخفى ابتسامة خبيثة .

* * *

كان فاروق فى حال لا يحسد عليها ، فقد كان السبب فى إثارة أجواء مشحونة بالتوتر والخلاف : أغضب سهى ، وجسم المشكلات بين العاشقين . أساء للعنصر النسائى بمجموعه ، فأصبحن يلاقينه بالتجهم والامتعاض . ثم هناك إيفيت ، فهو لم يفطن لرد الفعل الذى أحدثه كلامه لديها إلا بعد أن انتهى من الكلام . . وأخذ شكرى يهدئه ويطيب خاطره ، فقد كان موقف فاروق فى نظره رائعاً . . « حمداً لله ، فشكرى مازال يجهل ، وإيفيت ما زالت تملك بقية من عقل ! » . . وتساءل فاروق عما يجب عليهما القيام به لمسح ما خلفاه من انطباعات سيئة فى نفوس الجميع ؟ يدعون الجميع لعشاء راقص ؟ لا ، فسميرة ترفض السهر فى مكان غير المكتبة . أيبعث فاروق برسالة اعتذار لكل واحدة ؟ لا ، فذاك مدعاة للسخرية . أم يبعث بباقة ورد لكل واحدة ؟ لا ، فذاك سيؤكد وجهه نظرهن فيه كمنافق ! وأخيراً تم الاتفاق على دعوة المجموعة إلى نزهة فى الخارج ، يشوون فيها اللحم ويحتسون البيرة ، فأجواء الطعام الجيد تساعد الإنسان على نسيان المتاعب . وسيأخذ فاروق معه كرة ، وسينفخ شكرى بالهارمونيكا أنغاماً مرحة ، وسيكثران

من امتداح سهى ، وسيتركان لها مجالا واسعاً لاستعراض غرورها وتفوقها . . ولكن هل ستنسى الفتيات الإساءة ؟ هذا أكيد ، فالعنصر النسائى ميال لنسيان المشاكل ، وإلا لعم الطلاق كل بيت وكل عائلة !

عندما دخلت إيفيت بجبينها المعقود ، كاد فاروق يركع عند قدميها طالباً الصفح والمغفرة ، فهو ما كان يقصد أن يهين المرأة أبداً ، وهو بالذات من أشد أنصار المرأة حماسة ، وقد كون فى يوم ما جمعية تسمى (جمعية الرفق بالمرأة) . أما لماذا اندثرت هذه الجمعية ، فلأن الناس ما عادوا طيبين ، وما عادوا يرأفون بحال المرأة ، ولا الحيوان ، ولا أية فصيلة أخرى ! وهو لم يكن المسئول عما حدث ، فالويسكى كان قد فعل فعلته الإجرامية ، وسهى المغرورة استفزته بشكل لا يتصوره عقل ! . . « تصورى يا إيفيت ، تلك المتفذلكة تظن أنها أرقى من الناس العاديين ، وحتى من هم فوق العاديين أمثالك ، تصورى ! فى نظرى أنت تساوين عشراً من مثيلاتها ، فهى مغرورة ، ومتكبرة ، ولديها نوع من الخشونة التى يجب ألا تكون إلا لرجل ذى شارب يقف عليه صقران ! كل ذلك لأنها رسمت بضع لوحات تكاد تشبه خربشة الدجاج . وضعت ألواناً على فرشاتها ، وأخذت تكنس بها اللوحة ، وادعت بأن ذلك شىء خارق ، وأنها تكاد تصل إلى مرتبة « سالفادور دالى » ! . . أتعرفين من هى سهى هذه ؟ تصورى كل ذاك الغرور يكمن فى ابنة سكير يدمن الخمر ويدمن ضرب زوجته . بيت والدها خان قذر ، وأمها تشبه النساء اللواتى يغسلن فى مثل بيت والدك العامر . لقد أفهمتك يا إيفيت مرة بأن أبناء الفقر يحقدون على أمثالنا ، تستطيعين تسميتهم « بالمعقدين » ، إنه نوع من المرض ، مرض نفسى ، وأنا فى العادة أعرف كل شىء عن مثل هذه الأمراض ، فقد درست أشياء كثيرة ، وقد درست علم النفس حتى بت لا أعرف نفسى . . أتذكرين أنى قلت لك شيئاً عن موضوع كهذا ؟ . . يقولون إنها جميلة ؟ من قال

هذا ؟ أتجدها جميلة يا شكرى ؟ صديقتى إيفيت . جمال المرأة فى أنوثتها ، فى ليونتها ، فى أصلها وفصلها ، جمال المرأة فى ذكائها ولباقتها ، وهذه أشياء تتمتع بها عزيزتنا إيفيت . وهى أبعد الأشياء عن سهى ، أليس كذلك يا شكرى ؟ »

وطبعاً ، شكرى بانتظار مناسبة كهذه ليريح زوجته من تعبها ، وليريح الله من الاستماع لمطالبة إيفيت المتكررة بأن يأخذها ، ولكى لا تنعته ثانية « بقليل الذوق، عديم الرومانتيكية ! » . . وقال فاروق : « أتظنين أن مثقفاً مثلى يعتنق أفكاراً كتلك التى ادعيتها البارحة ؟ لقد كنت مغيظاً ، كنت أريد الانتقام لصديقى فإنها قد جعلت منه طرطوراً، جعلت منه مسخرة ، لم ترحم حبه ، لم ترحم عواطفه ، وأنا إنسان عاطفى وحساس ، وتؤلمنى آلام العشاق المتيمين ! » . . ثم تساءل بلهجة ذائبة : « وأنت يا إيفيت ، ألا تشفقين على العشاق ؟ شكرى ، دعنى أهنئك ، لك زوجة رائعة ، رائعة ، وإذا كانت سهى صادقة فى أن هناك إنساناً متفوقا فعلا ، فهو هنا . . يدعى إيفيت ! » . . فهتف شكرى مؤيدا : « أبدعت يا فاروق ، أطربتنى ! « وصلة » أخرى بحق السماء ، الآن عرفت ما الذى تريده إيفيت . . تريد مثل هذا ، ولكن من أين لى بمثل هذا ؟ ! » . . فقال فاروق ، منتفخا : « هذه مواهب يا أستاذ . . مواهب ! » . . وأخذت إيفيت تقهقه بانشراح .

١٢

عندما قبلت الفتيات الدعوة ، قبلنها بروح مليئة بالتحدى . فهن سوف يثبتن للرجل المثقف أنهن ثوريات لا نظرياً فقط ، بل وعملياً ! . . بقيت مشكلة الجو ، وهذه المشكلة بالإمكان التخلص منها إذا كانت النزهة ستوجه إلى أريحا . أريحا مدينة الموز والبرتقال والأشجار الجحيمية الحمرة . وعناقيد زهر « المجنونة » تتدلى فوق كل سور ، وبجانب كل منزل ، و « ليلك » و « أكاسيا » و « زنزلخت » . . ألوان تغرق الإنسان

فى بحر من الحرارة والهوس !

أريحا . . أنخفض مدينة فى العالم ، أقرب مكان من نواة الكرة الأرضية . والأرض خصبة هناك ، والطبيعة متنوعة ، بحر كثيف الأملاح لايزخر بالحياة إلا حين تنعكس عليه أشعة الشمس وأنوار الزوارق ليلا . على الشاطئ تقام المقاهى والفنادق ، حيث يسبح الناس نهاراً ويرقصون ليلا ، وفى أعلى جبل قرنطل ، حيث صام المسيح واعتكف أربعين يوماً ، تستقبل الأديرة المصلين نهاراً ، ويصلى الرهبان ليلا . . . وكانت لفاروق مزرعة فى أريحا ، قطعة أرض كبيرة غرست بأشجار البرتقال ، وفى المنطقة الجنوبية تقع غابة صغيرة من أشجار الجوافة ، وأمام الكوخ الصغير أقيمت مزرعة للورد ، ومستنبت للأزهار النادرة . الكوخ مكون من غرفة كبيرة وملحقاتها ، وقد فرش الكوخ بفرش أنيق يناسب الأجواء المنطلقة . وربما كان فاروق يستغل كوخه ذاك لشئون غير الزراعة والرحلات وقضاء أيام العطلات . هذا شيء لا نجزم به وإنما نتكهنه ، فقد كان فى الغرفة ما يوحى بجو فيه شيء من السرية . . ستائر كثيفة ، أريكة عريضة ، بار صغير ، وحمام فيه « برنس » نسائى !

كانت المجموعة تجلس أمام الكوخ مباشرة ، فى ساحة أسمنتية أحاطت بها أشجار الورد من كل جانب ، وكان فاروق يردد بمرح : « أى أيد ناعمة ستسقينا القهوة ؟ » ، فأبعد شكرى الهارمونيكا عن فمه وصاح : « أتبرع بيدى زوجتى ! » . وقالت سميرة : « على الإنسان ألا يتبرع إلا بما يملكه ! » ، فصاح شكرى : « جزاك الله خيراً ، وهل فى امتلاكى لزوجتى أدنى شك ؟ » . قالت سميرة : « الزواج ليس ملكية ! » . . « وماذا إذن ؟ إن كان لا يعجبك ، فهو أكثر من ملكية ! » . . « تقصد عبودية ؟ » . . «سميه ما شئت ، أما أنا فأسميه ملكية ! »

وقالت نسرين : « الزواج شركة . . » ، فقالت سميرة : « أنا أعترض

يا سيد شكرى ، الزواج أخذ وعطاء ، والعبودية لا تأخذ أبداً ، كما أنها لا تعطى ، لأن الأخذ والعطاء مفروضان عليها ، وكل ما هو مفروض مرفوض ! » . فابتسم عبدالرحمن وهمس فى أذن سامية ، وكانت تجلس بجواره على مقعد استراحة طويل : « دخلنا فى الفلسفة ! » . . فنظرت فى وجهه باسمة ولم تعلق . فقال شكرى متأففا : « ألا يحق للإنسان أن يستمتع بفنجان قهوة دون الدخول فى متاهات فلسفية تفرضها عليه ظروف قهرية ؟ » . وعلق عبدالرحمن ضاحكاً : « وكل ما هو مفروض مرفوض ! » . . وقهقه الجميع . . فى حين قال شكرى : « لنر ما ستفعلين بابن عمك بعد الزواج ! » ، فعلق فاروق : « الزواج من الأقارب غالباً ما يكون فاشلا ، ومن الناحية الصحية فهو غير سليم ، وقد تنجبين أطفالا مشوهين ! ». فتساءلت سميرة بخبث : « أتقصد أن تقول إن أمك كانت قريبة والدك ؟ » . . وقهقهوا بضجيج . . ثم تساءل بشار بعد فترة : « وماذا بشأن القهوة ؟ ! رجاء ألا تدخلوها فى قائمة المفروضات لئلا تصبح مرفوضة ! » . . فقال شكرى : « تحت أمرك يا بطل ، ماذا تريدها ؟ مضبوطة ؟ قليلة السكر ؟ سادة ؟ اطلب ، فإيڤيت تتحرق شوقاً لعرض مزاياها ! » . وكانت إيڤيت ترمق زوجها بسخرية ممتعضة ، ثم تمتمت : « كفى ثقل دم . » . فضحك شكرى ، وعلق بسماجة : « زوجتى لها مزايا فخمة ، من أهمها النوم حتى العاشرة صباحاً ، وطبخ المسلوقات كى لا نزداد وزنا ، وحرق ما سلقته لنصبح بدون وزن على الإطلاق ! » . . وعلقت سميرة : « لماذا يدعون بأنك ثقيل ! » . وقهقهوا ، فهدد شكرى : « إن لم تكفى شرك عنى رشقتك بالشر الذى لا بد منه ! » . فعلق بشار مقهقهاً : « يقصد زوجته ! » ، فتمتمت هذه وهى تنظر إلى زوجها شذراً : « يا لخفة ظلك ! » . فصاح شكرى : « أتسمحون يا سادة يا كرام ؟ إن لزوجتى هوايات مختلفة منها إقامة أشكال مخروطية وأخرى أسطوانية ، وأخرى لا شكل لها على الإطلاق على قمة رأسها ، مقابل دينار عن كل

شكل سيريالي ، لصالون الحلاق العظيم « شكوكو ! » . . فتمتمت إيڤيت وقد بدأت تحمر : « أسكت . . أسكت . » . . فقهقه شكري وواصل : « وأما موهبتها المجيدة فتتجلى في ألفاظها الأنيقة التي تصبها فوق دماغي ، هنا ! » ، وأشار لرأسه الذي بدأ يصاب بالصلع . . فقالت سميرة : « لا تعبأ ، فستنزلق كلماتها من على دماغك حتماً ! »

قهقهوا ، واستدار عبدالرحمن وسأل سامية : « ألا تعجبك هذه الفتاة ؟ » ، فأجابت باسمة : « جداً . » . وكان عبد الرحمن مسترخيا على كرسي استراحة طويل بجانب كرسي سامية ، ومد يده وأمسك بيدها المدلاة يتحسس الإصبع المصابة . وسأل وهو يبتسم : « أما زالت تؤلمك ؟ » ، فابتسمت ، وبادلته نظرة طويلة مثقلة بشتى المعاني .. في حين قال شكري مواصلا حديثه عن زوجته : « أقول لها يا بنت الحلال اعقلي ، « شكوكو » هذا لا يفعل شيئاً سوى إفراغ جيوبكن ورؤوسكن ! » . . وهنا قامت إيڤيت مسرعة ، وقالت وهي تداري غيظها واحمرارها : « سأصنع القهوة ! » . . واستمر زوجها في استعراض خفة ظله ، مستغلا زوجته كعنصر أساسي من عناصر الكوميديا !

وكانت إيڤيت تقف في المطبخ الصغير تبكي ، عندما هتف فاروق : « إيڤيت ، لا تبكي أرجوك ! » ، لكنها أخذت تشهق بصمت ، وعندها أمسك بكتفيها وشدها إليه ، فاستجابت كطفلة مرهقة ، وخبأت رأسها في صدره وهي تنشج . وربما لأول مرة أحس فاروق تجاهها بحنان حقيقي ، فأخذ يهمس بغضب : «ذاك الخنزير ، الأبله ، لا أظنه يعرف ما يقول!» . . وأخذت تبكي وهي تهتز على صدره ، ولفها بذراعيه وشدها إليه وهو يقطر رحمة ، وأخذ يهمس في أذنها : « إيڤيت ، حبيبتي . . إيڤيت ، كيف أساعدك . . كيف أخلصك منه ! كيف ؟ ! » . . وكان شكري في الخارج يضع طفلته على ركبته ويقول لها : « وأنت ، ألن تذهبي إلى شكوكو ؟ » . قالت وهي تعبث بشعر رأسه الخفيف : « سأذهب معك ».

فصاح بشار : « أبشر يا خال ، لقد أصبحت زبوناً . زبوناً عتيدا . » . . وفى المطبخ قالت إيفيت وهى تضع إبريق القهوة على النار : « يحلو له أن يجعل منى أداة يستعرض عليها ثقل ظله ! » . ولم يجب فاروق ، بل هز رأسه وهو يناولها ملعقة ووعاء السكر . وقالت وهى تضع السكر فى إبريق القهوة : « كنت أحلم برجل آخر ، من نوعية أخرى » ، وكانت تود أن تقول « برجل حساس ، برجل يعرف كيف يذيب المرأة بين ذراعيه كقطعة من الزبد ، رجل عاطفى مرهف ! » ، ولكنها لم تكن تجيد التعبير عن مشاعرها ، فقد كانت تفتقر إلى الثقافة والثقة ، فإذا ما حاولت الحديث فى موضوع جدى وحاولت خوضه بتركيز ، تضيع فى لجة من زحام الأفكار والاضطراب ، فتجىء الكلمات مشوهة مهزوزة بعيدة عن السلاسة والاتزان ، وتظهر إيفيت غبية ، مع أنها ليست كذلك إلى حد ما ! » وزفر فاروق بشكل يدل على التأثر والانفعال . وقبل أن يخرجا من المطبخ كان قد أخذ منها موعدا للقاء فى غابة الجوافة بعدالغداء !

ولم يضع جهد فاروق عبثاً ، فالمرح الذى ساد روح الجميع كان بفضله : الغداء اللذيذ ، والبيرة المثلجة ، والجو الجميل ، كل ذلك كان بفضله ، وكذلك كان التألق الذى ساد وجه إيفيت برغم المنغصات التى لا بد منها حين يكون شكرى موجودا ! وأثناء اللعب بالكرة كانت إيفيت إحدى رفيقى فاروق . وبما أن نسرين لم تكن ذات طبيعة خبيثة ، فهى لم تلاحظ تلك النظرات الحارة ، ولا اللمسات المتعمدة المتبادلة بين فاروق وإيفيت . وفى الجانب الآخر وقف الفريق الآخر المكون من بشار وسهى وسميرة . أما سامية وعبد الرحمن فقد اكتفيا بالاستماع لموسيقى شكرى .. المنشغل بهوايته القديمة عن هواية زوجته الجديدة !

ثم نهض عبدالرحمن مصطحباً سامية لاكتشاف المكان ، ولاكتشاف الأسرار التى تراكمت بفعل الزمن والاغتراب . وكان يتحين الفرصة لسؤالها ذاك السؤال الذى لا ينفك يحاصره ، يضايقه ، يخنق أنفاسه :

« لم تركتنى ؟ » . وتخطيا مزرعة الورد وأخذا يضربان الخطى فى « بيارة » (بستان) البرتقال ، بين الأغصان المترنحة تحت ثقل ثمارها التى لم تزل بعد خضراء . وكانت أشجار الليمون تطلق أفواجاً جديدة من زهيرات شمعية ناصعة البياض . وشذى الزهر الفواح يعطر الأجواء الحارة فى عز الظهيرة . وفى نهاية البيارة قبعت شجرة عالية بانزواء ، وامتدت أمامها مساحات من الأرض الخصبة المزروعة بالخس والسبانخ ، وظهرت كرات الكرنب غامقة الخضرة من الخارج ، بينما ظهرت الأوراق الداخلية بيضاء تميل إلى الخضرة . ومن بعيد جاء صوت «موتور» ماء يضرب بانتظام ، ويتلاشى الصوت فى المساحات تاركاً رنة حائرة مكتومة . وعلى مرمى النظر امتدت غابة الجوافة بأشجارها العالية وسيقانها الناعمة الملساء . وعم سكون شامل لا يخدشه إلا صوت ضربات موتور الماء البعيد ، وصوت ضحكة بعيدة انطلقت من أحد أفراد المجموعة . قالت سامية : « ألن تغير رأيك بشأن المعرض ؟ » ، فطأطأ وهو يمد بصره فى الأبعاد المترامية ، محاولا اكتشاف فكرة أو موضوع قد يسوق إلى ذلك السؤال اللعين الذى يضايقه ؛ فقد كانت أعماقه تلح مطالبة ببدء الجدل والمناقشة والحكم على المواقف . نظرت إليه فوجدته يحدق فى وجهها بشرود وغموض ، وأحست بنظرته تحفر كيانها بمعاول قاسية رهيبة ، فحاولت الهرب من خوفها وإحساسها بالحرج ، فقالت برهبة : «مازال فى عينيك ذاك الإشعاع الذرى ، أتذكر ؟ » . فابتسم ، دون وعى ، فقد كان حائراً ومترددا : ماذا عليه أن يفعل ؟ هل يسألها ويناقشها ويسمع دفاعها ، أم يتركها تفعل ذلك بنفسها ؟ ثم هل من حقه أن يعرف مادار فى غيابه ، أم لا ؟ لو كانت امرأة جديدة بالنسبة له لما سأل عن ماضيها أبداً ، فالذى يهمه هو الفترة التى يقضيانها معا ، واحترام كل منهما لهذه الفترة . أما بالنسبة لسامية فالمسألة تختلف ، فقد كان بالنسبة لها ماضياً ، وهذا الماضى بالذات لا يخصه وحده ، فهو موزع بينه وبين

رجل آخر ، رجل مات ، لكنه برغم هذا كان ما يزال جزءا من ذاك الماضى . وتلك الفترة التى كانت تخصه . عوملت باحتقار وابتذال ، وهو لن ينسى ذلك . قد يتسامح ولكنه لن ينسى . وإذا كان لا بد من الدخول فى علاقة جديدة ، فمن المستحيل إقامتها وذاك السؤال ما زال حائرا بدون جواب ! . . وابتسم بمرارة ، وكانت هى ترقبه بإمعان ، وأحست بما فى ابتسامته من حيرة وألم ، فقالت ببطء : « ما زلت حاقدا؟» ، فقال بترو : « أنا لا أحقد ، أنت تعرفيننى » . وسكت وأخذ يتشاغل بخط رسوم على الأرض الحمراء الساخنة ، ثم قال بعد فترة صمت : « يهمنى أن أعرف من هى المرأة التى أمامى ، فمن أنت ؟ » . استدارت بنظرها بعيدا عنه وأخذت تزدرد غصتها بصمت . . « إنه لم يكتف بما حدث ؛ يريد محاكمتى ، والحكم علىّ ! » . . ثم قال بدون مقدمات : « أريد أن أعرف الأسباب . . » . لكنها ظلت صامتة تستمع إلى دقات الموتور ، بقلب مقبوض وأعصاب متوترة ، فقال بلهجة فيها نوع من الأسف والاعتذار : « كل ما أقصد قوله هو أنى حاليا لا أعرفك جيداً ، لا أعرف من أنت ، ولا ما أنت ، ولا ما تريدين . فيم تفكرين ، بم تحلمين ، وكيف تعيشين ؟ كنت أعرفك فيما مضى ، كنت أعرف كل خطوة ستخطينها من مجرد تتبع حديثك وصمتك . بإيماءة كنت أعرف ما يدور فى خلدك ، وكنت أعرف ماذا ستقولين عند ما تفتحين فمك ، كنت أعرفك جيداً ، أو هكذا خيل إلى . أما كيف قمت بما قمت به برغم توقعاتى المناقضة ، فهذا ما يحيرنى ! والذى أريد معرفته هو : هل أخطأت أنا فى معرفتك ، أم أنك أخطأت فى معرفة ذاتك ؟ كنت أعرف أنك تحبيننى ، فإذا كنت مصيبا ، فكيف تزوجت من رجل آخر ؟ وإن كنت مخطئا فلماذا غررت بى ؟ لم أكن غنيًّا ولا مشهوراً ، لم أكن أكثر من مكافح مغمور مجهول ، وكنت أنت غنية وجميلة ومعروفة ، وقد قيل لك الكثير ضدى ، ولو لم أكن أمثل شيئاً هاما فى نظرك لما احتملت كل ذلك فى سبيلى . وإن كنت

أنت المخطئة ، فما تبريرك لما حدث ؟ وهل ما حدث لن يحدث مرة أخرى ؟ إن كانت طبيعتك هى تلك الطبيعة الهادئة المستقرة المخلصة ، فالسؤال هو «لماذا تركتنى ؟» . وإن كانت طبيعتك متقلبة غريبة متوترة ، فلماذا أبقيت على ذكراى ؟ وإن كنت لا تعرفين من أنت ولا ما تريدين فكيف أعرف أنا ؟ أحدنا متهم بسوء الفهم ، إما أنا ، وإما أنت ، ولكى أعرف كيف ستعاملينى مستقبلا علىّ أن أعرف لماذا عاملتنى بهذا الشكل فى الماضى . والسؤال هو « لماذا تركتنى ؟ »

ولم تجبه ! كان قلبها يدق برهبة ، والغصة تملأ حلقها فتكاد تخنقها ! . . فرفع عينيه وحدق فى وجهها بجدية ، ثم أعاد السؤال : « لم تركتنى ؟ لماذا لم تنتظرى ؟» ، فتمتمت بصوت ضعيف : « لقد كنت تعيسة بدونك . وهذا يكفى ! » . . فقال بصوت جاف : « أعرف أنك كنت تعيسة بدونى ، ولهذا أسأل : لماذا تركتنى ولم تنتظرى ؟ » ، فقالت بتلعثم : « أرجوك ، لا تنظر إلى هكذا ! » . فغض بصره وسأل : « هل أخيفك ؟ » . قالت هامسة : « نعم » . قال بأسف : « لم أعتد هذا الموقف ، موقف المحقق ، موقف القاضى ، موقف « المخيف » ، ولكن عندما يكون المتهم بريئا فإنه لا يخاف أحداً ، لا المحقق ولا القاضى ! » . قالت بشرود : « أرجوك ، ما من داع لتذكيرى بخطئى . لقد اعترفت به آلاف المرات ، ولقد نلت من العقاب ما فيه الكفاية . ألم تر تلك الحياة الموحشة التى عشتها ؟ كنت أتوه فى غاب مقفر ، خال من أى مخلوق سواى ، وقلبى يتفتت شوقا وعذابا . لقد كنت مجرمة ، قذرة ، وسيئة ، أعرف هذا ، أعرفه جيدا ، وقد ضعت بدونك ، عشرة أعوام من الغربة والوحشة ليست قليلة ، وكفانى هذا عقابا . ألا يكفى ؟ » . . قال موضحا : « لكنى لا أريد معاقبتك ، أنا لا أطلب هذا ولا أفكر فيه ، كل ما هنالك أنى أريد معرفة من أنت . ليلة أول أمس قلت لك إنى لا أعدك بشىء لأنك غريبة عنى » . . ونظر فى وجهها فرآه غارقا

فى الحزن ، فقال بأسف : « أرجوك يا سامية ، افهمينى ، يجب أن تفهمى أن أية علاقة مبنية على جراح غير نظيفة قابلة للفساد . وأنا أريد أن أنظف الجراح ، أن أسطح التغضنات ، أن أضىء القاع ، أن أعيد لعلاقتنا عمقها ونظافتها . وتلك الثقة ، لقد كانت أهم عنصر ، وهى الأساس لكل بناء سليم تقوم عليه أية علاقة طيبة بين إنسانين ، ويجب أن أعرف الحوافز التى دفعتك لتركى وقد كنت أمثل الأمل فى نظرك ، أم أننى مخطئ ؟ » . — لا ، لستَ مخطئا .

— فلم تركتنى إذن ؟ — لقد كنت تعيسة .

هز رأسه بأسف وقال : « هذا عذر واه ! » . قالت بانفعال : « بل هو عذر مقبول . لقد كنت تعيسة ، لم أستطع احتمال الألم ، كنت أتخبط ، ولا أدرى كيف حدث ذلك . أفقت يوما فوجدتنى فى أمريكا ، وبجوار رجل غريب ! » . نفخ وقال بغضب : « اسمعى ، لقد كنت صادقة فيما مضى ، عرفتك هكذا ، فهل اختلف الوضع ؟ » . هتفت بألم : « لا تقل هذا ، صدقنى إنى لا أدرى كيف حدث ذلك . كنت فى حال غير طبيعية ، صدقنى ! » . وعاد يسأل : « وضعك غير الطبيعى ذاك كان نتيجة سجنى ، أليس كذلك ؟ » . أجابت : « نعم . . صدقنى ! » . فعاد يشدد وطأة استجوابها : « وبدلا من انتظار من تتألمين من أجله ، بدلا من الوقوف بجانب من أسميته " أملك " ، وليت الأدبار وهربت ! » . هتفت : « أردت أن أهرب من الألم ! »

— وتركته لى وحدى . . لى وحدى آكله ويأكلنى ، لم تتركى لى فقط عذاب الزبانية والآلات الكهربائية ، لم تتركى لى فقط عذاب غربتى عنك وعن العالم كله ، لم تتركى لى النوم على الأرض الباردة فقط ، وفوق بطانية مهترئة ، والبق والقمل وشتى الحشرات المستوطنة فى الزنزانة الضيقة تفتك بجلدى ، لم تتركينى لهذا فقط ، بل حرمتنى نفسك ، حرمتنى الأمل أن ألقاك ثانية ، وأن أرى فى عينيك نظرة شوق ، وأن

أسمع من شفتيك كلمة « خارق »! وعوضتني عن الثقة غشًّا وغدراً وخيانة ، حتى قصاصة لم أتلق منك ! . . والغيرة ، الغيرة عليك ، كنت أريدك لى ، لى وحدى . . وكنت أتخيلك مع ذاك الرجل ، فأحترق . . أحترق ! » . . واستدار بوجهه إليها ، وكانت تبكى بصمت ، فصاح : « لقد أفسدت أحلامنا ! » . قالت من خلال دموعها : « ولكنك نلت كل ما طلبت ، أصبحت كل ما تمنيت ، نلت الشهرة والمجد ! » ، فهزّ رأسه بمرارة وسخرية : « وخسرتك ! وقد كنت كنزى الأكبر . كنت الحنان ، كنت الحب ، وما الحياة بدون حنان وبدون حب ؟ ملايين الملايين يعيشون مغمورين مجهولين ، يعيشون ببساطة وراحة ، وربما بسعادة ، وإن كانوا أشقياء فليس لأنهم يفتقدون الشهرة ، بل لأنهم يفتقدون الحب ، يفتقدون الحنان . تتحدثين عن المجد ؟ ! وما المجد ؟ هل أستطيع النوم على صدر المجد بدلا من صدرك ؟ هل أستطيع سماع دقات قلبه الخافقة بحبى ؟ المجد أحب الألوف ، الألوف . . وأنا لست سوى واحد من قطيع ، قطرة من محيط ! . . والشهرة ، هل كان باستطاعتها أن تمنحنى طعاما هنيئا وفراشا دافئا ؟ الشهرة عبارة عن صحفى بارد يلاحقنى . همسات تدور من حولى تنغص علىّ وحدتى ونجواى إلى نفسى ، سواء فى وحدتى أو مع الآخرين . أجراس تقرع لكل خطوة أخطوها . هذه هى الشهرة . أما أنت ، فكنت نظرة حانية ، ويداً رقيقة تتحسس جبينى المتعب ، وقلبا يحتوى آلامى وآمانىّ ، وقد كنت أغلى عندى من المجد ، أحلى من الشهرة . فلم تركتنى ؟ ! »

قالت بذهول : « لا أدرى ، لا أدرى ! . . كل ما أدريه أنى تعذبت بدونك ، وأن الحياة بدون حب هى قفر بلقع ، خال من الماء والعشب . جزيرة بعيدة ، أرضها جافة ، سماؤها كالحة ، وماؤها ملح ! »

— هبى أنك أحببت ذاك الرجل !

— لا . . لم أحبه . . لم أحبه !

ــ هبي أنه لم يمت !

ــ كنت على وشك أن أتركه .

ــ هبي أنك رزقت منه أطفالا .

ــ لم أرزق ، لم أكن أريد ذلك !

ــ هبي . . هبي . . فما يكون موقفك آنذاك ؟ تتركين أطفالك وتعودين إلى ! ــ لا أدرى . .

ــ تتركين الرجل الذى أصبح أباً لأطفالك ! ــ لا أدرى !

ــ وتموت قصتنا ، وتموت ذكراى ، وقد أموت أنا ، وتظلين أنت بعيدة ، ولا تسألين عنى ؟

صاحت بحدة : « لا أدرى . . لا أدرى ! »

ــ بل تدرين . أنت لست مجنونة ، المجانين أو المرضى هم الذين يتصرفون بدون إرادة !

ــ هؤلاء فقط ؟ إذن فنحن مخيرون لا مسيرون ؟ أو نختار نحن؟

ــ وهل أرغمك أحد؟ هل منعك أحد ؟ هل ضغط عليك أحد ؟

ــ أهى الضغوط الخارجية التى تقرر مصائرنا فقط ؟

ــ ماذا إذن ؟ أليست إرادة الإنسان قائده ؟

ــ ومتى امتلك الإنسان إرادته ؟

ــ منذ الأزل . منذ وجد الإنسان وجدت إرادته !

ــ وجدت ، أين ؟ أين وجدت؟ فى الأرض أم فى السماء؟ وجدت ، نعم . ولكن أين ؟ المهم أن يجدها الإنسان نفسه ، أن يمتلكها ، وليس المهم هو وجود غير محدود الإقامة . فما يكون الخطأ إذن ؟ نقع فى الخطأ دون علم بأنه خطأ ، ولكننا فى الغالب نعلم أنه كذلك ، أنه خطأ . ونندم ، ونستنجد بالله وبمحمد وبالمسيح ، ونطلب الشفاعة والهدى ونظافة الضمير ، وبعد فترة نعود لما أقدمنا عليه وما ندمنا على فعله ، نعود ونخطئ . ونعود ونندم . ونعود ونستغفر الله ومحمد والمسيح ! . .

فأين تكون إرادة الإنسان حين ذاك ؟ فى الأرض أم فى السماء ؟ إرادة الإنسان موجودة ، ولكن متى استطاع الانسان امتلاكها بشكل مطلق ؟ متى كان باستطاعته تسخيرها والتخطيط لها ؟ متى كانت أجسادنا أداة لتنفيذ الإرادة ؟ ومتى كانت الإرادة سليمة صائبة مائة فى المائة ، والإنسان مركب ضعيف . . زورق تائه . . معدن لم يكتشف بعد . وكل إنسان نوعية قائمة بذاتها ، وكل نفس لها أسرارها ، وكل سر له انفتاحاته واستغلاقاته . ألم تخنك إرادتك أبداً ؟

قال مفكراً : « ليس فى الأمور الجسيمة » .

— وعندما تزل الإرادة ، كيف نستطيع الحكم على تفاهة الأمور أو جسامتها ؟ يقبع الإنسان حينئذ أشبه بساعة بهلوانية ، أشبه بميزان مختل . وتتعقد الأمور ، وتختلط العقد ، وتتشابك الخيوط ، ونفقد السيطرة على زمام أمورنا . . ونخطئ !

ونظرت إليه . كان يبحث عن خطأ زل به لسانها ليناقشها فيه ، لم يكن يريد أن ينهى الموضوع بهذا الشكل المبهم . وكأنها أحست بما يدور فى نفسه من تشكك وتوجس ، إذ واصلت الدفاع عن نفسها : « كانت الظروف عاصفة . كنت أريد أن أهرب . أن أجد ملجأ يحمينى من ألمى العظيم ، كنت أريد أن أموت ، أو أغرق فى دوامة من النسيان » .

— لكنك لم تموتى ، ولم تنسى ؟ — للأسف لا !

— ولكن ما الدافع ؟ هل رأيت ذلك الرجل من قبل؟ هل أعجبك؟ هل أغرتك ثروته ؟ — لا ، لا تقل هذا ، أنت تعرف من أنا . .

— بصراحة ، أنا لا أعرف شيئاً ، لم تتركى لى شيئاً أعرفه سوى أن المرأة إنسان ضعيف الإرادة ، كاذب اللسان ، سيئ النية ، وأنها ثعبان غادر !

— أرجوك ، لا تكن قاسياً . أرجوك . قلت لك إنى كنت تعيسة ، وإنى كنت خائفة ، وإنى كنت أركض فى الظلمة فتعثرت

ووقعت . أتذكر ليلة أول أمس ؟ فى تلك اللحظة ، عندما بلغ خوفى قمته ، لم أجد سوى اللهب الأزرق أحرق به أصبعى . كان ذلك تعبيراً عن رغبتى فى الانتحار . كنت أريد أن أحترق ، وأن أموت !

ـ ولكنك قلت بأنك فعلت ذلك لإثارة انتباهى ؟ !

ـ لا ، لم يكن هذا هو الدافع الأصلى . فى اللحظة التى امتدت فيها يدى للنار ، لم أكن فى حالة تفكير ، وإلا لما جرؤت . كنت أنتحر . فما يكون وضع المنتحر ؟ هل تعتبره مريضاً أم مجنوناً ؟ كنت أنتحر ، كنت أنتحر !

وفاض العذاب ، وفاض الدمع . وكان هو يفكر بتوجس وهو يرقب دموعها بذهول . . « من هى هذه المرأة ؟ ما الذى تفكر فيه حقا ؟ ما الذى تحس به ؟ أكاد أشك فى كل كلمة تقولها ، فى كل حركة تصدر عنها . أخاف الاقتراب منها ، وأخاف الابتعاد عنها . بإشارة منى قد تكون لى ، وباشارة أبعدها عنى ، وأنساها كما نسيتها فى الماضى ، ويعود للقلب نومه الهنىء ! » .

وكانت هى تبكى بخوف . . « سيتركنى ، أكاد أرى ذلك فى انعقاد جبينه ، فى قسوة نظرته ، فى انطباقة شفتيه ، سيتركنى لوحدتى ولذكرياتى معه . . ولفشلى فى الحب والزواج ! »

* * *

وكان يحدق فى بحر دموعها . . « دموع المرأة أكبر كذبة خلقتها الطبيعة ، دموع التماسيح ، دموع الثعالب ، دموع إبليس نفسه ! كدت أصدقها . ليلة أول أمس قالت إنها أحرقت أصبعها بغية إثارة انتباهى ، وأسرنى ما ظننته صدقاً فى تلك اللحظة . كدت أذوب حناناً حتى أنى لم أستطع منع نفسى من الركوع عند قدميها إلا بصعوبة . وبدلا من أن تكون فى موقف المسترحم ، أصبح هذا الموقف لى . أى سخف ! أية بلاهة ! رجل تعبث به دموع امرأة فتبدل موقفه بين لحظة وأخرى ،

وبدلا من أن يكون سيداً يصبح عبداً لها ، للشك ، وللتوجس ؟ ! قالت إنها أحرقت اصبعها بغية إثارة انتباهى ، هذا ما قالته ، وبطريقة تقطر صدقاً ، وها هى ذى تقطر صدقاً أيضاً وهى تقول إنها أحرقت اصبعها خوفاً ، وانتحاراً ، فماذا أصدق ؟ » .

وكانت هى تتمزق . . « عبد الرحمن ، أنت يا هذا الرجل ، كيف أتمكن من إقناعك واجتذابك ؟ هل سيتركنى ؟ وأعود أقطع الطريق بين منزلى والمكتبة وحدى . . وحدى . . أراقب الحفر فى الأسفلت . أقف أمام النباتات على الجدران . أعد الأشجار واحدة واحدة ، كيما أنسى مسافة الطريق ، ومسافة الزمن ؟ كلا ، إن الموت أرحم . . أرحم ! إذا ما تركنى فلن أكتفى بإحراق أصبعى فقط ، سأحرق جسدى كله . سأنتحر حقاً ! »

وخرج من دوامة أفكاره ، ليقول ببطء : « عندما نعود إلى (رام الله) فى المساء ، سأجمع اللوحات لأنقلها فى صباح الغد إلى (نابلس) » ، وصمت . وراحت هى تنتظر . . « ألن يقول شيئاً آخر ؟ ألن يطلب منى مساعدته فى جمع اللوحات ، أو حتى مراقبته وهو يجمعها ؟ فى الماضى كان يحلو له أن يعمل أثناء وجودى . . يرسم ، يكتب ، يدندن ، ولم أكن أقول شيئاً إلا إذا سألنى ، وكنت آتيه بالقهوة ، وأشعل له المدفأة ، وأضىء له النور فى المرسم حين تغشى العالم الظلمة . كنا نسبق روح العصر ، لم أكن أخاف ألسنة الناس ، لم أخف إلا عليه ! » . . ومدت يدها بمفتاح صغير ، فأخذ يرمق المفتاح بتساؤل : « ما هذا ؟ » .

— مفتاح المكتبة .

— وهل تسمحين لى بالدخول وحدى ؟

هزت رأسها بمرارة ، فقال بفضول : « لماذا تهزين رأسك ؟ »

استدارت بوجهها عنه ، فواصل التساؤل : « ماذا هنالك ؟ لم هززت رأسك ؟ » . قالت بشرود : « سؤالك ذاك ، كان فيه طعم غريب ! »

ـ كان فيه لياقة .

تمتمت بيأس : « اعذرنى »، وحدثت نفسها . . « منذ متى كان يعبأ باللياقة معى ؟ كان يتصرف كما لوكنت جزءاً منه ، كما لو كنت نفسه ، وها هو ذا يتشدق الآن باللياقة ! » . . وقال متردداً : « ولن أرجع المفتاح ؟ » . وأحست بشىء يشبه الطعنة يخترق أمعاءها ، وظلت تنظر إلى أشجار الجوافة فى الغابة القريبة بذهول . . « حاقد ، مهما ادعيتَ صفات التسامح . عنيد مهما ادعيتَ الليونة . متكبر مهما اصطنعتَ التواضع . لكنك لن تمرغ جبهتى فى الوحل ! لن تجرنى من عنقى ــ العمر كله ــ ككلبة جرباء متهرئة الجلد ، لن أسمح لك بذلك ، مهما كانت النتائج ، مهما حدث . . الموت أرحم ! »

وأجابت بهدوء : « اتركه إذا مررت بمنزلنا . أو قد أبعث لك بنسرين لتساعدك فى جمع اللوحات » . . والتفت إليها ليتأكد مما تعنيه ، فوجد جبهتها مرفوعة ، وفى عينيها نظرة شرود . قال وهو يرمقها : « ألن أراك ثانية ؟ » . قالت بمرارة : «ما من داع لفرض ثقلنا على الآخرين ، عندما تشعر بالشوق الحقيقى . . ستَرانى » .

« ماذا تقصد هذه المرأة : عندما تشعر بالشوق الحقيقى ؟ . . ما معنى هذا ؟ فى الماضى وقعت صريع نظرة كبرياء من عينيها . أنا لا أحب المرأة المتهالكة ، أحبها أن تظل الإله الذى نطلب عطفه ورحمته ! » . . وقال يجس نبضها : « ألن تحضرى للمكتبة » . قالت دون أن تنظر إليه : « لماذا ؟ » . أجاب : « إنما كنت أسأل فقط ! »

وظل جبينها مرفوعاً ، ونظراتها غائمة غامضة . . « تستدرجنى ياعبد الرحمن؟ . . أعرفك ، أعرفك جيداً . ولكنك ستفهم أنى لن أقضى العمر كله أردد كلمات الاستغفار والاسترحام ! » . وعاد يسألها : « وهل سأجد قهوة فى المكتبة ؟ » . « هاهو ذا يذكرنى ، ويذكر نفسه ! » وقالت ببرود : « أدوات القهوة فى المطبخ الصغير ، لن تجد صعوبة فى

العثور عليها » . . فقال وهو ينظر إليها بإلحاح : « (رام الله) باردة ، وسيكون الجو رطباً فى المكتبة » . . ولم تجبه ! .. كانت تزدرد غصة أفعمت حلقها .. فقال كمن يخاطب نفسه : « حسنا ، سأشعل المدفأة ، لقد اعتدت أن أفعل ذلك وحدى . ولسنوات طويلة عشت بدون تدفئة على الإطلاق ! » . . ولم تجبه ، فقال بامتعاض وغيظ : « أرى أنك لا تعبأين بى ، أهذا هو الحب الذى تدعينه ؟ » . قالت مواجهة : « أولا ، أنا لا أدعى شيئاً . أنا أقول ما أحس به . ثانياً أنا ألبي ما تطلبه منى . أردتَ الذهاب للمكتبة فأعطيتك المفتاح . سألتنى عن مكان القهوة فقلت لك . تقول بأن الجو رطب هناك . سأوصى نسرين بأن تشعل لك المدفأة الكبيرة » . . . وكان كل منهما ينظر فى عينى الآخر بتحفز . كانت غاضبة ، وكان قلبه يدق وهو يتأمل عنادها الذى رآه لذيذاً ، مسلياً ، ومثيراً . . وقال مدعياً الغضب : « كنت تقفين بجانبى ، كنت تحضرين لى القهوة بيديك ، وتشعلين لى المدفأة حتى دون أن أطلب ذلك . وأحياناً ترغميننى على ارتداء « البلوفر » قسراً ، كنت تخافين علىّ بصدق ، كنت تعرفين أنى مصاب « باللومباجو » وأن البرد يزيد من آلام ظهرى . . » ، فقاطعته وهى تلتفت إليه وتسأله بصوت مرتعش : « اللومباجو ، نعم . . أما زال كما كان ؟ » . قال بجفاء : « وأكثر ، وأكثر . أترين : لقد نسيت ، أتدرين لماذا ؟ لأنك ماعدت تعبأين بى كذى قبل . كنت تخافين على ، كنت تحبيننى حقًا . أتذكرين كم « بلوفراً » صنعت لى ؟ » . ارتعشت أجفانها بقلق . . « هل يسخر منى ؟ هل ينصب لى فخاً ؟ هل يذكّرنى بقصد إثارة حنينى ، أم بقصد التفكه ؟ ولكنه هو نفسه يذكر ذلك ، وإلا فكيف تذكر وحده ؟ » ، وعاد يقول بغضب : « والآن ، وبعد عشرة أعوام من الشوق الذى تدعينه ، أعود فأجد امرأة جف حنانها ! » ..وقالت بغضب مماثل : « لا تقل هذا ، حنانى نبع لا ينضب ! » .. فعقد

حاجبيه بطريقة ساخرة ، ولوى شفتيه بتبرم ، ولكن كانت فى العينين نظرة متلهفة ، وبريق الشوق والحنين . وقال : « أنا لا أرى فى وجهك إلا الغضب ! » . فطأطأت باستسلام وهى ترخى أهدابها السود بطريقة ناعمة مثيرة . وكان هو يتأملها ويفكر ، محدثاً نفسه : « كيف تستطيع المرأة الاحتفاظ بكامل جاذبيتها وحساسيتها وجمالها حتى حين تبلغ الأربعين ؟ ! هل للذكاء يد فى ذلك ؟ » ورفعت نظرها ، فوجدت عينيه تهيمان فى واحة من الإعجاب والحنان . وأخذ قلبها يدق بعنف ، فسألها بلطف آسر : « لم احمر وجهك ؟ » . ولم تجبه . قال هامساً : « ألن تأتى للمكتبة ؟ » . قالت هامسة بدورها : « بلى » .

— وتأتين بالقهوة ؟

— نعم . — وتشعلين لى المدفأة ؟

— نعم . — وتجلسين بجانبى ؟

فاضت دموع حنانها . فمد يده ولمس استدارة وجهها بأصابعه ؛ كنحات يتحسس تمثاله المفضل ! .. وقال : « تذكرينى بالماضى ؟ . إنى أكاد أعيشه . أحس بتدفق الدم فى عروقى من جديد ، وباصطخاب النبض فى قلبى . لم تؤثر فى امرأة كما فعلت سامية ، عدينى بأن تعودى إلىّ كما كنت ! »

— بل أحسن مما كنت ، فقد ازددت خبرة ، وحكمة ، وشوقاً !

— يكفينى ما كنت عليه فيما مضى ، هذا كل ما أطلبه منك : أطلب حناناً ، وتفهماً ، ووفاء .

ولم تستطع المكابرة أكثر من ذلك ، فألقت برأسها على كتفه ، تدفن نشيجها وخفقان قلبها !

١٣

كانت تركض فى اتجاه غابة الجوافة ، وكان الجو حارًّا ، أو ربما كان الانفعال والخوف هما السبب فى كل ماتصبب منها من عرق . وهتف فاروق وهو يمد ذراعيه : « إيفيت ، لقد تأخرت ! » . قالت وهى تنظر خلفها بقلق : « كنت مترددة . لم أكن أريد المجىء ! ». فتساءل وهو يمسك بيدها ويجرها إلى مكان ازدحمت فيه الأشجار والظلال : « ولم التردد ؟ » . قالت لاهثة : « لا أدرى . . فأنا خائفة ! » . قال ونظرة منكسرة تكسو وجهه : « تخافين منى أنا ؟ » . قالت بتلعثم : « أنا خائفة ، من كل شىء . تركت « نينا » نائمة فى حجر والدها . ستستيقظ وتنادينى . . سأعود . . قد يجىء أحد ويرانى . . وقد يعرف شكرى ! » .. فحاول جاهداً تهدئتها : « لن يعرف شكرى . . لن يعرف ! ». لكنها قالت وهى لاتزال تنظر حواليها : « وحتى إن لم يعرف ، فأنا خائفة . . اسمع ، ألا تسمع شيئاً ؟ يا إلهى ، أريد أن أعود ، يجب أن أعود ! » ، فأمسك بيدها يشدها : « إيفيت ، تعودين ؟ ماذا تقولين ؟ » ، أجابت وهى تنصت كفأر مذعور : « انصت جيداً . . ألا تسمع شيئاً ؟ ماهذه الضربات ؟ » .. قال مبتسماً : « هذه دقات موتور الماء ، والخشخشة منبعثة من أوراق الجوافة الجافة ! » . قالت وهى تتلفت حواليها : « سأعود ! سأعود ! » فصبغ وجهه بقناع يقطر حزناً ، وسألها : « أتتركينى وحدى يا إيفيت ؟ » . نظرت فى وجهه التعيس بإشفاق ، ورأت الحزن يغطى جبينه الجميل ، وشفتيه ترتجفان بانفعال . ومرت بذاكرتها مشاهد مشابهة رأتها فى أفلام أبكتها ، فتخيلت نفسها بطلة فى أحد تلك الأفلام الغرامية الطافحة بالمآسى الدرامية . فقالت وهى تتقمص دور العاشقة المعذبة التى تضحى بحبها فى سبيل المبادئ

والشرف : « فاروق ، أنا لست لك . لا مفر . يجب أن تنسانى! » .. فهتف بجزع : « أنساك ؟ لا يا إيفيت ، لا تطالبينى بما هو فوق طاقتى ! » . . وسبحت عيناها فى غمامة من الدمع والتأثر ، كانت تعيش فى موقف حلمت به سنوات وسنوات . . هى فتاة جميلة ، وهو فارس أنيق . هى عاشقة ولهى ، وهو عاشق مدله . هى متزوجة ، وهو معذب . . ويا للمأساة !

وأخذت دموعها تتدفق ، تأثراً لما فى مخيلتها من إثارة ، أكثر منها انفعالا للموقف نفسه. وقال فاروق مسترحماً : « إيفيت ، لا تكونى قاسية ، وجهك السماوى هذا لا يحمل سوى رحمة الملائكة . قلبك الذى أسمع خفقانه لم يعرف سوى الحب والحنان ، فلا تفسديه بالكراهية . . لا تكرهينى ! » . . فهتفت ، بقلب متوجع : « أنا أكرهك ؟! » ، وأخذت تنشج ، فتلفت فاروق حواليه خوفاً من أن يصل صوت نشيجها لأحد . وبعد أن اطمأن ، واصل التوسل : « إيفيت ، ماذا أفعل ؟ دلينى على طريقة » . . فقالت مجفلة : « لا ، لا أستطيع ! » . تساءل بدهشة : « لا تستطيعين ماذا ؟ »

— أن أترك زوجى . ، وبيتى . . وأولادى !

فغر فاه ولسان حاله يقول : « ومن طلب منك ذلك ! » . وقالت بسذاجة : « سأظل على حبك حتى الممات ، هكذا كتب علينا : أن نشقى ، وأن نتعذب . . ولكن فى سبيل من نحب، يهون الشقاء ويهون الألم . وفى سبيل أطفالى تهون التضحية ! » . وحدث نفسه : « ألم تقل فاتن حمامة كلمات كهذه فى فيلم ما ؟ » ، ثم هتف وهو يمسك بها من كتفيها : « إيفيت ، يا إلهة التضحية والمحبة . . إيفيت يا ملاك الرحمة . يا ربيبة القديسين ! » .

وكان وجهها يترنح حزناً وطرباً . حزناً على وضعها كعاشقة محرومة ، وطرباً لسماع كلمات حلمت بها سنوات طويلة . وجاءها صوته :

« إيفيت ، لا تطرديني من فردوسك . الموت أهون ! » . . وجثا على ركبتيه محتضناً ساقيها . ووجدت نفسها محاطة بذراعى فارسها العاشق الأنيق ، وجسدها مرفوع إلى أعلى كما لو كانت « جان دارك » الحب والقداسة . وارتسمت على وجهها ابتسامة مضيئة ، وهى تردد كلمات هامسة كما لو كانت صلوات مقدسة : « يجب أن نحتمل ما كتب علينا . هذه مشيئة الله ، الله يختبر عباده ليعرف الخبيث من الطيب ، وسنكون من الطيبين » .. وكان هو يهتف عند ركبتيها : « إيفيت ، يا أنبل امرأة عرفتها . إيفيت . . » وانحنت لترفعه من ركعته ، فشدها إلى أسفل ، فركعت مثله ، فاحتضنها بين ذراعيه ، وأخذ يمطرها بالهمسات والقبلات : « حبيبتى . . إيفيت . . أحبك » .. ستكونين لى . . إيفيت . . إيفيت ! » . . وسمعا خشخشة بعيدة ، فتوقفت أنفاسهما للحظات ، وأخذت هى تنظر ناحية المكان الذى صدرت منه الخشخشة ، وشهقت وهى تبعده عنها : « اتركنى . . اتركنى .. ذاك عبدالرحمن ينظر إلىّ ، وتلك سامية . . اتركنى ! »

فتركها ونهض مسرعاً ، واختبأ خلف شجرة ضخمة وهو يتحسس ياقته وشعره ويمسح فمه بكفه . ولحقت به إيفيت ، فهتف بجفاف وغلظة : « لم جئت ؟ » . فتحت عينيها بعجب ، فاستدرك قائلا بصوت خافت : « حبيبتى . يجب أن أكون حذراً على سمعتك ، ثم إننى معروف جدا ، وأبى نائب فى البرلمان ، وقد أصبح نائباً أيضاً ، ولذلك يجب أن تكون سمعتى نظيفة ، وسمعتك أنت بالنسبة لى أهم من أى شىء فى العالم . أهم من أى شىء ، أقسم بحبك يا إيفيت . . أتصدقين ؟ أنا خائف على سمعتك ، هذا هو الحب الأصيل . . أنا لا أريدك إلا مرفوعة الرأس أمام الناس » .

* * *

وكان عبد الرحمن ينظر مصدوماً من بعيد ، وأخذت سامية

تردد بذهول وانفعال : « أحقيقى ما أراه ؟ » . والتفتت لترى عبد الرحمن مازال واقفاً يحملق باتجاه المكان الذى كانت فيه إيفيت مع فاروق فهتفت سامية : « عبد الرحمن . . هل رأيت ما رأته عيناى ؟ » ولم يجب عبد الرحمن . كانت الصدمة قد هزته ، وكان فكره يردد: « غدر المرأة . . غدر المرأة ! » ، بينما قالت سامية بذهول : « أهذا هو العفيف الشريف الذى يدافع عن الأخلاق والشرف الشرقى ؟ » . فالتفت إليها عبد الرحمن وقال بجفاء : « إنه أعزب! »

ــ لكنه صديق زوجها ، ثم إنها بلهاء ، إيفيت امرأة ساذجة ، محدودة الذكاء ، محدودة الثقافة ، عاطفية لدرجة الهوس ، انفعالية لدرجة النزق . الكل يعرف هذا ، أما هو فقد كان يمثل دور المثقف الراقى ابن العائلة المحترمة والنسب الرفيع ، والشهم الذى يدافع عن الطهارة والشرف ، وهاهو ذا يغرر بها ، وهى طفلة ، ليست أكثر من طفلة ساذجة !

فاستدار عبد الرحمن يحدجها بسخرية ، وتساءل بمرارة : « ألا تغدر المرأة إلا حين تكون طفلة ساذجة ؟ » . . وكانت كلماته تحفر فى قلبها خندقاً ! فها هو ذا يعيرها ويذكرها بموقفها منه . ورغم كل ما قاله وما قالته ، ورغم الانتفاضات العنيفة التى اعترته وهو يعانقها ويناجيها ، فما زالت هناك ثغرة يصعب ردمها ، بل من المستحيل ردمها ! .. وأحست بحنق شديد على إيفيت ، فها هى ذى تفسد كل الآمال التى بنتها ، هاهى ذى تعطى لعبد الرحمن دليلا آخر على خيانة المرأة ، وغدرها وكذبها !

وواصلا الطريق بصمت كئيب . وعندما وصلا ساحة الورود حيث تلتف المجموعة ، كان فاروق يجلس هناك منشغلا فى حديث ذى شجون مع سميرة ونسرين ، أما إيفيت فكانت فى الداخل تصنع القهوة . وعندما قدمتها لم تواجه الاثنين بنظرها !

وكان عبد الرحمن مشيحاً بوجهه عنها باشمئزاز ، بينما اكتفت سامية بتوجيه نظرات غاضبة إليها . أما فاروق فكان غارقاً فى حديث متشعب ، وكان يقول لنسرين المنصتة باهتمام : « أنا أوافق سميرة على رأيها ، وأعتقد أن هذه الأمة بحاجة لثورة أخلاقية أكثر مما تحتاج إليه من سلاح ومشروعات . وأعتقد أن على المثقفين أن يبدءوا بحملة توعية واسعة النطاق ، كما فى (كوبا) . أتعلمين أنه خلال سنوات قليلة أصبحت كوبا لا تضم من الأميين الا بقدر ما يحتوى هذا القلب من خطايا؟! » . . فصاحت سميرة ضاحكة : «يا أمة الأميين يا كوبا!»

١٤

عندما عاد عبدالرحمن من (نابلس) بعد غياب دام أكثر من أسبوعين ، كان أول ما فكر فيه هو زيارة خاطفة لسامية وللمكتبة ، فقد أحس بعبثية مقاومته لذاك الرباط الذى يشده إليها ! كان الماضى يذكره ، والحاضر يشوقه ، أما المستقبل ، فأنى له بمعرفة ذاك الدرب الضبابى الذى كتب عليه أن يمشيه ، بكل ما فيه من حلاوات ومرارات! . . وكان معرض نابلس قد نال من النجاح أضعاف ما ناله معرض (رام الله) ! . وكتبت عنه الصحافة أكثر مما كتبت عن معرض (أريحا) . ورجال المباحث المختفون خلف النظارات القاتمة كانوا يذرعون الصالة بنشاط ، حيث وقف خيرة الشباب هناك : فذاك يسارى معتدل . وذاك يسارى متطرف ، وذاك ناصرى والآخر من رجالات البعث . أما اليمين فما كان له فى المعرض موطئ قدم . وربما قام عبدالرحمن أثناء زيارته لنابلس ببعض الزيارات المشبوهة ، هذا ما احتوته تقارير ذوى النظارات القاتمة ، أما التفاصيل فلم تذكر . ولكن كان لا بد من محاسبة عبدالرحمن على ذلك يوما ، ولا بد من استجوابه والتحقيق معه . وفى تلك الأثناء لم يبعث إلى سامية بكلمة واحدة . انتظرت منه رسالة ، انتظرت

مكالمة هاتفية ، انتظرته هو ، فلا بد أن يعود ، فرام الله هي المقر . وقد استأجر قبل ذهابه إلى نابلس شقة صغيرة فى طريق فرعي من شارع الإذاعة : إحدى الغرف كانت تطل على واد وأشجار وأفق فسيح ، وقد جعل من هذه الغرفة مرسما ومكتبة . وكانت المجموعة قد زارته فى منزله الجديد قبل ذهابه ، وكانت سامية على علم بمقر هذا المنزل ، لكنها لم تمر به يوما لتتأكد من رجوعه ، فقد حدست من غيابه الصامت ذاك مدى ما يمر به عبدالرحمن من حيرة وتشكك . وكان مشهد إيفيت وفاروق فى غابة الجوافة هو العامل الأساسى فى انقلابه الكئيب ذاك . كانت سامية تعرف هذا وتفهمه ، وربما أحست هى الأخرى بما تحمله خيانة إيفيت من أدلة سافرة على غباء المرأة وضعفها ، وبالطبع هذا يذكر بماضيها الداكن مع عبد الرحمن . فلا عجب إذا خلف هذا الموقف فى نفس عبدالرحمن كل ذاك الإحساس بالإهانة غير المباشرة .

ولكن كان لا يزال يراود سامية أمل فى أن يزور المكتبة ، وأن يراها ، وأن ينظر فى عينيها ، وأن تحبه بصمت ، وأن تقول له بكل حركة من حركاتها إنها فى انتظار كلمة ، وإنها رهن إشارته ! كانت تعرفه جيداً ، فهو حساس ، وعاطفى — رغم ذاك العقل الجبار الذى يقيد خطواته وتحركاته — وهى واثقة من أنه سيعود ! ولكن متى ؟ متى ؟ . . إنها قد قرأت أخباره فى الصحف ، ورأت صوراً ملونة للوحاته فى المجلات ، وسمعت صوته فى الإذاعة يحكى قصة الفن والثورة المبطنة ، والكفاح السلمى فى سبيل التقدم والحرية . لكن ذلك كله ما عاد يهمها ، كل ذلك ماعاد سوى حاجز يبعده عنها ، شريط شائك يفصل بينه وبينها . وهى ما عادت صاحبة مبادئ ومثل عليا كما فى الماضى . فماذا تعنى تحركات عبدالرحمن هذه سوى المزيد من الرقابة ، والمزيد من توجس المخابرات ، والمزيد من التهديد ؟ وهى امرأة هادئة الطبع ، تميل إلى الهدوء وتمقت المغامرة . وكل تلك التحركات ما عادت تمثل فى نظرها

سوى مغامرات خطرة . فلا الشعب مدرك لما يقصده عبدالرحمن ، ولاالسلطة مستعدة لتفهم إنسانية عبدالرحمن ونزعته السلمية وتبنيه سياسة مستوردة من الشرق الأقصى ، نفذها غاندى يوما وأفلح . . ولا السلام بمقترب من أمة لا يفصل بينها وبين العدو سوى أسلاك شائكة ومتاريس . فما تعنى تحركات عبدالرحمن بالنسبة لها سوى جهد ضائع ، واستنزاف لقوى الرجل الذى تحب ، واستهلاك للوقت الذى كان عليه أن يقضيه معها ، يطارحها فيه الغرام !

* * *

كان عصرا مطيرا ، وبرد (رام الله) يذبح المفاصل ذبحا . ولكن ما كاد عبدالرحمن يطأ عتبة المكتبة ويدفع الباب الزجاجى للقاعة ، حتى لامس وجهه هواء جاف دافئ حملته مروحة المدفأة الأمريكية الضخمة ، فمسح شعره من أثر الماء ، وخلع معطفه المبتل ، ومشى إلى الداخل ببطء وهو ينظر إلى مناضد القاعة الخالية المهجورة . كان الموظف منشغلا بالقراءة ، وأنوار « النيون» التى تضىء السقف مطفأة ، إلا ذاك الذى يعلو رأس الموظف ، ومكتب سامية الزجاجى مغلقا ومعتما . ووقف الموظف وصافحه من وراء المنصة ، وقال إنه ما من أحد هنا سوى تلك الرسامة الشابة . فهى تداوم على الحضور إلى قاعة النادى كل عصر حتى المساء . . فمشى عبدالرحمن نحو القاعة ببطء ، وفتح الباب الموارب بهدوء ، وفوجىء ببعض قطع أثاث جديدة تحتل المكان : فى الركن الأيمن قبعت مائدة خضراء نصبت فى وسطها شبكة قصيرة ، وبجوار الشبكة مضربان وكرة . وفى الركن الأيسر بجانب البيانو الذى أحضره شكرى كانت هناك قطعة أثاث ضخمة من تلك التى تحتوى آلة تسجيل وجرامفون واسطوانات . وكانت الإبرة تدور فى نهاية اسطوانة ما ، محدثة صوتا رتيبا متقطعا . أما فى القسم الأسفل من القاعة ، فقد أقيم مسرح خشبي طلى حديثا بدهان ذى لون داكن الحمرة ، وقد

غطت المسرح ستارة بيضاء تحوى رسوماً يابانية رقيقة : جذع شجرة متشعب الأغصان ، عار إلا من زهيرات لوز ذات لون زهرى ، محاطة بخطوط بنية شاحبة لتظهر تكوين الزهيرات وتفصل بينها وبين الأرضية البيضاء . وفى ركن بجوار النافذة المسدلة الستائر قبعت بضع أرائك جلدية ، وقد نصبت حاملة لوحات وفيها لوحة لم تكتمل بعد ، وعلى منضدة قريبة ظهرت خشبة الألوان ملقاة بإهمال ، وقد تناثرت حولها أنابيب الألوان بفوضى وإهمال .

كانت القاعة شبه مظلمة ، ولهذا لم ينتبه عبدالرحمن لوجود « سهى » منذ الوهلة الأولى . وكانت الرسامة جالسة على إحدى الأرائك فى وضع ملتو ، وقد وضعت ذراعيها على ظهر الأريكة . ودفنت رأسها فى ذراعها بشكل جعلها تبدو شبه نائمة . . فاتجه نحو الجرامفون ، ونحى الإبرة عن الأسطوانة بهدوء وهو ينظر للشابة ، مخافة إقلاقها . لكنها لم تلبث أن رفعت رأسها ببطء ونظرت إليه بعينين زائغتين ، ووجه قد هدّه الحزن ! . . ولم يبد أنها عرفته أو فوجئت بوجوده ، إذ أنها ظلت تنظر إليه بعينيها الكئيبتين الغارقتين فى ضباب الدمع والحيرة . . فهز رأسه محييا ، وقال مبتسما : « جئت هذا الصباح من نابلس ، وقد مررت بكم لأستعلم عن أخباركم ، فهل من جديد ؟ » . لم تجبه « سهى » ، بل ظلت تنظر إليه بنظرات زائغة مظلمة ، فاقترب منها وهو ينظر إليها ، وتساءل : « مابك؟» لكنها لم تجب أيضا بل أعادت رأسها إلى وضعه السابق ، وعادت لسابق نومها . . فجلس على أريكة مقابلة وأخذ يتأمل وضعها الكئيب ذاك ، ثم التفت إلى اللوحة وأخذ يتفرس فيها. كانت لوحة ضخمة ، لا يقل عرضها عن متر ونصف ، ولا يتعدى ارتفاعها الخمسين سنتيمتراً. وكانت تحتوى خطوطا حادة عنيفة كضربات سكين. والألوان متشابكة متناقضة ، والخلفية قاتمة كئيبة ! فتساءل بدهشة : « منذ متى بدأت ترسمين بهذا الشكل؟ أى نوع من الرسم هذا ؟ تجريدى ، أم تكعيبي ، أم سيريالى ، أم ماذا ؟

لم تجبه . . بل زفرت ، فارتفع ظهرها وانخفض بحركة عميقة . ثم رفعت رأسها ببطء ، وجلست وهى تمد ساقيها فى وضع كسول . كانت ترتدى بنطلونا داكن اللون ، و« بلوفر » أبيض صوفيا ، بياقة ضخمة تغطى عنقها وتكاد تصل حتى منتصف ذقنها . وبدت فريدة الجمال بشعرها الأبنوسى الداكن ، وعينيها السوداوين اللتين زادهما الحزن جمالا وغموضا . وما عتمت أن قالت مهمهمة ، بصوت متحشرج : « أعطنى سيجارة » ، فابتسم وتساءل : « أما من تحية ؟ أما من ترحيب ؟ هكذا فقط : أعطنى سيجارة ؟ » . . فرمقته بعينين تعيستين ، وقالت هامسة : « اعذرنى ، فأنا مريضة ! » . تساءل بدهشة : « ولم تجلسين هنا إذن ؟ لم لا تلزمين الفراش ؟» . هزت رأسها بدون اكتراث وقالت : « هيا اعطنى سيجارة ، فأنا مريضة . » . . فقال باهتمام : « ولكن إذا كنت مريضة حقاً ، فيجب ألا تدخنى ، فالتدخين ضار ، وقد تدمنين ! » . . لكنها هزت رأسها بسخرية : « أدمن ؟ وماذا لو أدمنت السجائر ! وماذا لو أدمنت أى شىء آخر ؟ ماذا لو مرضت ؟ وماذا لو شفيت ؟ ألست زائلة لا محالة ؟ وسيان لو دخلت القبر بخدين متوردين ، أو دخلته بعظام بارزة ، فهيكلى هو الباقى . وسواء كسوت هذا الجسم لحماً ، أو أبقيته جلداً وعظماً ، فالهيكل العظمى هو الباقى . والآن أعطنى سيجارة ، وإن كان لديك ما هو أقوى فأعطنيه ، ولكن لا ، فأنت لا تحمل إلا السجائر . وأنا أعرفك ، أعرف أنك تخاف البرد والرشح والمرض . أما أنا فلا أخاف شيئاً . والآن ، أعطنى سيجارة ! » . . فناولها واحدة ، وأشعلها . ثم سألها بعد فترة صمت : « ما بك ؟ »

نفخت الدخان كثيفاً من فمها ، وهزت يدها التى تحمل اللفافة وقالت بصوت خافت وهى تتفرس فى دخان لفافتها المتصاعد فى حلقات ملتوية : « من أين يأتى الحزن يا عبدالرحمن ؟ » . كانت فى صوتها بحة ، وكلماتها تحتوى مقدارا هائلا من اليأس والقنوط . فابتسم بإشفاق ،

وأشعل لفافة ، وأعاد العلبة إلى جيبه وقال : « لماذا ؟ أحزينة أنت ؟ » . قالت بصوت مخنوق : « هذا هو مرضى : الحزن . ويبدو أنه مرض مستعص . عندما كنت صغيرة ، كنت أظن أن حزنى سيتوقف حين يتوقف والدى عن ضرب أمى ، وعن السكر . وتوقف والدى عن ضرب أمى ، وعن السكر أيضاً ، لا لأنه تاب ، بل لأن الله أخذه إليه . وأصبحنا وحدنا ، مجموعة من الأطفال تعولهم امرأة فى منتصف العمر ، تغسل فى دور الأغنياء . وازددنا فقراً حين أصبح لدى الأغنياء غسالات كهربائية ، فأصبحت أمى مربية أطفال . تربى أطفال السيدات الأنيقات اللواتى يتزيّن بما يعادل عشرات الدنانير ، ويساومن أمى على القروش والدراهم خوفا من أن تسيء استغلالهن، ولكى يقال إنهن ماهرات ومقتصدات ! . . كانت تربى أطفال النسوة المتخمات ، وتترك أطفالها بدون تربية . فنحن عباد الله الفقراء ، الذين وعدهم الله بالجنة والحياة الأخرى فقط ، ما خلقنا لكى يكون لنا مرب سوى الشوارع والأزقة والمصادفات . كنا جياعا . أنصاف عراة ، ينخر البرد أجسامنا . وكانت تلك الحجرة زريبة مظلمة ، وكنت أشعر بذلك كله : بالجوع والبرد ولسعات البق والقمل الحارة . . وكنت حزينة ، وغاضبة . أما أمى فلم تكن حزينة ولا غاضبة ، فقد كانت تصلى . تصلى . تصلى وتركع لله وللناس . وكنت حزينة من أجلها ، وغاضبة من ركوعها للناس . وظلت هى تصلى ، وظللت أنا حزينة وغاضبة . كانت متعبة ، تأتى من بيوت الأغنياء وقد هدها التعب والشيخوخة ، رغم أنها كانت ما تزال فى منتصف العمر ! . . وكنت جائعة ، حزينة ، غاضبة . وظننت أن حزنى سيخفت لو خفت جوعى ، ولكنه لم يفعل . وتحسنت أحوالنا قليلا حين عملت أختى صبية لخياطة ، ونصب أخى بسطة بجوار الدار لبيع الفول والحمص . تحسنت الأحوال ، وكنت مجدة فى دراستى فلم ينتزعونى من المدرسة . وكنت أهوى الرسم ، لكن أحداً فى دارنا ما كان يعلم .

فالفن رخاء لا يتذوقه الفقراء ، هذا ما عرفته من مشاهداتى فى بيت الطبيب الذى كانت أمى تعمل فى داره . وكنت أذهب مع أمى فى الموعد الذى تأخذ فيه ابنته دروس البيانو ! . . وأقف خلف الباب المنفرج ، أسترق السمع والنظر . كانت نقرات البيانو تضرب فى أحشائى ، والأنغام تسيل فى دمى كشعاع إلهى . وكنت أتلوى وجداً وشوقاً للمس تلك الآلة الكبيرة ، وكانت ابنة الطبيب تنال علقة ساخنة قبل كل درس ، إذ يجب على الفتاة المهذبة الراقية أن تجيد القليل من فن الموسيقى كى تقال عنها أشياء جميلة ، وأنا لم أكن أريد أن تقال عنى أشياء جميلة ، كل ما تمنيته هو أن ألمس تلك الآلة ، وأن أسر للبيانو بكل ما يحتويه صدرى من عذاب وغضب . لكن ذلك ما كان لائقا ، فالفن رخاء لا يتذوقه الفقراء . الفن تخمة لا يصاب بها إلا الأغنياء فقط . وقد كنت فقيرة ، وحزينة ، وغاضبة .

* * *

« ورغم أنى ما عدت جائعة ولا مقرورة ، إلا أن إحساساً بالظلم ظل يلازمنى ، وإحساساً بالتفاهة ، وبنكران الناس لى . كنت ساخطة ، وربما ما زلت ، فأخذت أبحث عن العدالة ! رأيت كل شىء منطوياً على الخطأ ، كل شىء ، وكنت أرفض أن أظل نكرة ، كنت أظن أن الشهرة . . والحب . . والجنس . . ستمحو حزنى وغضبى . . لكنه كله عبث . . عبث ! . . وظللت أبحث ، وأبحث ، وأبحث ، عن الجمال . . والكمال . . والعدالة . . واكتشفت أن الفن يحتوى هذا كله . ولكن لحظة الفن تلك مؤقتة . تلك اللحظة التى تبهر الأنفاس بعمقها وصفائها وسحرها ، والتى كنت أود ألا أستفيق منها ، مؤقتة مع الأسف ، أعود بعدها إلى ما كنت عليه من حزن وغضب ! . . فكيف أنجو ؟ لو أننى أعرف فقط . . لو أننى أعرف . . فهل تعرف أنت ؟ قل لى ، أنت أكبر منى ، أذكى منى ، وأعمق منى ، قل لى ، أين الحل ؟ أين أجد كل ما أبحث عنه ؟ » .

كان عبد الرحمن يرقب خلجات وجه « سهى » الملتاعة باستغراق ، فقد كان فيها ما يشد البصر بدون رحمة . وحملقت فى وجهه وسألت بإلحاح : « قل لى ، أين أجد الحل ؟ » . قال بتأمل : « .. كما أن للحزن وجوها ، فللسعادة وجوه أيضا . هناك من يسعدهم أن يكونوا أغنياء ، وهناك من يسعدهم أن يكونوا مشهورين . هناك من يسعدهم أن يتولوا أمور البشر ورقاب العباد ، فيدفعون الأمم إلى الحرب والاقتتال . وهناك من يسعدهم أن ينشروا مبادئ الحب والوداعة والسلام . وأنا وجدت سعادتى فى الحب والمحبة ! » . . فهزت سهى رأسها باستخفاف ، وقالت :

« الحب ؟ ! أنا أخاف الحب رغم بحثى المتواصل عنه . يقولون إنه روح الجمال فى هذا العالم . ولكن الحب يبطر العظماء . أتعرف ؟ عندما أجد من يحبنى ويعجب بى ، ويحملق فىّ بدهشة وإكبار ، لايعود بإمكانى الالتفات لمواهبى الأصلية التى سببت دهشة ذلك الانسان وإكباره وحبه . أنسى كل ما أنا عليه ولا أذكر إلا حملقة ذاك الإنسان وإعجابه ، وأبدأ فى التفكير هكذا : « لوكان باستطاعتى أن أزيده دهشة ، وأزيده حملقة ، وأزيده حباً ؟ ! » . . وآخذ فى افتعال النبوغ ، أى أننى أبدأ بالتمثيل ، والتمثيل صورة وليس أصلا ، فتأتى العظمة التى أدعيها مشوهة ممجوجة . وأثناء ذلك التمثيل أشعر بأنى أقوم بعمل قذر ، بالتزوير مثلا ، أو بإنجاب لقيط ، أو باختلال فى نظام جسمى ، بفقدان المقدرة على التحكم فى عضلاتى وأعصابى . . كما لو كنت أحاول استخراج ضحكة من أعماق ، وإذا بى بدلا من استخراج ضحكة ، أستخرج قيئا ! »

ونظرت فى وجهه وتساءلت بخشونة وسخرية جارحة : « سيدى ، اعذر سوء تربيتى ، لأننى بدون تربية كما قلت لك . اعذر فظاظتى ، فنحن أبناء الشوارع ما اعتدنا النفاق ، ولا اللباقة ، ولا اللياقة ! » . . وتأملت وجهه لترى رد فعله ، فلم تجد إلا عينين هادئتين مستوعبتين . وكانت منفعلة وغاضبة ، تلقى بكل ذلك العبء الذى ترزح تحت ثقله

فى وجهه كما لو كانت تتهمه بأنه كان السبب فى كل ما مرت به من معاناة وعذاب . وكان من الواضح أنها تعانى دواراً داخلياً، أو حمى حقيقية . وبدت تهذى وهى تخاطب نفسها أكثر مما تخاطبه ، فى محاولة تلقائية لإفراغ ما تحس به من تخبط ومعاناة، أصبحا خاصية تميز أبناء هذا العصر القاسى — وقد كانت سهى واحدة من أبناء هذا الجيل المعذب ! —

ثم واصلت : « نحن أبناء الفقر لم نعتد سوى القرف ، كالبق ، والقمل ، والسل . . واهتراء الجلد بفعل الدمامل والتقيح ! وهذه أشياء تقرف ذوى الخدود الوردية ، أمثال « بشار » و « فاروق » ، و « إيفيت » ! هؤلاء طبعا لا يسرهم سماع ابنة سكير هبطت عليها الشهرة فجأة ، فجعلتها ترتدى ثياب البرجوازيين والمثقفين . أنيقة ، تلبس المينى ، تمارس الحب بكبرياء ، تطعّم كلامها بمفردات لغة أجنبية ، وتلقبها الصحف بـ « الفنانة » ! والفن فى هذه البلاد تخمة لا يصاب بها سوى الأغنياء ، مثل ابنة الطبيب تلك ! »

وضربت الطاولة الصغيرة أمامها بغضب واستطردت : « كانت ابنة الطبيب تنال علقة ساخنة قبل موعد درس البيانو ، وكنت أنا بكل ما لدى من أحاسيس ومواهب ، أقف هناك خلف الباب الموارب أتلوى ، أتلوى. فأين العدالة ؟ أين العدالة ؟ قل لى أنت . أنت تعرف أكثر منى البقية : ألا يستحق البشر كل ما ينالونه من حروب وويلات ؟ دعهم يقتتلوا . دعهم ينسحقوا ، فهم غربان لا تقتات إلا بالديدان ! هناك بلاد جعلت من المواهب واسطة لبلوغ الجمال ، ونحن نجعل من الجيوب واسطة ! . . أصبح الفن عبداً للناس بدلا من أن يكونوا عبيداً له . فما معنى هذا ؟ وأين الأمل ؟ . . الفن خلق من أجل بلوغ الحرية ، واسطة للجمال والسعادة ، فهو تعويض روحى يهبه القدر المنصف — ولو أنه ليس كذلك فى الغالب — تعويض للبؤساء كيما ينسوا حرمانهم ، كيما ينسوا تعبهم وعبوديتهم . ولكن الناس قلبوا الأوضاع ، فأصبح الفن تخمة بدلا

من أن يكون غذاء . وبدلا من أن يكون سيدا صار مسودا ، وبدلا من أن يصبح هدفا صار واسطة ، وبدلا من أن يصبح دما يغذى الحياة ، أصبح ضغطا فى الدم ! »

* * *

ومدت يدها مفتوحة بدون كلمة ، ففتح علبة السجائر وناولها واحدة وأشعلها لها . ثم عادت تقول بمرارة : « ولكن فجأة ، يبعث القدر بفقيرة مثلى ، لها عقل يبحث ، ولسان لاذع ، وفعال جريئة ، لتقول إن أولئك الأدعياء ليسوا أكثر من ديدان رخوة ، قذفتها بالوعات البطر والرفاهية ، والكبرياء وقصر النظر ! . . أتعرف الآن لم أهرب من بشار وأمثاله ؟ ولم أخاف الحب ؟ لأنه يبطرنى ، فلا أعود كما أنا . . قطة متحفزة يعابثها طفل شقى مدلل . وأنا تلك القطة ، مخالبى متحفزة ، عيونى متحفزة ، أذناى متحفزتان . أنا كتلة تحفز وتحد . وبالتحفز أظل صاحية محملقة لا تفوتنى صغيرة ولا كبيرة . وبالتحدى أنتج ، أنتج ، وأتحداهم . . هل باستطاعة أحدهم اعتصار روحه كما أفعل ؟ هل باستطاعة أحدهم تحسس نواة الخلق والغوص فى أعمق أعماق اللحظة السحرية الخلاقة كما أفعل ؟ . . هل باستطاعة أحدهم أن يفعل مثلى ، يجاهر بما يحس ، يبصق فى وجه الزيف ، ويغنى للجمال ؟ هل يستطيع أحدهم أن يضرب العالم بحذاء عتيق كما أفعل ؟ هل باستطاعة أحدهم – وهذا أهم ما فى الموضوع – أن يكون صادقاً وجريئاً مع نفسه ومع الآخرين ؟ . . لا ! ما من أحد يستطيع ذلك ، أتعرف لماذا ؟ لأنى لست رخوة ، لست غرابا يأكل الديدان . ولست دودة تأكلها الغربان . فأنا شىء آخر . أنا خارقة ، لأننى فنانة ، لأننى خلاقة . وأنا لست زعيما يكتفى بالتصفيق والمديح فحسب ، لأننى لن أنسى سبب ذلك التصفيق أصلا ، ولن أحاول زيادة إعجابهم بى ، لا لأنى لا آبه بهم وبآرائهم فقط ، بل لأنى لا أريد أن أمثل أو أزيف ، لا أريد أن أفقد مقدرتى على التحكم فى عضلاتى فأتقيأ بدلا من أن

أقهقه . وهكذا فأنا أرفض البطر ، والحب بطر ، فأنا أرفض الحب إذن ، وليكن ما يكون ! »

وأطفأت السيجارة بعنف ، ووقفت تتمطى وهى تحاول المشى مترنحة ، ولكنها عادت وهبطت فى أريكتها من جديد ، وأسندت رأسها على ركبتيها المقوستين ، وأمسكت برأسها تشده وتضغطه . وعادت فرفعت رأسها بعد فترة ، وقالت بصوت باك : « ولكن الحب دفء ولذة ، وأنا كإنسان ، كامرأة ، بحاجة للدفء واللذة . وهذا ما يقهرنى : كونى إنسانا بحاجة للدفء واللذة ! »

واستوت فى جلستها وأخذت تتلفت حواليها ، كمن يبحث عن حل لمشكلة يقع تحت طائلتها. وضربت صدرها وحشرجت : « لوكان باستطاعتى سحق هذا الجسد ، لوكان باستطاعتى قتل مادتى ! » . . وأخذت تتلفت حواليها بذهول . . وتنهدت بعمق ، وقالت بيأس : « أعلم أنى لو قتلت جسدى فسأقتل روحى أيضاً ! لو كان باستطاعتى التخلص من قشرتى لكان بالإمكان أن أصبح إلهاً ! » . . وشدت يديها إلى صدرها وهتفت ووجهها يتقلص ويتشنج : « يا للعذاب! الآن ، الآن ، عرفت من أين يأتى الحزن ، فهل عرفت أنت ؟ . . عرفت بأن صراعى إنما هو محاولة فاشلة للوصول إلى الله والتقمص فى شخصه . قد أصل ، ولكن للحظات ، لأن جسدى يشدنى ، قشرتى تقوقعنى ، جذورى فى الأرض تجذبنى . حزنى لم يسببه الفقر والجوع ، لم يسببه الغضب والتعب ، لم يسببه نكران الناس وتحقيرهم . حزنى كان لضياع الإنسان بين الأرض والسماء ! والحزن هو المفاعل المولد للطاقة وللحرارة . فلو كنت سعيدة لما أنتجت ، ولما فكرت ، ولما تحديت ! إذن فالحزن نار مقدسة ، تكوى لتصقل ، وتصهر لتنقى . وهذا هو الثمن ، ثمن مجدى وألوهية ذاتى ، أليس كذلك ؟ قل لى : أليس هذا هو الثمن ؟ »

هز عبد الرحمن رأسه بأسف وقال : « لكنك ما زلت ضائعة ،

فأنت لم تجدى الحل بعد ، وفنك فيه من رائحة النقمة والانتقام ، أكثر مما فيه من حب وسلام . وأنا أختلف معك ، أنا لا أؤمن بنظرية الفن من أجل الفن . أنا أؤمن بأن الفن رسالة ووسيلة ، وأن الفنان مشعل يضيء الدروب المظلمة للمتخبطين والحائرين . وأنت لم تقللى الحيرة فى هذا العالم ، بل زدتها ، وقد منحت المتخبطين تفسيرات فلسفية لتصرفاتهم غير المجدية ، فأين الحل ؟ ابحثى عن الحل أولا ، أو على الأقل ، فلتكن لديك النية لذلك. هذا هو المطلوب منك كفنانة، وكمثقفة ، وكإنسانة! »

أخذت تحملق فى وجهه بعينين زائغتين . وكانت أعماقها تئن بلوعة : « ولكن أين أجد الحل ؟ كيف أجده ؟ أنت تقول إن الحب هو الحل ، وأنا أقول إنه ليس كذلك . تقول إن الفن رسالة ووسيلة ، وأنا أقول إن الفن هدف . أنت تنشد سعادة المجموع ، وأنا لا آبه إلا بنفسى ، فكيف أبحث عن الحل لديك ؟ وأنا لا أثق بك ؟ »

* * *

ونهضت متباطئة ، وقالت بذهول : « فلنستمع إلى شيء من الموسيقى ! » ، واتجهت نحو الجرامفون ، ووضعت الإبرة على الأسطوانة الكبيرة ، فانبعثت أنغام « تشايكوفسكى » رقراقة عذبة ، مغردة . فقد كانت البجعة ما تزال ترف بجناحيها ، والأمير العاشق يدور ويدور ، والأسطوانة تدور . . تدور . . ورأسها يدور . . « عبثا أبحث عن حل لهذا المأزق . إنى أبحث عن الحياة حتى أجدها ، وعندما أجدها أهرب منها ! أخاف أن تبطرنى وتنسينى سر وجودى ومعنى حياتى . وأغوص فى أعماق التساؤلات وأتخبط ، وأقرر أنى ما خلقت للحياة العادية، وأعرف أنى لو وجدت الحل فسأجد الطريق ، وإذا وجدت الطريق فسأعيش الروتين وسأصبح عادية ، مجرد إنسانة عادية مرت بهذا العالم مرور الكرام دون أن يكون لمرورها أثر أو بصمة . ولكنى ما وجدت لهذا السبب فقط ، كى أعيش كإنسانة عادية تأكل وتشرب وتبحث عن الحب ! . .

وأعود لفلسفتى المريرة — رغم أن مدعي الفن قد شوهوها ! — فلسفتى التى تقول إن « لا خلق إلا عن طريق الألم . . عن طريق الحزن والوحدة ، فى الحزن حل ، والحل هو الفن ، وهو الإبداع ! »

وصاحت فجأة كمتهم يدافع عن نفسه : « الحزن يجعلنى أعيش حالة صراع دائم ، بين صراع الألم من حزنى ، واللذة الدفينة التى يولدها الحزن فى أعماق : لذة الانتصار على نفسى . لذة الشعور بأنى بطلة ، وأنى خارقة ! »

ولم يجبها ، فقد كان يعلم بأن هذا الحديث غير موجه له ! وكانت تذرع القاعة أمامه ، فارعة الطول ، جميلة القوام ، شعرها يتناثر على ظهرها بفوضى ووحشية . خطواتها مترنحة كما لو كانت تقع تحت تأثير منوم أو مخدر ! وخطر بباله أن يسألها : أهى فى حالة طبيعية ، ولكنه عاد وصمت واكتفى بمراقبتها .. فلم تلبث أن نظرت إليه ، ثم أشاحت عنه متحدية ، وهى تحدث نفسها . . « يعتقد بأنى مجنونة ! آه ، الأبله ! حتى هذا الرجل ، حتى هو كنت أعتقد بأنه أرقاهم ، لكنه واحد منهم ، مجرد رجل . ولكن مالى وله ، فلدىّ ماهو أهم منه ، فأنا أبحث عن الحقيقة .. أبحث عن الحقيقة . . أغوص أكثر . . أكثر . . وأبحث . أترانى مريضة تتلهى عن ضياعها بتحطيم لعبتها . . وأنا لعبة نفسى ؟ ! أترانى مجنونة فى ثياب مفكرة ؟ والجنون ليس تيهاً فى الشوارع والأزقة ، ليس شعراً منفوشاً وثياباً مزقتها أظفار الغضب والتمرد على العقل فحسب ، فالجنون أنواع ، فهل ما ينتابنى واحد منها ؟ »

وصرخت بعذاب : «من أين أتيت ياحزن ؟ من بعث فى طابك ، ومن استدعاك واستجار بك ؟ » . . فنهض عبد الرحمن وقال ، مشفقاً : « أنت السبب . أنت السبب .. الحزن ما أتاك من تلقاء نفسه !

أنت التى بعثت فى طلبه ، أنت التى استدعيته واستجرت به ! » فصاحت بعذاب ودموعها تغرق وجهها : « أهكذا يستمر ضياعى وتخبطى وحزنى ! ! حتى متى ؟ قل لى ، حتى متى ؟ » . فقال وهو لا يزال واقفاً : « وكيف أستطيع أن أقنعك ؟ ، ما من أحد يستطيع إقناعك إلا أنت ، فالحل فيك ، فى داخلك ، لكنك ترفضينه ، فكيف أساعد من يرفض مساعدة نفسه ؟ ! » .. فوقفت أمام اللوحة وقالت : « عندما أمسك بريشتى لألون بها قماشة بيضاء ، أرى أن كل ما أقوم به ليس سوى عبث أطفال . فأنا سخيفة ، مغرورة ، تائهة ، ولست سوى واحدة منهم ، واحدة من قطيع الخراف ، والسكين بانتظارى ! أكاد أحس بنصله فوق عنقى . . ومهما تحديت القدر ، فسأظل واحدة منهم ، واحدة من قطيع الخراف ! ومهما ارتفعت فستظل دنيويتى الزائلة تذكرنى بعبثية وجودى ، وبأن كل شىء زائل . . إلا الموت ! . حتى الفن زائل .. حتى الفكر زائل .. حتى الكرة الأرضية بأكملها .. فمن يبقى ؟ من يبقى ؟ وماذا يبقى ؟ ! » .. ووقفت فى وسط القاعة وقد شبكت ذراعيها حول صدرها ، كمن يحاول وقاية نفسه من شر أو هلاك ، وهمست بصوت كالفحيح : « من ينجدنى مما أنا فيه ! من ينجدنى من عقلى ، ومن عذابى ومن جنونى ! بحثت عن معنى ، فما وجدت سوى الفراغ ! »

وهومت بيدها فى الفراغ ، وقالت بذهول : « ماوجدت سوى الفراغ ، فراغ ، فراغ ... وها أنا ذى أطلب مساعدتك ، لكنك مثلهم ضعيف . كلكم ضعفاء ، فكيف يمد الضعيف يد المساعدة ! وكلكم خبثاء ، فكيف يحب الخبيث صالح غيره ! وكلكم جبناء ، فكيف يقوى الجبان على مواجهة الأذى ! كلكم أنانيون ، فكيف يعطى الأنانى ، وهو يفتقد روح العطاء ؟ » . . فتساءل عبد الرحمن بأسف :

« أواثقة أنت بأن هذه التهم لاتمسك أنت أيضاً ؟ »

وراحت تحدث نفسها : « لن يفهم سر حزنى ، ما من أحد فهم تعاستى . ولن يفهموا ما أريد ، فهم يعتقدون أنى إنسانة هوائية غرتها الدنيا ومظاهر الحياة السطحية . وسأظل غريبة عنهم وسيظلون أغراباً ، وأظل وحيدة . . وحيدة . . وحيدة . . ضائعة تبحث عن سر الوجود ومعناه ، وعندما تظن أنها وجدت جواباً ، لسؤالها ، تكتشف أن للجواب سؤالا بحاجة لجواب ! . . للجواب سؤال . . وللسؤال جواب . . وهكذا . . وللحل لغز . . وللغز حل . . وهكذا . . والحب حل للوحدة ، والوحدة حل أبتعد به عن غربة الناس وغرابتهم ، وغربتى وغرابتى . . وعن التذكير بأن كل شيء عبث ، لأن كل شيء زائل . . ولا خلاص غير الموت ! »

١٥

وكانت قد قطعت القاعة ذهاباً وإياباً عشرات المرات ، وقد أخذت دموعها تسيل ، وهو ينظر إليها ويدخن . كان يعرف ما بها ، ولكن ما هي الطريقة لإقناعها ؟ ! . . ثم جلست على الأريكة بارتطام ، ونشجت بقلب يتمزق : « حتى الفن زائل يا عبدالرحمن ، حتى الفن زائل . فلم التعب ؟ ومن أجل من ؟ ولماذا ؟ ! » . وطأطأت برأسها وقالت بأسف واعتذار : « اعذرنى . . أنا آسفة ، فإنى أهذى . أعرف هذا . وقد اعتدته ، وقد اعتادنى الناس هكذا . . أنا أعرف فيم تفكر ، تظننى مجنونة ، أليس كذلك ؟ اعترف ، هيا اعترف ! » . . لكنه قال بهدوء :

ــ بالعكس ، فأنت فتاة ذكية ، أنت فنانة أصيلة .

صاحت بتشنج : « فنانة ؟ ياللتعاسة ! حتى الفن زائل ! . . الفن ، معبودنا يا عبد الرحمن ، إلهنا العظيم ، دفء أرواحنا الهائمة ،

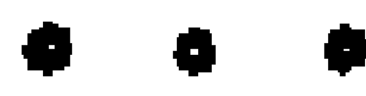
خمرة نفوسنا العطشى ، هدانا وملجأنا ومأوانا فى الفراغ والوحشة والتشرد . . حتى الفن زائل ! » . . وأخذت تشهق وتزفر ، ودموعها تنهمر بغزارة !

ومرت فترة صمت كئيب ، كان خلالها يفكر فيما يتعين عليه أن يقول : أيقول لها إن الله رحيم ؟ وإن ضياعها يكمن فى تهربها من الواقع والمسئولية ؟ ستتهمه بسوء النية . أيقول لها إنها متشائمة بدون مبرر ؟ ستتهمه بالسذاجة والقصور . وأخيراً قال بصوت هادئ : « انظرى » ! ومد يديه مبسوطتين أمامها : « أترين فرقاً بين هذه الأصابع ، وأصابع أى موظف صغير فى مصرف أو وزارة ؟ أوحتى بينها وبين أصابع أى عامل كادح ؟ » ولما لم تجبه واصل : « هناك فرق بالطبع ، فأصابع ذاك قد تكون أقوى وأصلب بالتمرس لا بالخلقة ، وأصابعى أرق وأنعم . فهل تكون أصابعه أقوى من أصابعى ؟ قد تكون أصابع العامل أكثر تأثيراً فى الصخر ، لكن أصابعى أكثر تأثيراً فى القلب والفكر والحواس ! باستطاعتك تشبيه أصابعى هذه بأصابع طبيب جراح . والفرق أن هذه تحمل الريشة والقلم ، وتلك تحمل المبضع . المبضع يجرح ، وريشتى وقلمى يفعلان الشىء ذاته ، المبضع يشرح اللحم والجلد والعضل ، أما ريشتى فتشرح العقل والقلب والخيال . قد يكون الألم الذى يحدثه المبضع أحد وآلم ، إلا أنه سطحى ومؤقت . أما جرح ريشتى فباعتقادى أنه أكثر إيلاماً ، لأنه أكثر توغلا ! . . والمبضع يجرح كى يشفى ، وريشتى تجرح كى تشفى . واليد حاملة المبضع تقسو لترحم ، ويدى تفعل الشىء ذاته ، إذن فالفنان طبيب روحى ، جراح يستعمل ريشته وقلمه ليحدد المكان المعطوب ، ليستأصل الورم الخبيث قبل أن ينمو ويتفاقم . ولكى يكون الإنسان فناناً ، عليه

أن يكون مفكراً . فالفن فكر قبل أن يكون مهارة . والفكر هو أرقى ما يملكه الإنسان ، لأنه المخطط حين تستعصى الحلول ، وهو المدبر حين تربدّ المحن ، وهو الهدى حين يعمينا الضلال . . والغريب ، الغريب أن يكون الفنان الواعى ، أى الفنان المفكر ، هو أكثر الناس تخبطاً ، أكثرهم حساسية ، وأكثرهم شقاء . فهو كمن يحمل مصباحاً ينير به كل الدروب إلا دربه ، ويحل كل المعضلات إلا معضلته ، ويقنع كل الأدمغة إلا دماغه ! »

وزفر بتأمل ، ثم قال شارداً : « والفنان الأصيل هو أكثر الناس شقاء ، وهو أكثرهم سعادة ! » . وضحك بمرارة وتساءل : « أليس هذا غريباً وشاذّاً ؟ » . ولم تجب ، فعاد يقول بتأمل : « أكثرهم شقاء لأنه أكثرهم تحسساً ليس لآلامه فقط ، بل ولآلام الآخرين ومصائبهم . فالظلم قبر فى نظره ، والكذب رذيلة مرّة ، والزيف سجن لايطاق . انه يحس بالأشياء مضاعفة ، مكبرة بمجهر ، وعندما يصيح بألم وغضب ، يتعجب الآخرون ويتساءلون : « لم كل هذا الضجيج ؟ المسألة لا تحتاج لكل هذا العذاب ! ! لماذا يقولون هذا ؟ لأن أحاسيسهم غير مضاعفة ولا مكبرة ، وربما كانت منقوصة ، فى حين أن أحاسيس الفنان غير عادية . ولكن ما العادى وما غير العادى ؟ .. العادى هو ماتمتلكه الغالبية العظمى من الناس ، ما يمتلكه الإنسان العادى . إذن فأحاسيس الناس التى نراها أنا وأنت منقوصة ، هى الأحاسيس العادية . أما أحاسيسنا فهى غير العادية ، لأنها مضاعفة ، ولأنها مكبرة ، فهل يحق لنا أن نفخر ونفاخر بما نملك ، أو نداري مشاعرنا التى تثير سخرية الناس ودهشتهم ، لا لشىء إلا لأنها أحاسيس مضاعفة ؟ هنا يبرز دور الفنان ، فالفنان هو القائد ، ولهذا فإن عليه أن يكون شجاعاً ، يواجه الضعف ويواجه الخطأ ، بل يصرخ فى وجه الخطأ : « هذا

خطأ ! » . وعندما يسخرون ، يردد ثانية وثالثة : « هذا خطأ ! » . وعندما يفتشون عن زلاته وعثراته التافهة ليحاربوه بها — كما يحدث دائماً — ليثبتوا أنه ليس الأقوى وليس الأحسن ، لا ينفك الفنان يردد : « هذا خطأ ، ولن أمتنع عن رؤيته كذلك ولو قلبتم عالىّ سافلا ! »



وكانت الغيبوبة قد بدأت تتلاشى عن ذهن سهى ؛ ففتحت عينيها على سعتهما وهى تتلقف كلماته بلهفة .. فى حين واصل هو : « ونحن حين نقرر ، أو بالأحرى حين يقرر التاريخ أن الفنان هو الأقوى ، فلا يعنى هذا أنه معصوم من الخطأ والزلل . أبداً ، فنحن بشر ، لنا أجساد تحتوى الغرائز ، وأفواه تتلهف للمذاق المترف ، ومعدات تتحرق شوقاً للامتلاء . ولنا زوايا مظلمة ، وفى نفوسنا غابات بدائية لم تهذب بعد . تحتوى الخبيث ، وتحتوى الأنانية وحب الظهور ، تحتوى الكثير من الخطأ ، فهل نظل الأقوى رغم هذا ؟ » .. والتفت إليها موجهاً نظراته المستكشفة ، وكانت تتابع حركاته وكلماته ، فقالت وهى ترخى أجفانها بيأس : « لا أدرى ، يخيل إلىّ أحيانا أنى أضعف الناس وأسخفهم ! » . . فقال عبد الرحمن متأملا :

— أتعرفين لماذا يظل الفنان هو الأقوى ؟ لأنه صاحب الضمير الأنظف . فالفنان يخطىء ، والعادى يخطئ ، ولكن ضمير الفنان أقسى على صاحبه من ضمير الفرد العادى . وهكذا يكون عذاب الفنان أشد وأكثر إيلاما . والفرد العادى يمر بالمشاكل والعقد ، ويتألم ويتعذب ، ولكن آلام الفنان تكون أحدّ وأقوى ، لأن حساسيته مضاعفة . والفرد العادى عندما لا يمر بالتعقيد يشعر بالارتياح ، أما الفنان فيهرب من الارتياح قصدا ، خوفاً من أن يؤدى به الارتياح إلى البطر ، فتتخفت حساسيته ، ويخفت وهج ضميره ! . . إذن

فهو الباحث قصداً عن الألم ، وحتى لو لم يجده فى طريقه ، فهو يبحث عنه فى طريق الآخرين ، وهكذا دواليك . أترين ؟ إنك لست أول فنان قاسى . هذه سنة الطبيعة ، طبيعة الفنان !

قالت بحسرة : « إذن ، فقد كتب علينا أن نعيش التعاسة المضاعفة ؟ » . قال مبتسماً : « وأن نعيش السعادة المضاعفة أيضاً ، فهناك تلك اللحظات السحرية التى نمر بها ، أنسيت ؟ » قالت ، وعيناها تهيمان فى آفاق بعيدة : «نعم ، هناك ذاك الضياء الذى يغمر العالم بفيض لا ينقطع من النور والجمال » . وأسدلت جفنيها بحسرة : « ولكنه لا يدوم ، فهو سريع الأفول ! » . قال بتفهم : « ولهذا نظل أكثر اشتياقاً إليه ، ولو طالت مـدته لاتخذ بعض صفات الروتين ، فيصبح عاديا ، ومملا ! » . قالت بثورة : « لكن لحظات التعاسة أكثر بكثير . أنا لا أسعد بقدر ما أشقى ، ولحظات الحزن أضعاف لحظات السعادة ! » .. فسألها وماذا تريدين إذن ؟ أن تبادلى كل لحظة شقاء بلحظة فرح؟ المسألة عندئذ تصبح مقايضة ، وقد تصبح تجارة ! » . قالت بدهشة : « نعم ، تصبح تجارة . تصبح مادة ! » . قال بعطف : « هل فهمت ؟ » . قالت بشرود : « فهمت . . فهما يحتوى طعم المرارة ! »

تساءل ، وكأنه لم يسمع كلماتها الأخيرة : « وماذا عن بشار ؟ » حملقت فى وجهه بشراسة وصاحت : « أنت قمئ ! » . قال بهدوء وهو يرفع يده بالتحية : « شكراً ! » . صاحت : « لم سألتنى عن ذاك المسخ ؟ لقد كنا فى الأعالى ، وأنت لا تريد إلا أن تهبط بنا إلى أسفل قرار ؟ » . تساءل : « بشار مسخ ؟ » . . « نعم ، وتافه وسخيف ! » . . « وفاروق ؟ » . . « حرباء ملونة ! » .. « وإيفيت ؟ » . . « حمقاء تستحق صفعة ! » . . « وشكرى ؟ » . . « طبل أجوف » !.. « وسامية ؟ » . . حملقت سهى فى وجه عبد الرحمن

وقالت بتحد : « سأقول لك ، حتى ولو كانت حبيبتك : سامية امرأة مهووسة ، تقتات بالأحلام وتعيش على هامش الواقع ! »

هز عبد الرحمن رأسه وعاد يتساءل : « وسميرة ؟ » فأجابت : « فتاة ذكية ، لكنها كسمكة مجففة ، فهى بدون عواطف ! » . . فسألها : « وأنا » ؟

ـ سأقول لك (وقد صممت على اختراق حاجز الزيف والتملق ، وأخذت على عاتقى كشف الخبايا !) : أنت أفضلهم ، لكنك مغرور وحاقد . نعم مغرور ، فلن أنسى مواقفك أمام الصحافة وأثناء المحاضرات التى ألقيتها ، لقد كنت تتقمص شخصية الخارق ، أليس هذا مضحكاً ؟ هل تعتقد أنك خارق حقاً؟ هاها .. ياللسخرية!

وأخذت تقهقه وهى تتلوى بعصبية وجنون ، وهو يتأملها بصبر وهدوء .. ثم واصلت : «إنك مضحك بالفعل .. وحاقد . . يامسكين ، تلك المرأة المهووسة مازالت تركض وراءك مقطوعة الأنفاس لتثبت لك إخلاصها وأمانتها ، وهى بلهاء لا تعرف أن العاطفة مصيرها إلى البرود والزوال ، فقد تنساك غدا ، كما نسيتك فى الماضى ، فهى ليست أكثر من خائنة . يالكم من مساكين ، كلكم تثيرون السخرية . . هاهاها ! » . . فهز عبد الرحمن رأسه بحزن : « نعم ، هذا صحيح ، هذا عين الصدق والصواب . كلنا كما ذكرت تماماً ! » . . فقالت بكبرياء : « وها أنت ترى أن أحكامى لم تكن خاطئة ! »

ـ وأنا أكثر الناس اعترافاً بذكائك ! ولكن حاشا أن تنصبى نفسك إلهة تقرر مصائر البشر ، تبحث عن أخطائهم لتصفعهم بها ، تعريهم لتضحك من تشويههم وضآلتهم . تبرز نقاط ضعفهم لتعيّرهم وتزيد من تعقيدهم ومرارتهم وسخطهم . نحن لسنا آلهة يا « سهى » ، ولن ننصب أنفسنا آلهة تقرر مصائر البشر . فأين الديمقراطية إذن ؟ أتفهمين الآن ما تعنيه الديمقراطية ؟ . أنا

أرحم الخاطئ ، لأنى خاطئ أيضاً ، فى أعمق أعماقى أحتوى روح الخطأ ، أقاوم الخطأ ، أقاومه ، أنتصر عليه لحظة وينتصر علىّ أخرى . وقد أكون أقدر الناس على مقاومته . لماذا ؟ لأنى من الأذكياء ، وذكائى خيّر ، أما لماذا كنت ذكيًّا ، وكيف كنت خيّراً ، فتلك ظروف ، وبيئات ، ومواهب . الظروف تحكمنى ، عاطفتى تحكمنى مهما ادعيت الاستقامة ، معدتى تحكمنى مهما تقشفت ، والناس يحكموننى لأنى منهم ، والمجتمع يحكمنى لأنى حيوان أليف ، وجسدى يحكمنى ، قشرتى تقوقعنى ، جذورى فى الأرض تجذبنى ، ولو كان باستطاعتنا سحق هذا الجسد ، والتخلص من هذه القشرة ، لكان بالإمكان أن نصبح آلهة !

ونظر إليها وابتسم بعطف : « إنك قد كشفت عن تعاستك وإحساسك بالنقص والتفاهة . وتحاولين الهرب من هذا الإحساس بتقمص دور المتفوقة ! » . . فاستدارت بوجهها تخبئ دموعها وخزيها . وإذ ذاك قال بهدوء : « قلت إنك تشعرين أحياناً بأنك أضعف الناس وأسخفهم . وأنك تصارعين قوى لا ترحم ! » . . ولم تجب ، كانت دموعها ماتزال تنهمر ، فقال بهدوء حزين : « الله هو روح الجمال ، روح المحبة ، روح العدالة . وأنا أحب الجمال لأنى ميال للخير ، ميال للحب والعدل والتسامح ، والجمال يشتمل على كل هذه العناصر . . فأنا أحب هذا الجمال وأعبده ، ونظرية روح الجمال المطلق التى أتى الفلاسفة بها تعجبنى وقد تبنيتها ، لا لأنها فكرة مثالية تترفع عن كل ممجوج وتافه فحسب ، وتترفع عن أى تفصيل يثير فى نفسى روح التحدى والتساؤل والتمرد . بل لأن الفكرة تناسبنى ، تقنعنى ، وتريح عقلى وروحى ! . . وأنا أومن بأن الله فىّ ، وفيك ، وفى كل إنسان نظيف . نستطيع أن نكون آلهة نفوسنا ، ولا نستطيع أن ننصب من أنفسنا آلهة تتحكم فى رقاب العباد . وإن كانت الظروف تعاندنا وتعابثنا ، فالذنب ذنب المصادفات ،

ذنب الجانب المظلم فى الإنسان . وهكذا ، فأنا أبعد الناس عن الكفر بالله ، لأنى أومن بأنه لا يناقض العدل والجمال والمحبة ، بل إنه روح العدل وروح الجمال وروح المحبة . وكما أن العدل لاينجب ظلماً ، والجمال لا يلد البشاعة ، والمحبة لا تحث على الكراهية ، فالله لا يقسو ولا يظلم . هذا هو إلهى ، إله نظيف، رحيم ، متسامح ، وكل ماعداه وهم وعار وسذاجة ! »

ومرت فترة كانا يدخنان خلالها فى صمت ، ثم تساءل : « وماذا عن بشار ؟ » . ولم تجب ، بل نفضت يدها بلا مبالاة ، فعاد يتساءل : « ماذا عنه ؟ » ، فهمست بضيق : « لقد قلت لك رأيى فيه ! » . ابتسم وتساءل : « مسخ ؟ » . هزت رأسها إيجابا ، فابتسم ثانية وقال : « ونسيت أن أقول لك إننا أنصاف مسوخ كما أننا أنصاف آلهة ، ففيك شىء من المسخ أيضا ! » . فهزت كتفيها وقالت : « ليكن ، ولكنى لا أرى مسخيتك بقدر ما أرى مسخيته . أشعر بأنه صغير وتافه ! » . . ثم عادت تهز كتفيها بتبرم ، وقالت : « أنا لا أحبه ! » . حملق فى وجهها وقال بدهشة : « كنت أعتقد غير ذلك ! » . قالت ببساطة : « كنت أشتهيه ! » . ابتسم وطأطأ رأسه ولم يعقب ، فقالت بحدة : « نعم كنت أشتهيه، ماذا ، ألا يحق لى أن أشتهيه ؟! » ، وأخذ يرقبها بابتسام ، فصاحت : « ألم تشته امرأة أبداً ؟ ».قال : «ومن ينكر هذا ؟ »

حملقت كمن تذكرت فكرة مفاجئة وتساءلت : « قل لى ، من أى نصف تنبع الشهوة ، من النصف المسخ أم من النصف الإله ؟ أم تراك ستدعى بأن الجنس خطيئة وعار وانحطاط ؟ » . قال بتأمل : « هذا يتوقف على نوع الشهوة ، فإذا اشتهت امرأة رجلا تصفه بالمسخ ، فلا أظن أن شهوتها تنبع من نصفها الإلهى ! » . قالت بظفر : « أترى ؟ هذا ما أردت تفسيره ولم أفلح ، أنا أرفض هذه العلاقة لأنها نابعة من النصف المسخ ! » . تساءل بدهشة : « ومن حثك عليها ؟ أنت اخترت وأنت

رفضت ، لقد تخطيت الكثير فى سبيل هذه العلاقة ، وها هى تنقلب إلى علاقة مسخية ، فهل كانت تستحق كل تلك التضحية ؟ » . قالت ساخرة : « تقصد أنى تخطيت التقاليد ، أليس كذلك ؟ حسنا ، أنا لا أعبأ بالتقاليد . إلى الجحيم بكل الناس وبكل التقاليد ! » . . هز رأسه وتمتم مرددا كلماتها : « إلى الجحيم بكل الناس وبكل التقاليد! ». قالت مستفهمة : « ألم يعجبك ما قلت ؟ » . قال وبسمة صفراء على شفتيه : « السكوت أفضل ! »

ــ ولماذا ؟ ألست حرة ؟ ألست ثائرة ؟ أنا لا أعبأ بهم ، أنا حرة !

هز رأسه وتمتم : « وكأننا يا بدر لا رحنا ولا جئنا ! » . ووقف وعقد كفيه وراء ظهره وقال : « السكوت أفضل ، فلنبق أصدقاء ! »

ــ هذا يعنى أنك تخفى الكثير ، وهذا يعنى أنك لم تكن جادًّا فى جدلك ، ولم تكن صادقاً معى ، فمم تخاف ؟ أتخشى غضبى ؟ أتخشى سلاطة لسانى ؟ أتخشى ضياع صداقتنا ؟ مم تخاف ؟ أنا لا أخاف شيئاً ، قل ما تريد ، أرجوك .

ــ لكنى لا أريد قول أى شىء !

وحملق فى وجهها بسخرية وقال بجفاف : « قلت لى إنى قمئ ، وها أنا ذا أثبت هذا ، فأنا لا أريد لأنك أنت بالذات تريدين ، ألست حرًّا ؟ أنا لا أعبأ بك ولا بما تريدين ! » . . فحدجته بنظرات مستخفة ، فتوقف قبالتها وقال : « وأنا حقود أيضاً ، ولهذا أبقيت تلك الكلمات فى مكان ما داخل صدرى لأقذفها فى وجهك فى الوقت المناسب . وأنا مدع ومحب للظهور ، وأنانى وغيور ومغرور ، أنا خليط من أحط الصفات وأحقرها ، أيعجبك هذا ؟ . . ولكن إذا كنت أنا حقودا ، فأنت حمقاء ، أكثر حمقا من زرافة تجعلها رقبتها الطويلة تنظر إلى الناس من عل ، وهى لا تعرف أن رقبتها الطويلة هذه تنتهى برأس صغير بحجم البرتقالة ! » . صاحت بعنف : « اصمت ، فمن أنت لتهينني ؟ » . قال

بسخرية : « سيدتى ، أنا لم أقل أكثر مما قلت'نت ، ولم أجرؤ أكثر مما جرؤت . أترين يا إلهة الحكمة والصواب ؟ لا أسهل من أن ترمى أحكاماً عشوائية فى وجوه الآخرين ! » . صاحت : « لكنك اعترفت بأن أحكامى صائبة ! »

ـ وأحكامى أنا صائبة أيضاً . أترين يا رائعة عصركِ ؟ أنت لا ترين إلا نفسك . تدورين وتدورين وتدورين ، ولكن فى فلك واحد هو ذاتك . وتنظرين للأشياء من زاوية معينة هى زاويتك أنت فقط !

ـ وأيكم لا يفعل هذا ؟ على الأقل أنا يحق لى أن أفعل .

ـ ولماذا ؟ ألأنك من طينة السوبرمان ؟

ـ أتسخر ؟ ألم نتفق على أن الفنان سوبرمان ، أى خارق ؟

ـ أتعتقدين حقا بأنك خارقة ؟ ها هاها .. يا للسخرية ! أنت مضحكة حقا . . أتظنين أنك خارقة ؟

كانت تلك نفس كلماتها ! أليس غريباً كيف نتربص لأخطاء الآخرين ، ونغض الطرف عن أخطائنا ! وكان هذا هو الذى قصد تفسيره ! . . وكانت تقف قبالته تحملق فى وجهه بدهشة ، ورأت منه ازدراء وسخرية واشمئزازا ، وفهمت الدرس جيدا ، فانهارت على الأريكة بارتطام ، وتأوهت بمرارة ، بينما اتجه هو ناحية النافذة يراقب بداية الظلمة فى الخارج . كان المطر مازال ينهمر ، والريح تعوى بصخب ، وداخلها هى أيضا كان يعوى ! . . ولم يلبث أن قال بتأمل حزين :

ـ إنك لست أول من نقم وسخط ، فقد سبقتك فى ذلك الدرب يا أختاه . ربما مررنا بنفس الظروف ، ربما كانت لنا نفس التجارب مع الفقر والظلم والتشرد ، ربما قاسينا مرارات واحدة ، وربما حملنا كفاءات ونفسيات ومواهب متشابهة .. وقد ظُلمت ، قاسيت الظلم فى شتى صوره ، ظلمت كثيرا وتألمت كثيرا فحقدت كثيرا . كرهت حتى لم يعد فى داخلى مكان لأى شعور آخر ، ونقمت حتى بت كتلة من النقمة والانتقام :

كرهت كل الناس ، كل العالم ، كل شيء ، وكفرت بكل شيء !

في يوم بعيد ، قبل خروجنا من فلسطين ، كان والدى مزارعاً فى بيارة برتقال لأحد الأغنياء . ابن صاحب البيارة لم يطق تفوقى عليه فى سباق الركض فأهانني أمام بقية الطلبة ، فرددت على الإهانة بأحسن منها . شتمني فلعنت والده ، صفعني فأرديته أرضاً ، وعندما عدت فى المساء وجدت والدى فى انتظارى وفى يده خيزرانة كسرها على أضلعى . وكرهت والدى . وفى يوم آخر ، وجدت أمى بقع الألوان على أرض الغرفة ، جن جنونها ، وأمسكت بأوراقى تمزقها ، وبألوانى تسكبها فى المرحاض . وكرهت أمى . وفى يوم آخر كرهت إنسانا آخر ، فآخر . ولم يبق واحد إلا كرهته ، وفى النهاية كرهت نفسى . وجاء عام ٤٨ ، فكرهت العرب وكرهت اليهود وكرهت هيئة الأمم والعالم أجمع !

وفى يوم ، وقفت على حافة ذاك الوادى حيث أقطن حاليا ، وكنت مغمورا ومجهولا وفقيرا ، كنت أعمل مدرساً فى إحدى القرى ، أذهب صباحاً ، وأعود عصرا إلى (رام الله) ، وأنام بعد منتصف الليل حين أكون منهكاً من الوقوف خلف لوحة جديدة . فى ذاك اليوم ، وقفت على حافة الوادى ، وتلفت حولى ، كنت وحيدا ، أجلس على صخرة ، تظللنى شجرة ، وأصوات العصافير الدورية ترن فى قاع الوادى السحيق . كانت السماء محمرة الأفق ، ونسيمات خفيفة تهف على وجهى بحنان أذاب مشاعرى . وفكرت فجأة : « أنا بحاجة للحب ، أنا جائع للحب . فمن أحب ؟ ومن سيحبنى وأنا ملىء بالكراهية والنفور ؟ أنا لا أطيق الناس ولا أعبأ بهم ، فمن سيطيقنى ويعبأ بى ؟ »

وأخذت دموعى تسيل على وجهى . كنت أحس بوحدة قاتلة ، وبشوق مريع للحب والحنان . وعند ما عدت للبيت عانقت أمى لأول مرة منذ سنوات طويلة . وحملقت هى فى وجهى بدهشة . وعندما تأملتها وجدتها لا أكثر من امرأة مسكينة جار عليها الزمن ، وشققت يديها آثار

المعارك اليومية . وسخرت من نفسي ، فكيف كنت أطلب التفهم والتقدير من امرأة جاهلة عاشت البؤس وعاصرت التخلف؟! ونظرت فى وجه أبى ، وكان يركع على سجادة الصلاة يبسمل ويتمتم ، كان فى وجهه ما يرمز إلى العبودية والخضوع ، فقد كان عبداً لربه ولصاحب عمله ولوكالة الغوث . وقد عاملنى معاملة العبد ، أى كما يعامل نفسه ، فكيف ألومه ؟ والناس ، كل واحد منهم له حكاية وله عذر ، فكيف أكرههم؟ كيف!!

ومنذ ذلك اليوم أصبحت أخطاء الناس أقل إيلاما لمشاعرى. لماذا ؟ لأنى أتلقاها بقلب المحب ، وقلب المحب ملىء بالرحمة والشفقة والتسامح ، كقلب الأم ، كقلب الله ! . . وأنا أعترف بأن الأمر لم يكن سهلا ، ولكن كل شيء ممكن إذا توفرت الإرادة وتوفر الإخلاص . هذا هو الجمال ، هذا هو الكمال ، هذه هى العدالة . إن مجرد ادعائى البحث عن الحل دون النظر فى داخلى أولا ، يعنى استعراضاً زائفاً لإيمان لا أحس به. أترين أين تكمن ألوهية الإنسان ؟ المسألة تحتاج للفكرة ، والفكرة بحاجة للتطبيق ، وإلا ما نفع الجمال بدون تطبيق ؟ يكون جمالا ضائعاً فى الهواء ، وربما لا يكون . لأنه لا ينعكس ولا يتبلور . . » .

* * *

والتفت إليها ، رآها تحدق فى وجهه الأليف مبهورة الأنفاس . . وهتفت بدون وعى : « أنت رائع ، لم لم أجدك منذ البداية ؟ » . وتقلص وجهها وهى ترى سامية تدخل القاعة وبصحبتها سميرة . وارتفع صوت سامية العميق بفرح : « عبدالرحمن ، كنت أعلم أنك قادم . . » . وقالت سميرة بلهفة : « حمدا لله ، فسيتمكن « ربيع » من رؤيتك ! »

— ربيع . ؟

— نعم ، ابن عمى ، خطيبى ، فهو قادم بعد أيام ، فى أوائل (نيسان).

تساءل ضاحكاً: « يبدو أنك مغرمة به ! » . قالت وهى تشد يديها إلى صدرها : « أعبده » ! ، فهز رأسه وتساءل : « هكذا ! وكيف

يدعون أنك سمكة مجففة ؟ » ، والتفت إلى « سهى » وسألها :

ــ ألا ترينها قد ازدادت جمالا ؟ يخيل إلى أن الحب قد جملها . فبقدر ما تنطوى على حب ، يزدهر جمالها . أليس كذلك ؟

١٦

فى صبيحة يوم الجمعة ، حضرت سميرة للمكتبة برفقة شاب طويل القامة ، دقيق الأطراف ، بالغ النحافة . وقفا فى الحديقة فترة طويلة ، تمشيا بين أحواض « البانسيه » والبنفسج ، وواصلا السير حتى بلغا آخر الحديقة حيث السور الذى يحيط بالمكتبة كلها . كانت لسميرة قصة طويلة مع « ربيع » . أحبته كثيرا ، وساعدته كثيرا ، وانتظرته أكثر . عندما تخرج فى جامعة القاهرة قبل أربع سنوات ، وقع فى حيرة من أمره ، فإما أن يفتتح عيادة صغيرة فى القرية الخضراء القريبة من (رام الله) وبذلك تتاح له الفرصة للزواج من ابنة عمه ، وإما أن يقبل تلك المنحة المزيلة التى قدمتها إحدى جامعات إنجلترا للطلبة الفلسطينيين المتفوقين والتى يحق له بواسطتها الالتحاق بالجامعة مجاناً . ولكن كانت هناك مشكلة السكن والمصاريف اليومية كالمأكل والملبس وبعض اللوازم الضرورية. وربما كانت هناك كتب باهظة الثمن ، وملفات وأدوات وما إلى ذلك. وفى يوم صارح ابنة عمه برفضه لتلك المنحة التى ستعقد مستقبله أكثر مما تسهله ، وقد كانت فى صوته نبرة حزينة متحسرة . وبدا واضحاً فى كلامه وتعبيرات وجهه أنه يتمنى لو كانت المنحة كاملة وتغطى كل نفقات إقامته فى إنجلترا . وكان الموقف مثيرا للعجب والدهشة معاً ، فقد كانا ينتظران تخرجه بفارغ الصبر واللهفة ليتزوجا ، وليحققا بعض ما حلما به ، وها هو الآن متلهف على التخصص أكثر من لهفته على الزواج ، فهل كان حبه لها أمرا مشكوكاً فيه ، أم أن حبه للعلم غلب حبه لها ؟ هذا ما تساءلت عنه سميرة ، ولكنها لم تصرح بتشككها وحيرتها !

أما كيف ابتدأت علاقته بها ، فقد كان ذلك فى الصيف الذى سبق السنة الأخيرة من دراسته للطب . جاء لزيارتهم ذات مساء ، فاستضافوه لبضعة أيام، والأيام امتدت لأسبوعين كاملين. وبما أن ابن عمه المدعو « طالب » كان متغيبا عن البيت باستمرار بسبب عمله فى شركة الأخشاب التجارية ، فقد كانت سميرة تقوم بدور المضيفة والمرشدة معاً . كانت تأخذه وتعرفه على الأماكن والأشخاص ، ويتحدثان فى الأمور السياسية، ويقرءان الصحف ويناقشان الكتب والأفكار، وأحياناً يخرجان إلى الحقول القريبة، يجلسان على صخور الهضبة المطلة على بيادر القمح المحصود ، وعن بعد تغطى المساحات صفرة القمح المخملية . وفى أماكن أخرى حيث ابتدأ الحصاد ، كانت تظهر بقايا القش والتبن كالحة اللون ، وتبدو الأرض بلون كالح أجرد كرأس هرم داهمه الصلع فجأة . أما حيث عمل المحراث بهمّة لقلب الأرض وما عليها من أعشاب وبقايا تصلح لأن تكون سمادا مغذياً حين تختزنه الأرض فى جوفها ، فكانت الترّبة الحمراء الغنية تبدو كسجادة عجمية لها لون الحناء المجبولة بالعنبر .

وفى إحدى الأمسيات مشت معه فى مشوار صامت طويل . كانت الشمس تنحدر فى الأفق البعيد نحو المغيب ، والنسائم الصيفية تهفهف شعرها القصير الأملس ، بينما كسا وجهها الصبيانى تعبير ناعم حساس . كانت ممن يتذوقون جمال الطبيعة بعمق ، وممن يؤمنون بالحب ، وقد كانت مفعمة القلب بحب عميق دارته طويلا ، ولولا كرم الظروف لظل حبها موءودا مدة طويلة ، وربما إلى الأبد ، إذ أنها لم تكن تجيد أساليب جذب انتباه أى شاب ، مهما بلغ تعلقها به ومهما أحست تجاهه من عواطف صادقة وحادة . ورغم أنها عاطفية جدا ، إلا أن شكلها لا يوحى إلا بأجواء العلم والسياسة . فقد كانت طموحاً فى مجال العلم ، وممن ترتاب فهن المخابرات، وتضعهن تحت مراقبة مستمرة !

فى مساء ذاك اليوم ، أمسك بيدها وهما عائدان مع بداية انسدال

الليل على الحقول ، وقال لها بصوت يقطر إحساساً وحناناً، بأنه يحبها، وأنه معجب بها ، وإنها فتاة ناضجة العقل والتفكير ، وهو يحب الفتيات ذوات العقول الذكية الرصينة . وفاتح والدها فى الموضوع ، وبالطبع قوبل الأمر بالترحاب ، وقرئت الفاتحة وكتب الكتاب فى نفس الأسبوع . وكانت الخطة أن يتزوجا بعد تخرجه فى السنة التالية ، وتساعده هى بما ادخرته طوال مدة عملها ليفتتح عيادة صغيرة فى القرية ، وربما أخذ الله بيده وتحسنت الأمور فيكون باستطاعته افتتاح عيادة فى (رام الله) ، أو يذهب للتخصص فى إحدى جامعات أوربا ويعود ليعمل فى أحد المستشفيات الضخمة فى القدس كإخصائى له قيمته . وعند ما عاد من القاهرة حاملا شهادته بامتياز، وأبلغها موضوع المنحة ، ورأت بعينيها الذكيتين مبلغ تشوقه وحسرته ، أبلغته بقلب مخلص ونوايا صادقة أنها على استعداد لمساعدته فيما ينقصه من مال ، فهاك هو المبلغ الذى ادخرته من عملها فى انتظاره ، كما أنها لن تكف عن ادخار مبلغ شهرى ثابت ليكون تحت تصرفه عند الطلب . ورفض فى البداية هذه التضحية بنفس أبية ، ولو قال لها يومئذ إنه متلهف على الزواج منها أكثر من لهفته على التخصص لانتهى الموضوع ونفذا المخطط القديم . لكن رفضه ذاك كان يحمل معنى آخر ، إذ أنه رأى فى مساعدتها له نوعاً من المعروف الذى هو فى غنى عنه ، فمن غير اللائق أن يمد يده ويأخذ منها تلك المبالغ وهو ما زال خاطباً وليس زوجاً ، كما أن والدته حذرته من الذهاب إلى أوربا قبل الزواج من ابنة عمه ، فقد يحدث مالا تحمد عقباه فيحب أجنبية تسلب عقله وماله ، فتنسيه بلاده وابنة عمه . وتحت إلحاح ابنة عمه المحبة الذكية قرر قبول المساعدة ، وسافر على أمل أن يعمل فى أحد المستشفيات هناك فلا يضطر لاقتراض مبلغ كبير منها ، لكنه وجد مستشفيات إنجلترا تختلف عن معظم جامعات أوربا ، إذ أن طريقة التخصص تتم عن طريق محاضرات ودراسات نظرية ، فلا يجد الطبيب

مجالا لممارسة المهنة إلا بعد التخرج نهائيا ، وهكذا استمر يبعث فى طلب النقود ، واستمرت هى فى إرسالها !

* * *

وعندما دخلت « دوروثى » حياته ، لم يكن يقصد إلا ادخار بعض التجارب فى ميدان النساء ، فسدت عنده فراغاً كبيراً كان يعانى منه . . . ولم يتوقف الأمر عند ذاك الحد ، إذ أن كل يوم مر على علاقته بدوروثى زاد من تعلقه بها ، ووقوعه فى أسر عواطفها الخارق ، على عكس ما كان يتوهمه عن فتيات البلاد الأوربية الباردة . وزاد من خضوعه لعبودية هذه العلاقة أن الفتاة كانت متحررة ، تملك التصرف فى حياتها ووقتها وظروفها كما تحب ، ولم تفرض عليه مقابل استمتاعه بصحبتها أى ثمن أو جزاء . . ولا طالبته بالزواج ! . . فاستمرأ هو هذا المورد السهل ، وأدمن هذه العلاقة التى تعمقت بمرور الأيام ، حتى بات يجهد ذهنه للبحث عن مخرج من حيرته بين الفتاتين . وفى البداية كان يكتب إلى ابنة عمه باستمرار ، لكنه مع ازدياد تعلقه بدوروثى قلت رسائله ، وكم كان يتمنى لو أنه ما كان مديناً لها بتلك المبالغ وتلك الخطبة ، إذن لكان من السهل التخلص منها ، أو على الأقل لمنح فترة أطول للتفكير والتحقق من عواطفه ومشاعره . وعندما تأهب للسفر إلى وطنه فى أجازة الصيف ، أحس بروحه تفارقه ، وبكى على صدر دوروثى كطفل ينتزع من حضن أمه ، وناما فى الليلة الأخيرة كل منهما بين ذراعى الآخر ، وقد بلل الدمع وجهيهما ووسادتهما . ووعدها بأن يفعل المستحيل للخلاص من ابنة عمه ومن ديونها ومن خطبتها ، وها هى ذى تنتظره الآن ، تنتظر منه أن يبعث فى طلبها ، أو أن يرجع إليها ويعيش فى بلادها ، أو على الأقل أن يبعث خبراً يقول فيه إنه قد بات حراً !

وعندما اجتمع الأقارب فى دار العائلة لاستقباله ، كان عمه « أبوطالب » هناك ، فتلقاه بصدر مفتوح وآمال شاهقة . وربت على ظهره بفخر واعتزاز ، وقال له ما معناه إنه لم يبق إلا أن يتم التوفيق الذى

منّ الله به عليه ويتزوج ، وينجب أطفالا . . وقال له ابن عمه طالب بلهفة ، إن سميرة تنتظره على أحر من الجمر ، وإنها كانت تود لو جاءت معهما، لولا علمها بأن الدار ستكون مكتظة بالمستقبلين والزوار ، ولكنها ستنتظره فى صباح الغد ، فالغد يوم جمعة ، وهو يوم عطلة سميرة الأسبوعية . وفى الغد خرج الجميع لاستقباله منذ وصلت سيارة الأجرة التى أقلته حتى درجات الحديقة ، وعندما دخلت سميرة غرفة الجلوس حيث أجلسوه والتفوا حوله ، أصابته رجفة وأحس بدماء الخجل تكتسح وجهه. وصافحته بحرارة، وأخذت تتفحصه بنظرات ضاحكة مستطلعة ، فادعى الخجل والتهذيب ليخفى بروده وجفافه،حتى مر الموقف بسلام.

وعندما سألته إذا كان يحب الخروج للنزهة أو زيارة بعض الأماكن التى اشتاق إليها ، طلب منها أخذه لمكان هادئ بعيد عن ضجيج الأهل والأصدقاء ، لعله يجد هناك فرصة مناسبة لإطلاعها على الموقف ، وقد يستطيع إيجاد حل لهذا المأزق ، وقد تتفهم موقفه فتريحه من تلك الخطبة المفروضة ! . . وحين جلسا أخرج من جيبه علبة سجائر أجنبية وقدم لسميرة واحدة ، رفضتها باعتذار وابتسام . وكانت عيناها الذكيتان تتفحصان وجهه وثيابه وحركاته . لكم تغير ! ! لكم يبدو هزيلا وشاحبا ! وجبهته مقطبة مغضنة ، ونفثات الدخان كثيفة وثقيلة ، ونظراته ضعيفة وتائهة . والتقت نظراتهما ، فابتسم بتكلف فى عينيها الضاحكتين المستطلعتين ، وقال مداريا حرجه : « كيف حالك ؟ » . فأغمضت عينيها بحركة سريعة وفتحتهما كمن تريد قول أشياء كثيرة بحركة واحدة . وامتص نفساً طويلا من السيجارة ، فقد كان فى حركتها تفاؤل أشفق أن يزجره ! . . كانت فرحة به ! . . وقالت بصوت مرتعش من أثر اللهفة : « لم تكتب كثيرا فى الفترة الأخيرة ! » ، وابتسمت . فتأمل ابتسامتها ولهث ، وقال بغموض : « كانت الدراسة شاقة فى الفترة الأخيرة» ورأى أن واجبه أن يضيف كلمات مجاملة ، فقال بسرعة : « قلة الكتابة

لا تعنى النسيان ! » . قالت بلهفة : « أعرف ، وقد عذرتك . » .قال بصوت مرهق : « أحس بالتعب ، وبالصداع . » . . فقالت بلهفة : « ماذا بك ؟ » . ورآها فرصة مناسبة للهرب من حرجه ، فقال وهو يتحسس جبهته : « لقد أصبت بمرض شديد فى الآونة الأخيرة » . قالت بانزعاج : « بم أصبت ؟ » . قال باستسلام : « كبدى متعب ، يرقان ، وأنيميا ، والتهاب اللوز المعهود ! » ورأى نظراتها الجزعة ، فضحك وقال مستهينا : « لا شيء يستحق الخوف والجزع . » . فطأطأت رأسها وابتسمت وقالت : « جو هذه البلاد سيعيد إليك لونك وحيويتك» ، وأمسكت بيده وقالت ببساطة ومرح : « تعال أعرفك بأصدقائى ، وسأريك نادينا الجديد . » . ووجدها فرصة مناسبة للهرب من هذا الجو الحرج المشحون ، فرحب بالفكرة . . ومشى معها على الممر المعشوشب المبلل . كانت أحواض « البانسيه » بعيونها المخملية وأوراقها الخضراء تضحك بلهفة لشمس أبريل (نيسان) الجميلة ، وقد انفتحت بعض الزهيرات على سعتها كاشفة للعالم ألواناً تغرق الإنسان بموجات دفء لا يحاكيها إلا دفء الطبيعة وجمالها. وعبثت نسمة طرية بسيقان النرجس وتساقطت بضع قطرات من كؤوس الزهر بصمت وخشوع . ورفعت سميرة رأسها إلى أعلى ، ورأت أغصان الخشخاش تحمل أفواجاً من النوار الأبيض . ومن خلال الأوراق الخضراء اللامعة بعد اغتسال ، ظهرت السماء صافية شديدة الزرقة ، والشمس متوهجة الشعاع . . فأغمضت سميرة عينيها ووقفت لاهثة تحت عمود من النور الدافئ وتمتمت بقلب أفعمته السعادة وخدره الجمال : « ما أجمل الدنيا ! » . ومنعها خجلها عن التعبير عن كل ما أحست به من سعادة وفرح ، فقد كانت تود لو قالت إنها اليوم ، واليوم بالذات ، ترى ألوان « البانسيه » أكثر جمالا ، ورائحة زهر الخشخاش أكثر نفاذا ، وسيقان النرجس أكثر رشاقة ، والسماء أكثر تألقاً ، لا لأن (آذار) الماضى كان أبخل من

أن يمن على الوجود بأيام مشرقة كهذه ، بل لأن وجوده هو بالذات كان سر الجمال وسر الربيع :

وابتسمت وهي تفكر : . « لقد جاء « ربيع » ليذكرني بالربيع ! ». وعادت تتمتم بوله وهي تضم كفيها النحيلين إلى صدرها : « ما أجمل الدنيا ! » . وتمتم ربيع وهو يتأمل وجهها الدقيق الأسمر ورموشها الكثيفة الطويلة ، وحاجبيها الطبيعيين : « عندما تركت إنجلترا ، كان الثلج ما زال يغطي الشوارع ! » . . ضحكت وقالت بفخر ساذج : « لترى الفرق بين هذه البلاد وتلك ؟ » ، فزفر وقال ، متشاغلا عنها بالنظر إلى زهرة بانسيه قطفها وأخذ يتأملها : « إنجلترا أيضا جميلة ، وقد أحببتها! ». سألته ضاحكة : « أجمل من بلدك ؟ » . هز رأسه وقال : « لكل بلاد ما يميزها ، ولكن . . » ، ولم يكمل . . كانت « دوروثي » هي أهم ما يميز إنجلترا ، وكان يفكر فيها بإلحاح مؤلم . وابتلع زفرة حادة كاد يطلقها صدره المفعم ، وأحس بالخجل من ابنة عمه المخلصة اللطيفة ، ولكي يداري إحساسه بالحرج والذنب ، طبع ابتسامة على وجهه وقال وهو يمد يده بالزهرة التي يحملها : « أتقبلين هذه ؟»

نظرت إليه برقة ونعومة . كان إحساسها بحبه يطغى على كل ذرة في كيانها ، وكانت تود لو تلقي بنفسها بين ذراعيه وتقبل جبينه المتعب ووجهه الشاحب وأعلى عنقه ، حيث تكمن لوزتاه العنيدتان ، وأن تقول له من أعمق أعماقها : « سلامتك .. ليت المرض أصابني أنا بدلا منك . » ولكنها لم تفعل شيئاً سوى أن مدت يدها والتقطت الزهرة بخشوع وقالت : « سأحفظها في أغلى كتاب عندي ، سأحفظها ما حييت ! » . واحمر وجهه تحت وطأة نظراتها الصافية الواثقة . ورأى رعشة في شفتيها ، وموجة من الوله تجتاح عينيها الفاحمتين . ولم يدر ما يقول . وبدون تفكير ، امتدت يده وأمسكت بيدها تستنجد بها من وطأة إحساسه بالذنب ، وأحست هي بالضغطة المستنجدة تغمرها بكل الحب الذي في

العالم ، فتعلقت يداها الاثنتان بيده الباردة الوجلة لتمنحاها الدفء والحنان . وقال وهو يدارى حرجه : « دعينا ندخل »

١٧

كانت القاعة دافئة ، رغم آن الجو مازال يحتوى بعض النسائم الباردة فى الخارج ، وفى الظل تكون البرودة أثقل وطأة بفعل الرطوبة . وأعطاه الدفء إحساساً مؤقتاً بالارتياح ، فأخذ يتلفت حواليه مستكشفاً المكان ، بينما كانت سميرة تقص عليه حكاية صاحبة المكان وأختها ، والنادى ، والمعرض . . . إلخ . وكانت لوحة « لحظة حب » معلقة على الجدار الواسع فى مواجهة المكتب الزجاجى ، حيث تجلس سامية منشغلة عن العالم بأوراقها ، وبعبدالرحمن الذى كان يجلس قبالتها يتكلم ويتكلم ، وهى تصغى وتدخن . وقالت سميرة باهتمام : « أترى ذلك الرجل صاحب الشعر الفضى الذى يكلم السيدة فى ذاك المكتب الزجاجى ؟ إنه عبد الرحمن الميثلونى ، الرسام الشهير ، هل سمعت عنه ؟ » . نظر ربيع عبر الزجاج متأملاً ذاك الرجل الأشيب بنظارته الأنيقة وقال : « هذا الاسم ليس غريباً عن أذنى » . . . وقالت سميرة بحماسة : « إنه فنان شهير ، وهو إنسان رائع ، سأعرفك به يوماً » . . . ولم يبد الاهتمام على وجه ربيع . كان يحس بأنه لا يعبأ بعبد الرحمن ولا بصاحبة المكان ولا بالنادى الجديد . فهذه الأجواء لا تهمه فى كثير ولا قليل . والحقيقة أنه بات يحس أنه فى مكان غير مكانه ، وفى بلد غير بلده ، وأنه غريب فى جو قاحل كئيب . فتأمل اللوحة الفخمة بدون حماسة ، وقال : « كان ذلك فيما مضى ، عندما كانت تستوقف أنفاسى لوحة أو مقالة ، أما الآن فما من شىء يسترعى انتباهى أكثر من مجلة طبية ! » . وتمتم مدعياً القلق : « آه ، لقد تذكرت أنى لم أقرأ مجلة طبية منذ أكثر من أسبوع ! » ، وتلفت حواليه وتساءل : ما هذه الكتب ؟ أى « المواضيع تطرق ؟ » . ومشى نحو الرفوف وأخذ

يقاب الكتب باهتمام مبالغ فيه . ورن صوت إيفيت محييًا : « هالو سميرة ! » .

التفتت سميرة فرأت « إيفيت» قادمة وقد حملت فى يدها كتابًا مجلداً بورق بنى ، وارتسمت علامة استفهام على وجه إيفيت ، فقالت سميرة هامسة والبهجة تغمر ملامحها وحركاتها : « هذا ابن عمى ربيع . . . خطيبى . » ، فأطلقت إيفيت آهة طويلة مندهشة : « ماذا ؟ ! » ، وأخذت تتفحص الشاب الطويل المشغول بتقليب الكتب . ثم دنت من أذن سميرة وقالت بانفعال : « إنه وسيم جداً رغم نحافته، بضعة كيلوات ويصبح فى رشاقة « روك هدسون » ! وأخذت تتفحصه بدقة، ثم قالت وهى تعض شفتهاالسفلى بأسنانها : « الشعر الأملس يأخذ عقلى ، انظرى إلى نعومة شعره وتهدله! لعنة الله على حلاقى « شكوكو » . فبالرغم من كل وعوده ما زال شعرى يحتفظ بموجاته المقيتة ! » .

قالت سميرة مجاملة : « لكن شعرك جميل يا إيفيت ، إن شكوكو يفسده أكثر مما يجمله » . ولكن إيفيت لم تكن مصغية إلى ما قالته سميرة، إذ كانت تتفحص الشاب بدقة، وتنهدت : « إه ، كم أنت محظوظة يا سميرة، فخطيبك رشيق القوام ، ولا بد أنه يجيد أحدث الرقصات وأظرفها ! »، فضحكت سميرة باستخفاف ، وقالت بفخر : « ربيع لا يرقص ! » . فتحت إيفيت عينيها بعجب وتساءلت : «ماذا ؟ لا يرقص؟ ماذا يفعل إذن ؟ » . قهقهت سميرة وهى تخبئ فمها وراء كفها وقالت : « ربيع كان مضطهداً سياسيا ، وقد أدخل الزنزانة مرة ، ولكن ليس لفترة طويلة » ، وهمست بجد : « ربيع رجل متزن ، لا يعبأ بالرقص ، ولا بنعومة شعره ! » . . . فرسمت إيفيت على وجهها نظرة ساخرة وقالت : « فهمت » ، ولوت شفتيهابسخرية . . . ثم عادت تتأمل ساقيه الطويلتين وقالت : « أراهنك يا سميرة أن ابن عمك ليس كما تقولين ! » . فابتسمت سميرة وقالت متكلفة الدهشة : « غريب ! ما كنت أعلم أنك تعرفينه أكثر منى ! » .

قالت إيفيت وهى تتأمل الحذاء الحديث وسيقان البنطلون الضيقة جداً : « هذا الحذاء لا يدل إلا على ذوق مرهف يراعى آخر صيحات الأناقة . انظرى إلى أرجل بنطلونه كم هى ضيقة ! أعتقد أن بنطلونه يشكل « زنزانة » حقيقية بالفعل ! » وأخذت تضحك وراء كفها ، وقالت فجأة : « كم سيموت فاروق كمداً عندما يرى حذاء خطيبك ! وعلى فكرة ، أتراهنين أن ابن عمك يجيد الرقص» ؟ . قالت سميرة مدافعة : « ربيع كان فى إنجلترا » ، تساءلت إيفيت : « وماذا كان يفعل فى إنجلترا ؟ » ، قالت سميرة بجد : « كان يتخصص فى طب الأطفال . » ، قالت إيفيت لتغيظها : « آه ، ظننته كان يرقص ! » ، وشدتها من يدها وقالت : « اسمعى يا بنت ، متى تصبحين فتاة مودرن ؟ ألن تكفى عن الانشغال بالمتاعب ؟ وماذا لو أجاد الرجل الرقص ؟ هه ؟ هل ينقص هذا من رجولته وفحولته ؟ الرقص رياضة جميلة ، ووسيلة راقية لاستعراض رشاقة الإنسان وجمال قوامه . انظرى فاروق ، ألم تعجبى به حين راقصنا فى ليالى المعرض ؟ أم أنك نسيت ذلك ؟ ثم إنك أنت بالذات ترقصين ! » . قالت سميرة بامتعاض : لكنى « لا أجيد الرقص . » ، قالت إيفيت ضاحكة : « بالفعل ، فأنت تدبدبين ولا ترقصين ، هى هه » . وأخذت سميره تشاركها الضحك ، وعندما توقفتا سألتها سميرة : « أرى أنك تتثقفين ، ماذا تقرأين هذه الأيام ؟» وبحركة سريعة ، أخفت إيفيت الكتاب وراء ظهرها وقالت : « هذا كتاب لا تقرأه هاويات المتاعب أمثالك ، دعك منه ! » . . . ورأت سميرة بفطنتها الحركة السريعة ، فأمسكت ذراعى إيفيت وسحبتهما من وراء ظهرها وقالت : « دعينى أرى ما هذا الكتاب . » ، وحاولت إيفيت التملص وهى تقول : « لا ، لا . . . دعى هذا الكتاب . . . دعيه . . . اتركينى ، ستمزقينه ! » ولكن يد سميرة كانت قد أطبقت على الكتاب وفتحته ، وقالت وهى تهز رأسها :

— ها ، فهمت : « عشيق الليدى تشاترلى » . من أين لك به ؟!

طفرت الحمرة إلى وجنتي إيفيت وقالت: « وجدته هناك ، فى ذلك الرف. والآن هاته . » ، قالت سميرة لتغيظها : « لن أعطيه لك ! » . قالت إيفيت بحرارة: « أعطنيه وكفى ثقل دم ، عندما أنتهى منه سأعطيه لك . » ، فناولتها سميرة الكتاب قائلة : « لدى الكثير مما يستحق القراءة أكثر من هذا الكتاب ! » . تساءلت إيفيت: « ولم السخرية ! أتظنينه كتاباً خليعاً ؟ إنه كتاب رائع وقيم . إنه إحدى الروائع الأدبية ، أم تراك تفكرين بعقلية الرجعيين ! ثم إن مؤلفه « د . ه . لورنس » كان فيلسوفاً فذاً ، خرج للعالم بأحدث النظريات وأروعها ، لقد سبق فرويد فى علم التحليل الجنسى ، أتظنين أن فرويد نفسه لم يتأثر به ويسرق عنه أفكاره ؟ د . ه . لورنس يا آنستى هو أول من قال بأن الجنس هو جذر الإنسان ومصدر كل رد فعل يصدر عنه ! » . . . ففتحت سميرة عينيها وهى تصغى بعجب لحديثة الثقافة هذه وتساءلت: « إش ، إش ، من أين لك هذا ؟ ! مدى علمى أنك لا تتابعين إلا السينما وآخر زيجات النجوم وأحدث تسريحات إليزابث تيلور ، فما كل هذا ! ! » . . . كسا الجد وجه إيفيت وقالت وهى تلوى فمها نحو خدها الأيمن : « أكثير علىّ أن أخرج عن دائرة المنزليات ؟ كان ذلك فيما مضى حين كنت لا أفقه فى العالم شيئاً ، أما الآن فقد فتحت عينى لأجد معلوماتى لا تساوى حزمة من الفجل الذابل ! » . . . وأطلقت تنهيدة قصيرة ، ثم قالت بامتعاض :

— يحب الرجل الشرقى إبقاء زوجته متخلفة الذهن والمفاهيم ، ليظل هو المدبر وهو المفكر ! لا يا آنستى . . . من الآن فصاعداً سأقرأ « د . ه . لورنس » ، و « مورافيا » وهلم جراً .

.. وكانت سميرة تراقبها والبسمة تغطى وجهها ، وقالت : « أتريدين نصيحتى ؟ لا تقرئى الكتب المثيرة ، فهى ليست لنا ! » . قالت إيفيت بعجب : « ماذا تقصدين بـ « ليست لنا » هذه ؟ » . قالت سميرة بجد: « لنا نحن نساء الشرق ! » . تساءلت إيفيت بانزعاج : « ولم يا آنستى ؟

ماذا بنا نحن نساء الشرق ، وماذا ينقصنا ؟ » . . . فشدت سميرة ذراع إيفيت وانتحت بها جانباً منزوياً وقالت : « سأكون صريحة معك : هذه الكتب لن تزيدك إلا حسرة ونقمة ، وستفتح عينيك على ما ينقصك من متع وملاذ ! » . . . وعلت الحمرة وجهها وهى تستطرد بجدية : « أعرف واحدة تزوجت زيجة مرسومة ككل زيجات هذه البلاد ، وقد صارحتنى بأن حياتها قد باتت جحيماً منذ بدأت قراءة القصص الحسية المثيرة . أتعرفين لماذا ؟ لأنها عرفت أن ذلك الشعور البارد اللزج الذى يصيبها كلما اقترب منها زوجها ليس إحساس المرأة الطبيعى تجاه رجل تشتهيه وتحبه ! وأخذت تقارن بين ما تقرأ وبين ما تناله ، فكادت تصاب بالانهيار والتدهور . ولقد مرت بفترة مريرة أصبحت أحاسيسها فيها أسرع اشتعالا من الغاز نفسه ، وأصبحت نظرتها للرجال أقل صفاء وإخوة . أصبحت تبحث فيهم عن ذلك البطل الذى يستطيع إيقاظ مشاعرها وخصوبتها ، أفهمت ؟ » .

وكانت إيفيت تستمع باهتمام : ولكن بدون اقتناع . . . ثم قالت بإصرار : « ولهذا السبب بالذات أقرأ أنا هذه الكتب ، أريد أن أعرف كيف يكون الحب وكيف يكون الإحساس به . أريد أن أجربه ، أن أعرف معناه ، أن أحس به ! » . . . واستدارت بعينيها الزرقاوين نحو النافذة الكبيرة . وفجأة ، وبدون سابق إنذار ، أخذت الدموع تتدفق من عينيها . وأصيبت سميرة بالجزع والدهشة ، ولكنها كانت أكثر تفهماً من هذه الأم الطفلة ، رغم ما ينقصها من تجارب . وأحست بالشفقة تغمر كيانها كله ، فهذه الشابة الساذجة ما زالت تحلم بالحب ، حتى بعد إنجاب طفلين ! وبالرغم من وجود زوجها الطيب الدمث ! ولكن ، أليس من الممكن أن تكون زيجة إيفيت أيضاً إحدى تلك الزيجات المرسومة ، ورغم أن شكرى شاب دمث ومهذب ، إلا أن هذا لا يثبت مقدرته على إقناع إيفيت وإشباعها . وبالرغم من افتقار سميرة للتجارب الواقعية التى تمر بها

النساء ، إلا أن مقاومتها واتساع أفقها يمدانها بالكثير من الحكمة والتفهم ، وهي تعرف أن الحب يؤدى تلقائياً إلى الجنس ، وإن كان الجنس لا يؤدى بالضرورة إلى الحب . ورضوخ الزوجة لمتطلبات زوجها لا يحتم وجود تجاوب من ناحيتها .

وفى الحقيقة أن سميرة نفسها قد مرت بتجربة مماثلة عندما قرأت كتاباً لأحد الأدباء المكشوفين ، وقد جعلها الكتاب شديدة الإحساس بوجود جسدها ومتطلباته . وكانت تعرف أن زواجها من ربيع لن يتم إلا بعد سنوات طويلة ومملة من الانتظار الكئيب ، فإذا هى استمرت فى هذا الوضع الجسدى المشتعل فلن يصيبها غير العذاب والقلق . وقد استطاعت مؤلفات تشيكوف وجوركى إعادتها إلى واقع التعساء والجائعين فى معداتهم ، وعرفت أن جوع المعدة والتفكير فى المشكلات قد يخفف من جوع الجسد . ولكن امرأة مدللة مرفهة كإيفيت لن تستطيع فهم الفرق بين هذا الجوع وذاك ، لأنها لم تجرب الأخير ، وبالتالى فهى لن تعرف قيمة ما لديها ، إلا إذا فقدته . وما يهمها الآن هو إشباع ذاك الجوع الخاص الذى تحس به !

وقالت سميرة ببطء : « إيفيت ، أتبكين ؟ كيف أشرح لك ان ما ينقصك ليس شيئاً إذا ماقيس بما يفتقده الجياع والمشردون !؟ » ، فنظرت إيفيت إلى سميرة من خلال دموعها بتعاسة ، فكيف تستطيع فتاة جافة مثل سميرة ، لا يهمها من الحياة إلا ملاحقة السياسة والشقاء ، أن تفهم ما تفتقده امرأة حساسة خصبة مثلها هى ؟ ! . وتمتمت إيفيت وهى تمسح دموعها بورقة كلينكس ناعمة : « لن تفهمينى ، لن تفهمينى ! » ، فتساءلت سميرة مدافعة عن نفسها : « لماذا ؟ ألست أنثى مثلك ؟ أليس لى جسد له احتياجاته ومتطلباته ؟ » . قالت إيفيت وهى ترنو إلى النافذة الكبيرة : « لكنك لست محرومة ! » ، فتلفتت سميرة حواليها ــ كمن تخاف وصول حديثهما إلى أذن متطفلة ! ــ وقالت : « وكيف تحكمين ؟ » . هزت إيفيت رأسها هزءاً وفكرت :

« تريد مقارنة نفسها بى ، ولديها ذاك الشاب الوسيم ببنطلونه الضيق وشعره الناعم المتهدل ؟ ! أما شعر شكرى فرحمة الله عليه ! وأما بنطلونه الشبيه بسروال « أبى ملحم » فيتسع لى أنا أيضاً إذا شاركته فيه يوماً ! » وقالت سميرة كمن خمنت ما يدور فى رأس صاحبتها : « أترين هذا الشاب ؟ إنه لم يقبلنى قبلة واحدة حتى الآن.. أتصدقين؟ » فتحت إيفيت عينيها وتساءلت : « أحقيقى هذا ؟ » ، ثم أردفت بصبر نافد : « ليس المهم حصولى على قبلة أو صفعة على مؤخرتى ، المهم هو أن أحصل على ذلك الإحساس الحار تجاه إنسان ما . أريد أن أحب رجلا ، أن أتذوق ذاك الإحساس اللذيذ . أريد أن أحس بأشياء كثيرة ، كثيرة ! » ، وفتحت ذراعيها وأحاطت صدرها بهما كما لوكانت تتوهم وجود ذراعى حبيب حولها ! . . فأخذت سميرة تتأمل إيفيت بعينيها المغمضتين ووجهها المتوهج بشتى الانفعالات المحرومة الجائعة . وكانت بشرة إيفيت البيضاء الصافية قد اصطبغت بالحمرة، بينما تدلت خصلات عابثة على جبينها المتألق بفوضى مغرية . أما فمها فكان مفتوحاً نصف فتحة ، وقد ظهرت أسنانها اللؤلؤية البيضاء من فرجة الفم المكتنز المصبوغ ، وفكرت سميرة بإعجاب : « ما أجملها » ! وعادت تتأمل الحركة الساذجة التى قامت بها إيفيت ، وواصلت التفكير : « ولكن ، هناك شىء ينقصها ، وأظنه التوازن » .. فى حين فتحت إيفيت عينيها وقالت بشىء من الوحشية :

ــ أريد رجلا أحبه ، ولا أريد رجلا يحبنى . زوجى يقول إنه يحبنى .. هه ، أى نوع من الحب المقزز ! أنت لن تعرفى ما تحس به المرأة لأنك لم تخوضى التجربة . كونى على ثقة بأن الزواج فى هذه البلاد يجيع المرأة أكثر مما يشبعها ، أما أنتن العذارى الطاهرات فأنتن لا تعرفن ما وراء الستار ، ثم إنك . . (ورمقت الشاب المشغول بقراءة كتاب ضخم وهو لا يزال واقفاً) . . ثم إنك تحبين

وتأملين . . أما أنا فأين الحب ، وأين الأمل ؟

وأخفت وجهها فى كفها ، وأخذت تشهق بصمت . . فأمسكت سميرة بذراعها بضراعة وقالت : « إيفيت ، أرجوك ، سنناقش هذا الموضوع فى يوم آخر ، ولولا وجود ربيع لما تركتك فى هذه الحال ، ولكن . . » ، وتلفتت حواليها ثم إلى ربيع وقالت : « هيا ، اذهبى واغسلى وجهك وتعالى أعرفك بابن عمى ، وسيحكى لك عن الكثير من مآسى السجن والجوع والتعذيب . هيا ، أرجوك . سأنتظرك ، أم أنك تريدينى أن أرافقك إلى الحمام ؟ » . . وبعد أن انسحبت إيفيت عادت سميرة إلى ابن عمها – المنهمك فى المطالعة – وقالت بابتسام : « يبدو أنك تريد التعويض عن الأسبوع الذى أمضيته بدون قراءة ! » . . فهمهم وقال : « لحظة . . لحظة وسأنتهى » .

* * *

رددت إيفيت لنفسها كلمات سميرة : « تعالى أعرفك بابن عمى ، وسيحكى لك الكثير من مآسى السجن والجوع والتعذيب . . هه ، ومالى ومال حكايات السجن والجياع ، كأنما ينقصنى الهم لأبحث عنه فى حكايات الأشقياء ! هؤلاء يحصدون ثمار ذنوبهم ، فلماذا أقف بجانبهم ؟ . . سميرة هذه فتاة جادة أكثر من اللازم ، وهى جافة الجسد والعواطف ، تريد إقناعى بأنها تتعذب مثلى ، وأنها محرومة كحرمانى . تريد إقناعى بأنها تشاركنى الهم . . أكثر الله خيرها ، ولو لم أر ذاك الشاب الوسيم ، بساقيه البديعتين ، لصدقت ، ولكن . . » وأخذت الدموع تسيل على وجهها منزلقة على كل التعاريج الناعمة الحساسة ، وراحت تناجى : « فاروق . . أين أنت ؟ لعنة الله عليك ، أهكذا تقاطعنى بعد أن بدأت تفهمنى ؟ لكنْ الذنب ذنبى ، فمنذ اكتشاف سامية وعبد الرحمن لعلاقتنا ، اتصل بى عدة مرات تلفونيا ، ولكن خوفى من شكرى منعنى . آه ، لعنة الله على شكرى

وعلى خوف ، أى مرض هذا الذى أصابنى ! ! » .. وأخذت تتحسس صدرها المكتنز بدون وعى ، وهى تضغطه بكفيها بقسوة ، ودموعها تتساقط : « أهذا ما انتظرته من الحياة ؟ وهل سيستمر ما أحس به أبد الدهر ؟ » .

وعضت شفتها بأسنانها العليا وهى تزفر ، وكانت هبات حارة كاللهب تجتاح جسدها الشاب اللدن ، واحتدام وزوابع تغتال روحها وقلبها .. ورددت بحسرة : « سرعان ما بلغت الثلاثين يا إيفيت .. الثلاثين . .. عشرة أعوام أخرى وتصبحين فى سن اليأس . ياللهول ، ماذا ! ! ألم يبق من عمر الشباب غير عشر سنوات ؟ عشر سنوات قصيرة ، قصيرة . ولكن ، أليس من الممكن أن أجد فى هذه السنوات العشر ما لم أجده حتى الآن ؟ ربما ! ولكن ذلك لن يكون إلا إذا أحسنت استغلالها . السنوات العشر الماضية مرت بهدوء ، برتابة ، بملل ، أما السنوات العشر القادمة ، فسأركض خلالها ، سأركض ، سأركض .. سأركض ! » .

وأخذت تركض بدون وعى نحو الممر الموصل إلى الحمام الكبير ، ولمحت عيون عبد الرحمن وسامية ترقبانها بدهشة ، ورأت سامية تقف ويدها ممسكة بالأوراق الملقاة على المكتب ، وهى تحملق فى اتجاهها : « هه ، القديسون المزعومون . . لعنة الله عليكم ، كم تدعون الفضائل أيها الأوغاد ! سامية تعتبرنى خاطئة ، لم ؟ ألم تفعل مافعلت أنا ، بل ما هو أضخم ؟ مات زوجها غماً وكمداً ولم تذرف عليه دمعة واحدة ! كانت تحب هذا العملاق الأشيب . وأنت يا « دون جوان » السياسة والتعاسة ، أتراك مازلت تعبأ بالأشقياء والجائعين ؟ انظر أيها المتغطرس وسترى ما يعنيه شقاء المرأة حين يداهمها جوع الحب ، أى شقاء ، أى جوع وأى عطش ، هه . يقولون إنى خائنة ، وإنى بلهاء ، وإنى سخيفة ، حسناً ، سأقرأ كل ما كتبه « مورافيا » ، وسأحفظ

تعاليم « فرويد » عن ظهر قلب ، سأدهشهم بما أعرفه عن الحياة وعنهم ، وسأصبح قوية . قوية .. أقوى من أن تؤثر فى نظراتهم الزاجرة . . وسأركض . . سوف ألتهم ما تبقى من العمر . . وسأركض ! »

ووقفت أمام المرآة العريضة فى الحمام تحملق فى وجهها الغاضب الباكى .. « هه ، عندما يخون الرجل زوجته يلومون المرأة ، يقولون إنها لم تعرف كيف تحتفظ به وكيف تشبع أحاسيسه ، وعندما يحدث العكس يقولون لم تراع الشرف والتقاليد ولم تحفظ النعمة وحرمة زوجها ! يا للافتراء .. عندما يعشقون نلاحقهم بعواطفنا وتوسلاتنا ، وعندما نعشق يلاحقوننا بألسنتهم وسياطهم ، ولكن ، سحقاً لهم ! لن أعبأ ، فسأصبح قوية ، قوية ، وسأثور وسأنال ما أشتهى من الحب والحياة ! » .

ورأت شبح سامية فى المرآة العريضة وهى تقف وراء ظهرها ، فصاحت بغضب : « نعم ! ماذا تريدين ؟ أتريدين نصحى ؟ أتريدين تأنيبى ؟ أتريدين زجرى ؟ ياناس ، أتركونى لهمى . ياناس ، انزلوا عن ظهرى . أنتم ، أنا أعرفكم ، فأنتم تدعون الطهارة وأنتم أنجاس ، وتقسمون أنى مذنبة وأنتم الذنوب مجسمة ! » . . واقتربت من سامية وهى تلوح بذراعيها بحركات هستيرية ، وأخذت تصيح كحيوان كاسر حين رأت سامية تقترب من الباب وتغلقه : « افتحيه ، افتحيه ، أتخافين الفضائح ؟ أتخافين على سمعة مكتبتك القذرة هذه ؟ أما أنا فلا أخاف . أتخافين وصول صوتى للزبائن فى الخارج ؟ اطمئنى ، فما من أحد سوى مدللتك المقددة وخطيبها طبيب الأطفال بشعره الحريرى وساقيه الصاروخيتين ! . . لماذا تنظرين إلى هكذا ؟ ها ؟ منذ أسابيع وأنت تنظرين إلى هكذا . منذ رأيتنى وفاروق فى غابة الجوافة . أنا أعرف فيم تفكرين ، فأنت تقولين إنى قذرة ، وإنى مقززة ، وإن زوجى الرائع خسارة فى واحدة مثلى .

لا تقولى هذا ياسيدتى ، فزوجى الرائع لا يصلح إلا للعرض فى قاعة مكتبتك الضخمة هذه بجانب تماثيلك الرخامية الجامدة ! أما بالنسبة لى ، فهو قطعة من الهليون الرخو ، ولو رأيته وهو يقبلنى . . يضع شفتيه هنا . . » وأشارت إلى خدها وواصلت « فيسيل لعابه هنا ! » — وأشارت إلى أسفل عنقها — « يظل فمه مفروشاً على خدى كقطعة من المطاط البارد ، وأحس بجموده ينتقل إلىّ ، وبالحياة تموت ببطء فى أمعائى ، وبساقى تتيبسان فى وعاء ملىء بالجليد ! . هه ، أيخجلك هذا الكلام ؟ حسناً ، لقد أحسست بهذا يوماً مع ذلك الزوج الذى ارتحت منه ، أتذكرين ماكانت تعنيه تلك الأحاسيس اللزجة الكريهة ؟ »

أشاحت سامية بوجهها فى ألم ، فواصلت تلك هجومها المركز : « منذ تلك الحادثة وأنت ترصدينى ، تراقبين تحركاتى ، تحصين علىّ أنفاسى ، ماذا تريدين منى ؟ ها ؟ ماذا تريدين ؟ » . ووضعت يديها فى خاصرتيها وأخذت تهتز كسوقية : « لماذا تراقبيننى ؟ ماذا تقصدين بهذه النظرات الصامتة الباردة ؟ أعرف موعظتك المرتبة مسبقاً . ستقولين بطهارة القديسات ، (وأخذت تقلد لهجة سامية بسخرية وهزء) ! : « اعقلى يا إيفيت ، اهدئى يا إيفيت ، فكرى يا إيفيت ، اصفعى مؤخرتك يا إيفيت ! » . . لعن الله أبا إيفيت وحرق عظام موتاها عن آخرهم ! أليس لك فى هذا العالم من عمل إلا إيفيت ومراقبة إيفيت وشنق إيفيت ؟ أتركينى لهمّى ، دعينى لأعيش . دعينى أتنفس ، ألا ترين أنى أموت ؟ ألا ترين أنى أختنق ؟ ألا ترين هذه النيران التى تلتهمنى ؟ » . . وأشارت إلى صدرها بعلامة طولية وصاحت : « هنا . . هنا . . أحس بالاختناق والمرض ، والموت ! » . . والتفتت إلى المرآة وتمتمت بذهول :

— مرة واحدة نعيش ، مرة واحدة فقط ، وبعدها نموت ويموت

كل شيء . حتى الفضائح تموت ، حتى المبادئ تموت ، حتى الحياة تموت ، ولن نأخذ معنا إلا ما عشناه ، فقط ما عشناه . وسأعيش ، سأعيش ، رغما عنكم ، أترين ؟ رغما عنكم ، فما زلت صغيرة ، ومازلت جميلة ، وما زلت مرغوبة ، وغدا عندما أصبح مثلك فى الأربعين لن يقترب منى الرجال ، فهم لا يحبوننا إلا نضرات متألقات ، أما أنت فذكاؤك يشفع لك ، ومالك ، ومكتبتك . أما أنا ، فلا شىء إلا جمالى ، أتظنيني بلهاء ؟ لا يا سيدتى ، قد أكون ضعيفة الثقافة ، لكننى لست ضعيفة العقل !

وهجمت على الباب وفتحته بقوة وخرجت ركضاً . وكان عبدالرحمن يقف فى الممر ، ولا شك أنه كان يستمع للحوار الذى أجرته إيفيت مع نفسها ! وتنحى عن طريقها وهو ما زال يراقبها ، تنهب القاعة ركضاً ، وفستانها الفيروزى الصوفى يتطاير من حولها بتدفق وهى تشد الكتاب البنى إلى صدرها وتركض . . وفتحت باب القاعة الزجاجى ، وقفزت إلى الخارج . . وقطعت الممر المعشوشب ركضاً . وكانت أشجار السرو قد بدأت تتحرك بفعل هبات رياح باردة على غير انتظار ، وكانت الشمس قد احتجبت وراء ستار كثيف من الغيوم السخية . . وكان الرذاذ قد بدأ يرش العالم بقطرات لها وقع زغب العصافير . ووقفت تلهث أمام البوابة الضخمة ، وتطلعت إلى السماء بدون وعى ، ومسحت وجهها العاصف بكفها ، و بدأت تهبط الدرجات العريضة بذهول . ورأت فيما يشبه الحلم سيارة تقف على الرصيف ، وكان فاروق يحمل غليونه بيد ، ويمسك عجلة القيادة بيده الأخرى . ورآها تنزل الدرجات وهى تهبط بثقلها على إحدى ساقيها ، فيرتج صدرها بحركة ثائرة غاضبة ، ويتراقص ذيل الثوب الفيروزى عند أسفل الفخذين ، وتهتز خصلات شعرها الناعم بفوضى وعبث . . ومرت أمام فاروق ، ألقت عليه نظرة كئيبة حزينة وسارت مرفوعة الرأس ، وعيناها شبه مغلقتين ، بينما ازداد رش الرذاذ فأصبح

مطراً خفيفاً ناعماً حنوناً . وأطلق زمرة قصيرة من نفيره تشبه التحية ، فلم تلتفت إليه . وناداها فلم تجب ، وعاد فاستعمل نفيره فلم ترد ، فأدار سيارته ومشى خلفها ببطء ونادى : « إيفيت ، إيفيت ! » . وأطل برأسه من النافذة وأخذ يهمس : « إيفيت الجميلة ، إيفيت الرقيقة ، إيفيت الذكية . . إيفيت الفيروزية ! » . وعبث بمفاتيح « الريكوردر » فى سيارته الفخمة ، وانطلق صوت المطربة فيروز يردد : « مين قال حاكيته وحاكانى عادرب مدرسى . . » ،وأخذت كلمات الأغنية تسيل ، تتأرجح على وقع المطر الناعم الحنون ، وإيفيت الغاضبة تسير بذهول وعلى غير هدى ، وذكريات الصبا المبكر تعبث بالمخيلة ، مذكرة بأحلام المراهقة ومهرجانات الصبا .. والأغنية تردد «مشوار رافقته أنا مشوار..» ، وفاروق يلاحقها : « إيفيت.. إيفيت الجميلة، إيفيت الفيروزية . . يا زهرة رشقنى بها (نيسان) ، يا حديقة دشنها الربيع ، يا ابتسامة الملائكة فى أغصان اللوز المزهرة ، إيفيت ! » ، وصوت فيروز : « شو قال ، كنا صغار ، مشوار . » . وإيفت تمشى ، وتمشى.. « شو قال، كنا صغار ، مشوار .. » والحياة كلها مشوار ، هه ، وكنا صغارا يا إيفيت ، كنا وما زلنا صغارا يا إيفيت ، فأنا سأركض ، سأركض . . « مشوار جينا عالدنى ، مشوار.. مشوار . . مشوار . » . . نعم مشوار ، وللمشوار نهاية ، وللطريق نهاية ، وللحياة نهاية ، ولكنى سألتهم ما تبقى من العمر . فأنا سأركض ، مازلت صغيرة ، صغيرة ! . . شكرى ، شكرى . لعنة الله على شكرى وذكراه ، و « سمسم » ، و « نينا » ، آه . . سمسم ونينا . . وفيروز ماضية تغنى : « ياريت ، أنت وأنا فى بيت ، شى بيت أبعد بيت . ممحى ورا حدود العتم والريح ، والثلج نازل بالدنى تجريح . . يا ريت ! » ، وفاروق يهتف : « إيفيت . . إيفيت الجميلة . . يا حسونتى التركزازية ، يا حجلة نيسان المذهب ، إيفيت ! »

وكان الشارع مازال طويلا ، وخالياً ، وأشجار الصنوبر على الجانبين

تمايل بإبرها الخضراء بوقع راقص منتش ، وكل شيء يذكر بالرقص والنشوة والحب. وقال فاروق بلهفة : « سنصل المدينة هكذا ؟ لقد أفسد المطر تسريحتك ، وسيبتل ثوبك الذى أحبه ، وسيبرد الجسد الحار ! تعالى واركبى . وأعدك بمشوار على طريق(بيرزيت)، سنقطف الشقائق على الوهاد الخضر ، وسنسرق اللوز من بساتين الفلاحين النائمين . تعالى . ! » . والتفتت إليه . كان وجهها قد نسى دمعه وأحزانه ، وحلت محل الغضب ابتسامة مراهقة غرة . وتوقف حين توقفت ، لكنها هزت كتفيها بعبث ونزق ومشت تهز خاصرتها بإيقاع راقص . وأطلق ضحكة أتبعها بآهة لاهثة ، وعاد يسير خلفها . نظرت ضاحكة إلى الخلف فرأت أسنانه تلمع خلف ضحكة مرحة أطلقها . وأخذ يطلق النفير محاكياً وقع قدميها العصبيتين ، فازدادت الخاصرتان اهتزازا وتأرجحاً ودوى صوت فيروز مرددا : « يا حجل صنين فى العلالى . . يا حجل صنين فى الجبل » . وترك فاروق عجلة القيادة وأخذ يصفق للأغنية ولوقع الخطو الراقص . وعادت تنظر إلى الخلف متصنعة الغضب ، لكنها أطلقت ضحكة منغمة تشبه التحية الصباحية من فم شهى . ورد فاروق على التحية بأحسن منها . وفجأة أخذت تركض ، فداس الفرامل وأوقف السيارة جانباً ونزل منها وأخذ يركض خلفها . . إلى أين يأخذنا المطر حين تعبث النشوة بالأحاسيس وأحلام المراهقة ! وذكريات الصبا . . والحلم المعبود فى أن تصبح المرأة قبرة بنفسجية تطلق جناحيها للريح ثانية ، وتطلق عقيرتها بالغناء وهى تطير . . تطير . . تسبح فى عالم نيسانى له رائحة الأعشاب البرية ! وطعم الحرية عذب . . أعذب من رحيق زهيرات الياسمين والعبهر . . والريح ريحان . . والشمس وردة . . والإله فراشة بجناحين أزرقين ، وفيروز تغنى للحب والقلب المراهق ، وذكريات الحرية . آه ، ذكريات ! بل هى حقيقة ، حقيقة ، وهى حبقة رشقها (نيسان) ، حديقة دشنها الربيع ، ابتسامة ملائكية تتراقص على شفاه

أغصان اللوز المزهرة ، ولن تقف سامية فى وجهها ، ولا عبد الرحمن ، ولا العالم كله ! . . « مشوار جينا عالدنى . . مشوار . . مشوار .. »

١٨

قفزت إيفيت درجات منزلها بعد أن أوصلها فاروق من طريق خلفى مهجور .. استقبلتها طفلتها « نينا » على الباب الخارجى ، فحملت الصغيرة بين ذراعيها وضمتها إلى صدرها بحرارة . كان صدرها يخفق بسعادة ، وما زال قلبها يغنى « لحجل صنين ، وللمشاوير الممطرة على الدروب المبتلة » . غريب ! كيف يستطيع الإنسان أن يسعد الآخرين حين يحس هو بالسعادة ، وفعالنا مرآة لما فى الداخل ، وعواطفنا مسرح يشد أجسادنا إليه ، بحر يجرف زوارقنا ويسير أشرعتنا حسب بوصلة القلب المذبذب . وآه لو نعي ما نريد ! . . ودفعت إيفيت باب الفراندة الزجاجية حيث تصطف أحواض السيراميك المستطيلة على حافة الزجاج ، وتهدلت من بعضها نباتات بيتية متسلقة ، ومن بعضها الآخر شعت زهيرات القرطاسية الزهرية والزرقاء بألوان تخطف البصر . وفى الزاوية وراء المكتبة الجلدية الحمراء اختبأ الوعاء الذى تسلقت منه نبتة الشمع المخملية فملأت سقف « الفراندة » بالورق الأخضر المشمع ، والزهر الناعم بأوراقه السميكة المخملية ، تتلألأ فى كؤوسه حبات العسل اللامعة . وشدت الصغيرة يد أمها نحو قاعة الزوار .

دخلت إيفيت باب القاعة وأجفلت . كانت سامية فى الركن تدخن سيجارتها بصمت ، بينما جلست سميرة بجانبها جامدة لا تبدى حراكا . « هه . . لعنة الله على هؤلاء الناس ، لم لا يتركون الإنسان فى همه ؟ » . ولكن السعادة تعطى الإنسان ضبط أعصاب وارتياحاً لا مثيل لهما . وابتسمت إيفيت بنعومة وقالت مرحبة ، بصوت لا يحمل أى أثر للمشاكل أو التعاسة : « أهلا ، أهلا .. هل انتظرتمانى طويلا ؟ » . وصافحتهما

بمودة وجلست ببساطة على إحدى الأرائك وسألت : « أرجو ألا أكون قد تأخرت عليكما ؟ » ، وابتسمت بلطف جعل سميرة ترمقها بدهشة متزايدة ، وعادت تسأل « كيف حالكما ؟ » ، فنفضت سامية سيجارتها وقالت بجد هادئ : « كيف حالك أنت ؟ » . نظرت إيفيت فى عينى سامية بدون خوف ولا حرج ، وقالت وهى تبتسم بكل طيبة : « حمداً لله ، إننى فى أحسن حالاتى ! » . . فابتسمت سامية بفتور ، أما سميرة فظلت مطبقة بجمود . وسألتها إيفيت : « وأين خطيبك الوسيم ؟ » . قالت سميرة وهى ما زالت مطأطئة : « عرفته بعبدالرحمن ، وقد تركناهما فى المكتبة معاً . » . . ضحكت إيفيت فجأة بمرح كما لو كانت تستمع لنكتة لطيفة ، وسألتها سامية : « إيفيت . . أين كنت ؟ »

واهتز الشيطان داخل الطفلة المذنبة ، فقالت ببراءة تحسد عليها : « كنت فى حالة عصبية لا تحتمل ، فمشيت تحت المطر ، فهدأ المطر من روعى . وعلى فكرة . . » ، وطأطأت برأسها وقالت بخجل : « سامية ، أغاضبة أنت منى ؟ » . امتصت سامية نفساً طويلا وقالت بأسف : « بل أنا خائفة عليك يا إيفيت ! » . قالت إيفيت بحرارة : « ولكن لم الخوف ؟ لست طفلة ، صدقينى إنى كنت أمشى تحت المطر » . قالت سامية : « هكذا إذن ؟ » . قالت إيفيت بانفعال : « ماذا ! ألا تصدقين ؟ أقول لك إنى كنت أمشى تحت المطر ! » . صوبت الاثنتان إليها نظرات ذات معنى ، ولكنهما لم تفصحا . وقالت سامية بعد فترة : « إيفيت ، اعتبرينى أماً ، اعتبرينى أختا ، اعتبرينى صديقة ، اعتبرينى أى شىء ، ولكن ثقى بى ، أرجوك ، ثم هذه سميرة ، أنت تعرفينها فهى أصدق وأخلص للصديق من نفسه ! » . . واقتربت من مقعد إيفيت واستدارت إليها بوجه يقطر حزناً وإحساساً : « إيفيت ، حبيبتى . . إيفيت.. ألا تثقين بنا؟ » . أجفلت إيفيت وتراجعت للخلف وقالت لطفلتها : « نينا ، اذهبى عند خديجة ». ثم أجابتهما إيفيت وقد وشى

الاحمرار وجهها : « بلى ، أثق . ولم لا أثق ؟ » . قالت سامية : « إذن فلم لا تصدقين معنا ؟ »

أجفلت إيفيت وأخذت تعبث بطلاء أظافرها وتنتزعه وتكحته ، وقالت بإصرار : « بل أنا صادقة ، قلت إنى كنت أمشى تحت المطر ، وها أنت ترين أثر الماء فى شعرى، وها هوذا ثوبى ما زال رطباً ! » . قالت سامية بحذر : « بحثنا عنك فى كل مكان ، ولم نجدك ! » . قالت إيفيت بعناد : « كنت أمشى تحت المطر ، أقسم برأس « سمسم » . . وحياة « نينا ! » .. وعلا الوجوم وجه سامية ولم تعلق . وارتفع صوت فيروز آتياً من ترانزستور كان منسيا فى الفراندة : « ياحجل صنين فى العلالى . . يا حجل صنين فى الجبل . . »

ولهثت إيفيت ، واحمر وجهها نشوة ، واجتاحتها موجة مفاجئة من الفرح الطاغى ، فأخذت تطلق ضحكات مكتومة متشنجة وهى تشد كفيها إلى صدرها ، وانتبهت لحالها فجأة ، فقالت معتذرة : « يا إلهى . . لم تجعلون من التفاهات مشكلة ؟ ! » . فتساءلت سامية بحزن : « أواثقة أنت أنها تفاهات ؟ » ، وأخذت تتفحصها بجدية وأسف . وكانت تلك تقوم بمحاولات غير مجدية لتبدو أقل مرحاً وسعادة ، ولكن بدون جدوى . وقالت سميرة بأسى ساخر : « كنت تمشين تحت المطر ؟ » . فنهضت إيفيت ، وخرجت من القاعة ، وأخذت الاثنتان تتبادلان النظر والتساؤل : أتكون قد غضبت ؟ أيكون معنى خروجها محاولة لبقة لإفهامهما بأنهما غير مرغوب فيهما ؟ . . لكن إيفيت لم تلبث أن عادت تتبختر وهى تحمل الترانزستور بيدها وتهز رأسها حسب إيقاع الأغنية الراقصة ! . . ونظرت الاثنتان إليها بدون تصديق ، وهتفت سميرة بدهشة وأسف : « إيفيت ! ما هذا ؟ ! » . فقالت إيفيت بتهرب ماكر : « يا حجل صنين » ، ألم تسمعيها ؟ ألا تعرفينها ؟ » .. فنهضت سميرة بغضب وهجمت على الترانزستور فاختطفته وأقفلته ، وصاحت : « أنت لست طفلة . .

لست طفلة ! » . فقالت إيفيت بهدوء غريب : « هذا بالضبط ما كنت أحاول شرحه منذ الصباح » . قالت سامية : « إيفيت ، منذ متى كنت خبيثة ؟ » . قالت إيفيت ضاحكة : « منذ بدأت أفهم معنى الحياة ! » . صاحت سميرة : « أية حياة تعنين ؟ حياة العبث والتهرب واللامسئولية ؟ حياة الكذب والزيف والتلاعب ؟ أهذا معنى الحياة فى نظرك ؟ » . قالت إيفيت بسخرية : « ما معنى الحياة إذن ؟ أفهميني يا فيلسوفة السياسة والتعاسة ، ها ؟ » . وقالت سامية مهدئة : « لا تتشاحنا كالأطفال ، ما هكذا يتفاهم العقلاء ! » . فقالت إيفيت مهاجمة : « ماذا تقصدين بالعقلاء ؟ » أتعنين أنى لست عاقلة ؟ أى أننى بلهاء ، أرجوك يا سيدتى ، لا تسخرى منى ! » . قالت سامية متراجعة : « أنا أسخر منك ؟ لماذا ؟ ماذا قلت لأعطيك فكرة كهذه ؟ » . فأطلقت إيفيت قهقهة جافة ساخرة : « هاها . . أتظنينني غبية ؟ لا يا سيدتى ، لا ، فأنا ما عدت تلك الصبية الطيبة الخجول ! »

قالت سامية وعيناها تغرورقان بدمع شفاف رقيق : « بل أنت إيفيت الصادقة الطيبة المخلصة . أنت إيفيت المعطاءة المتسامحة الحساسة . إيفيت ، إيفيت . . لا تخذلى إيمانى بطيبتك ! » . ومست الكلمات العاطفية الحساسة قلب إيفيت ، فلهثت بصمت ، وازدردت غصة مفاجئة اجتاحت حلقها وتمتمت بانكسار : « آه ، يا رب . . ماذا أفعل ؟ » . . قالت سامية بحنان : « ماذا تريدين يا إيفيت ، أفهميني ماذا تريدين ؟ » . وقفت إيفيت وسط الغرفة وقد تدلت يداها إلى جانبيها واكتسى وجهها بشحوب باهت ، فى حين أخذت شفتاها ترتجفان كما لو كانت مشرفة على البكاء . . وقالت بحسرة : « أهذه هى الحياة ؟ ليس هذا ما حلمت به ! » . .وأخذت سميرة ترقبها بدهشة : فما معنى أن تكون امرأة جميلة تعيش فى فيللا ضخمة رائعة حديثة كهذه ، وفى كنف زوج حنون طيب كريم كشكرى ، وأطفال يقطرون شهدا ،

كل هذا وتتساءل بحسرة كما لو كانت تعيش فى بئر مظلمة : « أهذه هى الحياة ؟ » .. وهزت سميرة رأسها وهى تدارى اشمئزازها ، وأخذ فكرها يردد : « البطر . . البطر . . البطر ! » . وقالت سامية فى محاولة جادة لفهم إيفيت ومواقف إيفيت : « بم حلمت ؟ ماذا تتمنين ؟ ألم تنالى ما تتمناه أى امرأة على سطح الأرض ؟ بيت جميل ، زوج طيب حنون ، أولاد غاية فى العذوبة ، ماذا تريدين ؟ » . . ففتحت إيفيت فمها بحركة يائسة وقالت مهمهمة : « لا ، ليس هذا فقط ، ليس هذا ، أهذه هى الحياة ؟ » . وأخذت نظرات سميرة تتنقل ما بين قطع الأثاث الفاخر المترف باشمئزاز .. « هؤلاء الأغنياء البطرون . . آه ، ما أتعس هذا العالم وما أبغضه ! . إن ثمن الأريكة الواحدة فى هذه الغرفة يفرش بيت موظف ذى راتب لا يقل عن ثلاثين ديناراً ! . . وهذا البيانو الألمانى الفخم ، وهذه السجادة العجمية برسومها المزركشة وألوانها التى تمثل الإبداع نفسه ! وهذه اللوحة الضخمة ، وتلك . . والثريا التى يكاد كريستالها يقبل أقدام الضيوف ! . . آه ، إن هؤلاء الأغنياء يعتنون ببيوتهم أكثر من العناية بعقولهم ومبادئهم ! » . . وفيما كانت إيفيت تتساءل لاهثة : « أهذا كل ما فى الحياة ؟ » ، رمقتها سميرة بغضب : « ماذا تريد إذن هذه الدمية ؟ ماذا تريدين يا حورية أرضنا القذرة ؟ ! مجتمع قذر ، قذر . . ونظم فاسدة ، وعدالة موطوءة بحذاء ! . . هناك نسوة يضاهين الملائكة حكمة وجمالا ، لكن الفقر طمس حكمتهن وجمالهن ، وأنت تتخمين وتبطرين وتأنفين ، رغم أنك لا تصلحين لأن تكونى أكثر من خادمة فى مقهى سياحى ، أو راقصة فى ناد ليلى ! .. فى الدول الاشتراكية لا يأبهون كثيرا بعرض الأجساد الفاتنة ، إن ما يهمهم هو الإنتاج والفكر ، والعقل ! ولو عشت هناك لما نلت حتى هذا الثوب الذى يساوى راتب شهر كامل من رواتب خادمة فى مطعم ! »

وقالت سامية : « ماذا تريدين ، أفهميني ! شكرى رجل ممتاز

يا إيفيت ! » . فصاحت إيفيت : « شكرى . . شكرى . . أليس على وجه الأرض رجل مثل شكرى ؟ » . قالت سامية بتمهل : « فعلا ، ليس على وجه الأرض رجل مثل شكرى. » ، فصاحت إيفيت : « لماذا ؟ أهو « روك هدسون » أم عمر الشريف ؟ » ، فضحكت سميرة باستخفاف ، محدثة نفسها : « آه البلهاء ، ألا تعرف بأن المظاهر هى الجانب الكاذب للأشياء ؟ يا عزيزتى إيفيت ، إن من يرى رأسك الجميل هذا يظنه يحتوى عقلا جميلا مثله ، وإن من يرى جسمك الرائع هذا يظنه يحتوى توازنا وانضباطاً ، ولكن المظاهر هى الجانب الكاذب للأشياء ! »

وصاحت إيفيت منفجرة : « أنا لا أطيقه . . لا أطيقه ! » . . فتهدج صوت سامية بأسى : « لماذا ؟ ولكن لماذا ؟ » . فحملقت إيفيت فى سامية بتحفز وصاحت بوقاحة : « لنفس السبب الذى شغلك عن زوجك السابق ! » . فهتفت سميرة بغضب : « إيفيت ، ما هذا ! ألا تحترمين مشاعر الناس ؟ » . . فأشعلت إيفيت سيجارة وأخذت تمتصها بعصبية وقالت : « ولم لا يبدءون هم باحترام المشاعر ؟ ها ؟ أم أن لمشاعرهم قيمة ، ومشاعرى لا وزن لها ؟ » . . قالت سامية مدافعة : « إيفيت ، لكل إنسان ظروفه ، وأنا كانت لى ظروف غريبة . » . فهزت إيفيت كتفيها وقالت : « هذا ما يقوله كل إنسان عن ظروفه ! » .

قالت سامية : « علاقتى بعبدالرحمن ابتدأت قبل معرفتى بـ « غالب » . أنت لا تعرفين القصة منذ البداية ، ولكن ، بما أن الموضوع قد أثير فلا مانع من إيضاح الحقيقة لك.. لقد كنت على علاقة دامت سنين طويلة بعبدالرحمن . عرفته قبل أن يكون ما هو عليه . كان نكرة . . كان مجده الحالى مجرد حلم فى رأسى ورأسه ، وكان نجاحه الفنى هو هدفنا وقمة أمانينا . وعندما سجن ، بادأته أنا بالقطيعة . أنا التى خنته ، أنا التى هربت من حاضرى المظلم ومستقبله الذى كان لعبة فى أيدى سجانيه!»

غضت سميرة من بصرها بخجل وهمهمت : « سامية ، ما من داع لنبش أحزانك ، لست مسئولة عن الدفاع عن نفسك أمامنا . إن هذا محرج لك ولنا ! » . فقالت سامية بذهول : « وها أنا أكفر عن ذلك ، ولقد كفرت طويلا وكثيرا ! » . تساءلت إيفيت : « ولكن لم خنته ؟ ألم تحبيه ؟ » . تمتمت سامية بشرود : « بل عبدته ! » . تساءلت إيفيت بدهشة : « لماذا خنته إذن ؟ كيف استطعت ذلك وقد أحببته ؟ يا إلهى ، أليس الحب هو أروع ما فى الحياة ؟ فكيف تهربين من حبك وسعادتك ؟ » . . قالت سامية : « هذا موقف يصعب تفسيره ، ولكنى كنت البادئة بالخيانة ، وها أنا أحاول التعويض والتكفير ! » . وامتصت نفساً طويلا من سيجارتها ، وعادت تقول : « لقد كنت أجبن من أن أحتمل الظلام الذى اكتنفه ، فأردت الفرار بجلدى . لم أكن قوية بما فيه الكفاية لأقاوم الخطأ . » . فتمتمت إيفيت بشك وحيرة : « وكيف تريديننى أن أكون أنا بالذات أقوى على مواجهة الخطأ منك ؟ أنت أذكى منى وأكثر ثقافة ، وقد ضعفت ، فماذا يحل بى أنا ؟ » . قالت سامية بإشفاق : « إيفيت ، لا تفقدى الثقة بنفسك . إنك الآن تعين الخطأ ، وعندما يعى الإنسان الخطأ يتجنبه ! » . علت الحيرة وجه إيفيت وتمتمت ذاهلة : « ولكنى أركض نحو الخطأ لأننى أريده ، أريده ، فأنا مشتاقة إليه ، تواقة له ، أريده ! » . فقالت سميرة فى محاولة جادة للإقناع : « ولكن ما يدفعك نحو الخطأ هو الغريزة وليس العقل! »

فقالت إيفيت بتعاسة : « أو ليست الغريزة أقوى من العقل ! . . هناك رغبات طبيعية أصيلة كل الأصالة ، وهذه تبحث عن منفذ لها ، وتلح مطالبة بالإشباع ! » . قالت سميرة : « لكنها لا تشبع ، فهى كالمعدة تماماً ، كلما امتلأت وجب القيام بعملية الهضم ، وكلما هضمت وجب القيام بعملية الامتلاء ! » . قالت إيفيت : « إذن فهى رغبات أصيلة وليست « مستوردة » ، وذلك لأنها غريزية ، ويجب

إشباعها ! » . . فصاحت سميرة بحنق :. « ولكنها لا تشبع ، فماذا تفعلين ؟ هل تظلين تركضين وراءها لاهثة مقطوعة الأنفاس؟ » . هزت إيفيت كتفيها مدعية عدم الاهتمام وقالت : « لا أدرى » . قالت سميرة بإصرار : « بل يجب أن تدرى . اسمعى : ماذا يمنع الأم عن إهمال واجبها تجاه أولادها ؟ وما الذى يجبر الجندى على قتال الأعداء بحماسة ؟ وما الذى يدفع بالإنسان إلى مد يد المساعدة لفقير مهمل معدم ؟ أليس هو الضمير ؟ والإحساس بالمسئولية ؟ أليس هو التهذيب والخلق القويم ؟ . . وما الذى يمنعنى عن الرقص فى الشارع كلما حلا لى ؟ ما الذى يمنعنى عن تقبيل شاب وسيم أجده أمامى فجأة ؟ ما الذى يمنعنى عن الذهاب مع شاب أجده جذاباً وشهياً ؟ » . قالت إيفيت بنزق : « الذى يمنعك هو أنك لا تريدين ذلك بالفعل ! » . قالت سميرة بجدية : « ومن قال لك إنى لا أريد ذلك ؟ لقد حدث صباح اليوم أن مس « ربيع » يدى بيده ، وأحسست برغبة قاهرة لا تقاوم فى إلقاء نفسى بين ذراعيه ، ولكنى لم أفعل ذلك ! » . تأملتها إيفيت باستهجان وتساءلت : « وما الذى منعك عن فعل ذلك ؟ » . قالت سميرة بإصرار : « الوعى ، فأنا أعى أن على المرأة أن تظل سلبية فى علاقتها مع الرجل ، كى يظل يشعر بأنه سيد الموقف ، أم أنك تريدينه أن ينفر منى ؟ » . . فصاحت إيفيت : « ولكن هذا سخف . لنفرض أن ابن عمك « لوح » جامد ، فهل لا تمدين يدك وتحركينه ؟ » . قالت سميرة : « إنى لن أفرض ثقلى على رجل لايتجاوب معى ! » . قالت إيفيت : « دعيه يتجاوب ، ابدئى أنت ! » . فأجابت سميرة : « هذا دوره وليس دورى . » . قالت إيفيت بسخرية : « ومن قال هذا ؟ أمك أم التقاليد ؟ » . قالت سميرة : « بل عقلى ، الوعى الذى حدثتك عنه . » . فتساءلت إيفيت بدهشة : « وغريزتك ؟ وأحاسيسك ؟ وانفعالاتك ؟ أتقتلين هذا كله ؟ تصبحين آلة ، تصبحين «خشبة » ؟ » ، فقالت سميرة : « غريزتى وأحاسيسى وانفعالاتى تسير فى

الطريق الذى أخطه لها ، ولا أسير أنا فى الطريق الذى تخطه لى ! » . صاحت إيفيت بحنق : « لكن الغريزة أقوى ! » ، فقالت سميرة بإصرار : « بل العقل أقوى ! » . . وكانت سامية تفكر بذهول : « كلاهما على خطأ ، فالإنسان عبارة عن زورق تائه ، ينحرف ساعة نحو اليمين ، وساعة نحو اليسار . وكلنا زوارق تعيسة . . . تعيسة ! »

وقالت إيفيت : « استعمال العقل يمدنى بالتعاسة.. واستعمال ، أو بالأحرى الانسياق وراء الغريزة يمدنى بالسعادة ، وهدف الإنسان الأول فى الحياة هو البحث عن السعادة . فمن الطبيعى والمنطقى أن أندفع وراء الغريزة لأنها توفر السعادة » . . فضربت سميرة ذراع الأريكة بكفها وصاحت : « هذا صميم الخطأ ، فالعقل تقدم ، والغريزة تقهقر ! » . صاحت إيفيت باستخفاف : « يا إلهى !. . ما أجهلك فى أمور الحياة! أنصحك بقراءة (عشيق الليدى تشاترلى) » . . ووقفت تتلوى وسط الغرفة . مدت ذراعيها إلى أعلى فى حركة تمط مثيرة ، ورفعت صدرها إلى أعلى ، ثم أنزلت ذراعيها ومدت كفيها وأخذت تضغط صدرها بنشوة ، وقالت : «لم تعرفى أجمل ما فى الحياة ، ولهذا فأنا أتوقع بأن أجلك سينتهى وأنت بعد عذراء ! » . . فتساءلت سميرة بامتعاض : « أليس ذلك خيراً من أن أموت بغياً ؟ » . فتساءلت إيفيت : « وما علاقة العذراء بالبغى؟ » . فرمقتها سميرة وقالت وهى تستدير بوجهها نحو الحائط : « كلتاهما إنسان ، ولكليهما طريق خاصة فى الحياة . ولكنى واثقة بأن البغى لا تولد بغياً ، فى حين أن غلطة صغيرة قد تضيع العذراء فتخلق منها بغياً . وقد كان هدف العذراء حين بدأت الطريق هو السعادة .. أما النهاية ، فذلك يتوقف على الخطوات المنتهجة ، وعلى طريقة السير ، وعلى . . »

وأكملت حديثاً طويلا مليئاً بالحكمة والفلسفة ، لكن إيفيت ما كانت بحاجة إلى كل هذه الدروس المملة . وعندما تخرج المواقف التى تشارك

فيها عن دائرة الإثارة يبدأ عقلها فى البحث عن منفذ ومهرب . وابتدأت أفكار « د . ه . لورنس » تعبث بمخيلتها ، وأخذت تحوم فى دوامة من الهذيان الفكرى : الإنسان الجسد . . والإنسان الآ لة . . والكبت ، والأشباع ، والعقل والغريزة . . وانطلاق الفكر ، وانطلاق الجسد . وأخذت تقارن بين الشخصيتين المتناقضتين فى رواية « لورنس » : الزوج المفكر المقعد ، والبستانى الثائر القوى . أيهما أروع ؟ أيهما أرقى ؟ ذاك الزوج الضعيف المقعد المكابر ، أم هذا القوى المتوقد الجميل ؟

وقالت سامية : « إيفيت ! وأطفالك يا إيفيت ؟ ماذا عن «سم سم» و« نينا ؟ » . فنفضت إيفيت يديها فى الهواء كما لو كانت تحاول نفض هم مزعج يفاجئها ، بينما قالت سامية بتروّ : « إيفيت : لن أناقشك وأتفلسف معك . دعك مما قاله « لورنس » وما قاله أفلاطون وتدبّرى مصلحتك أولا : هل تعتقدين أن من صالحك هدم بيتك ؟ » . فقالت إيفيت وهى تستدير نحو النافذة المطلة على الحديقة : « لست سعيدة فيه ، لأحافظ عليه ! » .

— ولكن لماذا ؟ لديك كل ما تتمناه النساء ، فماذا تريدين ؟

أجابت إيفيت وهى ما زالت مستديرة بوجهها : « أولئك النساء يفكرن بأشداقهن ! » . فتساءلت سميرة ساخرة : « وأنت ، بماذا تفكرين؟ بغريزتك الجنسية ؟ » . فاستدارت إيفيت بغضب وتمتمت من بين أسنانها : « لو لم تكونى فى بيتى ! نعم ، ولم لا ؟ نعم ، أنا أفعل ذلك ، أما أنت فلا تفعلين ، لا لأنك أرقى ، بل لأنك لا تمتلكين هذه « الموهبة » الجسدية التى تعيننى على التفكير ! » . . فقالت سامية مهدئة : « عدنا لمشاحنات الأطفال ! أهكذا يتناقش المثقفون ؟ . . إيفيت ، أنصتى إلى : حبيبتى ، أنا فقط أريد أن أعرف كيف ستتدبرين أمرك ، ماذا لو ارتاب شكرى فى تصرفاتك ؟ ألا يحس ببرودك نحوه ؟ » . فأطلقت إيفيت ضحكة جافة : « هه ، وكأنه يعبأ بحرارتى أو برودتى ! إن ما يهمه

هو أن يبيع أكبر كمية من الثلاجات وأفران الغاز والغسالات . . وهلم جرا . الآلات هى همه الوحيد فى الحياة ! وأما بالنسبة إلى فإنه لا يشرفنى حتى بمعاملتى كآلة ، فالآلة تثيره وتسليه وتملأ جيوبه ، أما أنا فإنى – كما يقول – أثير ملله وغيظه ، وأفرغ جيوبه ! ». . . وفجأة ، ضربت إيفيت ظهر الأريكة بيدها ضربة قوية رنت فى أرجاء الغرفة ، وأخذت تشهق فى نوبة حادة من البكاء : « خذنى يا رب ! ليتنى أموت . ليتنى أموت ! » .

وأخذت الاثنتان تهدئانها ، بينما أطلت الصغيرة من وراء الباب تنظر برعب وجزع إلى أمها ، وارتفعت شفتها فجأة وتقلص وجهها وأخذت تبكى بصمت . ولكن أحداً لم يشعر بوجودها ولا بألمها ، فقد كانت أمها تبكى سوء حظها ، ونحسها ، وخيبتها فى الحب والحياة ! . . وحاولت سامية التخفيف عن إيفيت ما أمكن ، وأخيراً استطاعت إقناعها بالذهاب إلى الحمام لتغسل وجهها ، قبل مجىء زوجها للغداء.

ولم يلبث شكرى أن دخل محملا بأكياس ورقية مليئة بالفاكهة والخبز ، فركضت الصغيرة وصدمت رأسها فى ساقه بلهفة وهى تنادى : «بابا . . بابا » ، بينما اقتربت منه إيفيت بتلكؤ وابتسمت بتكلف وهى تحمل عنه بعض الأكياس وتذهب بها إلى المطبخ . ورأى الزوج الضيفتين تحتلان ركناً من الصالة ، فابتسم ورحب بهما بصوت تعب ، ثم اقترب منهما وصافحهما بيد ، بينما أمسكت يده الأخرى بيد ابنته . كان طويل القامة ، عريض المنكبين ، ممتلىء الجسم ، وفى بعض المواضع يكاد يميل إلى السمنة . وكان له بطن ناتىء يكاد يصبح كرشاً ، ولولا طول قامته لظهر أكثر بروزاً . بشرته تميل إلى البياض الشاحب . أما عيناه فتميلان إلى الخضرة . قليل الشعر فى قمة رأسه ، مفلطح الجبهة بدون بشاعة . لم يكن وسيما ، لكنه لم يكن بشعاً . متوسط الذكاء ، طيب القلب ، محدود الثقافة . لم يكن يعبأ بقراءة الصحف والكتب

وسماع الأخبار أو مناقشة السياسة ، فقد كان تاجراً ولا يعبأ إلا بالتجارة وأسعار النقد الد ولى ! .

هبط على الأريكة ملقياً بجسمه عليها بحركة مسترخية كسول ، ومد ذراعيه بطول ذراعي الأريكة ، ومد ساقيه فى وضع مريح ثم تمتم : « عند ما استيقظت فى الصباح ورأيت الشمس تملأ العالم ، ظننت أن « نيسان » (أبريل) سيدفئ عظامنا قليلا . ولكن السماء تأبى الكف عن الأمطار . وها هى البرودة تعود من جديد ! ». ثم تحدثوا قليلا : فسأل الضيفتين عن حال المكتبة ، والبيع ، وهل تجارة الكتب مربحة ؟ وما أخبار عبد الرحمن ونسرين ؟ ثم ما أخبار بشار وسهى ، أما زالا على حالهما ؟ .. وأخبرته سميرة عن وصول ابن عمها ، وكيف تركته فى المكتبة مع عبد الرحمن . واقتربت الصغيرة منه وطلبت من أبيها أن يجلسها على ساقه ، فرفعها ببطء ووضعها على فخذه بعد أن اعتدل فى جلسته ، لكنه أنزلها فى الحال منكراً : « ما هذا ؟ أيتها اللعينة ! إذهبى وغيرى سروالك القذر ، هيا ! » . والتفت إلى إيفيت قائلا بامتعاض : « أشتهى أن أجدها مرة واحدة بسروال نظيف ، فهى دائماً قذرة ! » . . فلوت إيفيت شفتيها ولم تعلق ، فى حين نظر هو إلى بنطلونه فرأى بقعة مبلولة تحتل فخذه ، فكشر زاوية أنفه وقال معتذراً : « هذه الطفلة كالأنبوب ! » ، وقهقه بطيبة ، ورمى إيفيت بنظرة متسامحة صبور ، فقالت بتأفف : « تنظر إلىّ كما لو كنت أنا التى تبولت على فخذك ! » . فابتسم وهو ينظر فى وجهى الضيفتين ، وقال بمرح : « نحتمل منك ما هو ألعن ، أفلن نحتمل التبول ؟ » ، فقالت مزمجرة : « أشتهى أن أسمع من فمك كلمة مديح أو تقدير ! » ، فزم شفتيه وقال بسخرية مرحة : « فعلا ، معك حق ، يجب أن أقول بأن سراويل نينا دائماً نظيفة كالفضة ، وأن طبخ خديجة يجعل من الشهية مفاعلا ذرياً ، وأن وجود الغبار على سطح الزجاج والأثاث يقيهما العت والتلف ! ! » . فقالت إيفيت وهى

تستدير نحو سميرة ، كمن تشهدها على أمر جلل : « أرأيت ؟ يريدون منا أن نكون خدماً فى ثياب سيدات مجتمع ! » ، واستدارت نصف استدارة ، قائلة باشمئزاز : « لم يكن ينقصنى إلا الجلوس فى المطبخ طيلة النهار ، لأرقب خديجة وهى تطبخ ، ثم أعصب رأسى وأدور على قطع الأثاث ألمعها وأدعكها . لا يا سيدى ، أنا لم أعتد هذه الأعمال ! » . . فقاطعها يكمل ما تريد قوله : « أعلم : فى دار أبيك كان الخدم أكثر من قطع الأثاث ، وكانت الدادة تأتيك بفنجان الحليب حتى سريرك . سريرك المغطى بالحرير طبعاً ! وطبعاً ، السجادة التى تحت سريرك والتى كان طولها لا يزيد عن المتر كان ثمنها يقدر بما يعادل ثمن كل السجاد المفروش فى بيتى المتواضع هذا ! » .

احمر وجهها غضباً وقالت : « أتسخر ؟ » . فابتسم وأجاب : « أبداً ، ولم أفعل ذلك ؟ ألم يكن صحيحاً ما قلته ؟ » . فقالت بعصبية : « فلا تلمنى إذن ! » . فتساءل متصنعاً العجب : « على ماذا ؟ » . أجابت : « على سراويل « نينا » وطبخ خديجة والغبار على الزجاج والأثاث . أنا لم أعتد أعمالا « بدائية » كهذه! » . تساءلت سامية بدهشة : « هل تسمين أعمال البيت وواجبات الأمومة أعمالا بدائية ؟ » . أجابت إيفيت بنزق : «هذه الأعمال التافهة باستطاعة أية فتاة محدودة الثقافة والإمكانيات أن تقوم بها! » . . فقال شكرى ببرود وسخرية : « بالله ألا تقصين علينا كيف قضيت نهارك ، وما الذى أنتجته طوال اليوم ؟ » . . فأطفأت سامية سيجارتها فى المنفضة بعصبية ، بينما تشاغلت سميرة بالعبث بحلقة معدنية فى حقيبة يدها . . وقالت إيفيت بغضب : « هل ستفتح لى محضر تحقيق ؟ وهل يجب على أن أعطى تقريراً مفصلا عن تحركاتى وتنقلاتى كل يوم ؟ فى أى عصر تعيش يا أستاذ ؟ لسنا فى عصر الحريم يا مولاى ! » . . فرمقتها سميرة بدهشة : « أيتها الوقحة ، ولديك المقدرة رغم كل هذا على التحدى والاستفزاز ؟ لو كنت مكانك لخرست ، ولما رفعت عينى فى

وجهه ! » ، فقال شكرى زافراً : « من الأحسن أن نحتفظ بمشاكلنا لأنفسنا ولا نصدع رأس الناس بها ! » . . فقالت إيفيت فجأة كما لو كانت تقذف طعاماً يضايق معدتها : « وماذا لو مشيت تحت المطر ؟ لقد كنت أمشى تحت المطر . » فرفع شكرى عينيه وحدق فى وجهها ، ثم هز رأسه باستسلام . . فقالت إيفيت ممتعضة وبنفور : « ماذا ؟ ألا يروقك ما فعلت؟ ألم تر إنساناً يمشى تحت المطر؟ هناك أناس يعشقون المشى تحت المطر ، وغيرهم يتزحلقون على الثلج ، وآخرون . . » . . ونظرت سامية خفية إلى شكرى ، فوجدته يهز رأسه باستسلام ومرارة ، أما سميرة فكانت تحدق فى وجه إيفيت بدون وعى ! . . والأخيرة « تدندن » بكلمات لحن راقص ، وتعلق عليها بعبارات استعارتها من « عبد الرحمن » ! . . وأخيراً وقفت سميرة فجأة قائلة : « أرانى مضطرة إلى الذهاب ! » . . . ثم تبعتها سامية قائلة « وأنا كذلك ! » .

وعندما خرجنا من القاعة إلى « الفراندة » الزجاجية كان المطر قد بدأ ينقر الزجاج محدثاً أصواتاً تتردد أصداؤها المكتومة فى أنحاء المكان بخشوع . وعند ما وصلنا إلى منتصف الممر المؤدى للبوابة الحديدية سمعنا شكرى يهدر : « إيفيت ، أدخلى وكفى عن هذا » ! . ونظرنا ، فوجدناها تقف فى منتصف الدرجات الرخامية وقد مدت ذراعيها ؛ وكفاها مفتوحتان للسماء المطيرة . ورفعت وجهها بينما أغمضت عينيها وعلى شفتيها ابتسامة نشوانة غامضة . . فظهرت كعابدة وثنية تتعبد إلى إله المطر ، وهى تطلق قرقرة عابثة !

١٩

أصبحت معالجة إيفيت هى شغل المجموعة الشاغل ، ونصب كل واحد من نفسه حكماً عليها . حتى فاروق نفسه لم يتورع عن التلميح لسميرة ونسرين بأنه ضحية سوء فهم من المجموعة ، وسوء تصرف من

إيفيت . وإن كانوا لا يصدقون ما يقوله فليراقبوا إيفيت جيداً ليعرفوا أنها امرأة مريضة ، وأنها بحاجة لطبيب نفسى ! ومرة أو اثنتين تجرأ وقال عن إيفيت أمام سامية والمجموعة – بلهجة فيها الكثير من الغمز – إن « إيفيت امرأة جميلة فقط » ، وحدجته سامية بنظرة سوداء تعنى أن عليه أن يغلق فمه ، فأغلقه فى الحال . أما فى حضور عبد الرحمن فلم يأت على ذكر الموضوع أبداً ، إذ لم يكن عبد الرحمن ممن يكتفون بتوجيه النظرات اللائمة فقط ، بل كان يحدث أن يفيض كيله فيصب على رأس محدثه غضبة شديدة قد تنتهى بمشكلة حقيقية ! . . وكانت إيفيت قد أصبحت لا تطاق : شجار دائم مع زوجها ، ومشاكل لا حصر لها بينها وبين الجميع ! ضربت الخادمة يوماً فأوقعتها أرضاً ، واصطدم رأس الخادمة بالحائط فانكسر أحد أسنانها الأمامية ، وجرحت شفتها جرحاً بليغاً أدى بها إلى غرفة العمليات فى المستشفى ، وغرزتين دشنتا الشفة المشقوقة . . ومشكلات لا أول لها ولا آخر وقعت على رأس شكرى من جراء تهديد أهل الخادمة بخطف أحد ولديه ، أو الاعتداء على زوجته فى الشارع ، أو اقتحام منزله ليلا ! ! . . حتى اضطر لعقد معاهدة سلام فيما بينه وبين أهل خديجة ، مقابل خمس أوراق نقدية من فئة العشرة دنانير !

وكانت إيفيت تبكى يومياً ، وتخرج من البيت باستمرار ، ولا ترى إلا « بتقاليع » غريبة من ثياب مفرطة البهرجة ، أو تسريحات بأشكال لا تخطر على بال بيكاسو نفسه ! . . ماذا كانت تقصد بتهربها الدائم من البيت ؟ ربما كانت تريد نسيان وضعها كامرأة متزوجة وأم . وربما كانت تحس بضيق شديد من مكثها فى البيت ، ولهذا تحاول الهرب منه ، وربما كانت تحاول إيجاد حل أو عزاء لمشاكلها وأحزانها ، المهم أنها لم تفلح فيما ابتغت ، ومشاكلها ازدادت تعقيداً ، وهمومها ازدادت ثقلا ، وأحزانها أصبحت تهدد أعصابها بالانهيار . وشكرى التعيس لا ينفك يسأل المحيطين به – بطيبة وسلامة نية – عن الطريقة المثلى لمعاملة

زوجة كزوجته؟ ويتساءل بغباء يشبه البلاهة : « ماذا تريد ؟ ما الذى ينقصها ؟ البارحة فقط اشتريت لها معطفاً من الفرو بمبلغ كذا ! » . . ولم يغب عن بال شكرى أن ينصح صديقه فاروق بعدم الزواج ، لئلا يقع فى مأزق حرج كهذا . وبالطبع : سأله فاروق عن نوعية ذاك المأزق، وشكى له شكرى ما جاش به الصدر وطفح به الكيل ، فقال له فاروق هامساً : « هل يضايقك دلال النساء؟ كلهن يفعلن ذلك ! »

أما كيف عرف فاروق ، ومن أين استقى حكمته الفريدة هذه ، فهذا أمر لم يسأله عنه شكرى ، فثقته بصديقه غير محدودة ، وبالطبع فإن فاروق عند حسن ظن صديقه ، ولكى يخفف من حدة الأجواء المسمومة التى يعيشها شكرى فى بيته ، أصبح يقضى معظم أوقاته عنده : فالسهرة فى منزل شكرى ، والعشاء على مائدة شكرى ، وأجمل الأوقات مع شكرى! وفى المقابل كان يدعوهما إلى النوادى والسينما والحفلات الراقصة!

وبدأت المدينة تلغط . . وأصبحت تصرفات إيفيت حديث المجتمعات والأندية ، وقيلت أشياء كثيرة ، من جملتها إن فاروق « الدون جوان الماكر » يعرف من أين تؤكل الكتف ! . . وحاولت سامية الكثير من أجل كسب ثقة إيفيت ، أفهمتها أن علاقتها مع فاروق ستكتشف فى يوم من الأيام ، وأنها ستخسر زوجها مقابل رجل لا يبتغى سوى التسلية وملء الفراغ . وأنكرت إيفيت وجود أية صلة لها بفاروق ، فليست هناك أية رابطة بينها وبينه سوى الإعجاب والحب العذرى ! وابتسمت سامية ابتسامة صفراء وتساءلت ، وهى تنظر فى عينى إيفيت بإصرار : « الحب العذرى ؟ ! » . فما كان من إيفيت إلا أن بكت وشهقت وضربت وجهها وصدرها وأخذت تصرخ بهستيرية : « لم لا تصدقون؟ ألا تعترفون بوجود الحب العذرى ؟ ألا تعترفون بصداقة الرجل والمرأة ! ثم إن فاروق صديق ودود ، عفيف النفس شريف المقاصد ! » .

وذات يوم أمسك عبد الرحمن بشكرى وقال له : « لم لا تأخذ

زوجتك فى رحلة طويلة للبنان أو أوربا ، فقد يكون فى ذلك نفع وتهدئة لأعصابها المتعبة ؟ » ، فهتف شكرى مستنكراً : « أعوذ بالله ، وأترك عملى طوال تلك المدة ؟ ثم إننى أسكتها البارحة بسهرة فى فندق الكونتننتال ، وكان فاروق معنا ، وقد رقصنا حتى الفجر ! » ، وأخذ يتثاءب ، وقام معتذراً لأنه سينام طوال بعد الظهر كى يتمكن من حضور حفل القنصلية الأمريكية مساء هذه الليلة ، ففاروق قد استطاع تدبير بطاقات لثلاثتهم ! » . . . وزوى عبد الرحمن حاجبيه وقال ، بصوت حاول أن يجعله جافاً : « رفع الكلفة مع الأصدقاء قد يسبب المشكلات ! » فتساءل شكرى وهو يتمطى : « أى أصدقاء ، وأية مشكلات ؟ » : فقال عبد الرحمن بجدية : « فاروق رجل أعزب ، وإيفيت جميلة ، والناس فى هذه البلاد كثيرو الكلام ! » . . فقهقه شكرى بطيبة وقال : « يا شيخ . . ولا يهمك . . دعهم يتكلمون ، أتريدنا أن نعيش الكآبة خوفاً من تقولاتهم ! وفاروق صديق ودود ، عفيف النفس شريف المقاصد ! » . فتمتم عبد الرحمن بإبهام وهو يزوى حاجبيه : « فعلا . . »

لكنه لم يلبث أن تحدث مع سامية فى الموضوع ، وناقشا الموقف بجدية ، فطلبت منه سامية مفاتحة فاروق فى الأمر ، وقال عبد الرحمن بغيظ : « ذلك اللعين لا يعطينى فرصة للجلوس منفردين معاً ! لم أعد أراه إلا نادراً ، ثم إننى أعرف مسبقاً أنه سينكر ما رأيناه فى غاية الجوافة : والمشكلة ليست فاروق بالذات ، فلو استمرت تصرفات إيفيت بهذا الشكل ، فستجد بدل فاروق عشرين فاروقاً . المهم هو توعيتها هى ، وهذا من اختصاصك أنت ! » . وعلى أثر ذلك تركت سامية المكتبة — بعد أن تعهد عبد الرحمن بأخذ مكانها فى المكتب ريثما تعود — وذهبت لزيارة إيفيت .

كانت إيفيت ما تزال فى ثياب النوم ، فقد كانت تنوى الرجوع للفراش بعد أن ذهب شكرى إلى عمله ، والأطفال إلى المدرسة ، والخادمة

إلى المطبخ . إن سهرة البارحة فى القنصلية استمرت حتى الثانية عشرة : وبعدها ذهب الثلاثة مع بعض الأصدقاء من موظفى القنصلية إلى حيث أكملوا السهرة فى فندق (سان جورج) حتى الفجر . ورقصت إيفيت مع فاروق طويلا . دار بها بعيداً عن عينى زوجها ، وهمس فى أذنها بكلمات أغنية « غرباء فى الليل . . يتبادلون النظر » . وأخذ يحدق فى عينيها النبيلتين باضطراب وأسى ، فهو ما عاد مازحاً فى علاقته بها : وها هوذا يزداد تعلقا بها يوماً بعد يوم ، والعلاقة التى قصد بها ملء فراغه باتت أكثر من مجرد تسلية عابرة ! لقد بات يشعر بالحسرة كلما اضطر لمغادرتها أو توصيلها إلى منزلها بعد كل سهرة . وقد بات يتضايق من مغازلة الأصدقاء لإيفيت ! وفى الوقت الذى يكون فيه شكرى منشغلا بالحديث مع أحد المعارف عن أحدث نوع من المكانس الكهربائية ، كان يتناقش هو وإيفيت حول آخر كتاب نصحها بقراءته . وكم كان غريباً أن يجد أن إيفيت لم تكن غبية كما كان يتوقع ، فهى تلتهم الكتب التهاماً ، وخصوصاً الغرامية منها ، وأصبحت لها أفكار خاصة حول الحب والجنس والحياة . وكانت تتساءل وهى تدور معه فى حلقة الرقص ، وفمها لصق أذنه : « وما معنى الخيانة ؟ أهى أن أخون رجلا لا يربطنى به سوى طفلين ، أم أن أخون رجلا يربطنى به كل شىء ؟ » ولما لم يجب ، دفنت وجهها فى كتفه وأخذت تبكى ، وأحس بها قريبة جداً منه فى تلك اللحظة ، وأن دموعها تعنيه كثيراً . . وإذا بها تعود إلى التساؤل : « ما معنى الحياة ؟ وما هدفها ؟ إن هدف الإنسان السعادة ، فلماذا نضل عن ذلك الهدف ؟ » . . ولا يجد فاروق ما يجيبها به سوى قبلات مختلسة يطبعها على عنقها كلما وجد الفرصة المناسبة . وكانت تتأمل زوجها وهو يحتسى الويسكى ويلتهم أطباق « المزة » بشهية غريبة ، فتحدث نفسها : « لست بالنسبة له أكثر من طبق مزة » ! ! . . ويقول فاروق برأفة : « لا تظلميه ، فهو يحبك » . فتتساءل بسخرية : « يبدو أنك

تشفق عليه! ». فيلوى فاروق رأسه بعيداً عن نظراتها المتهمة ويقول بحسرة: « نعم » . وتشد كفه بأصابعها وتقول بغيظ : « وأنا . ألا تشفق علىّ؟» ويقول بحزن : « بلى » . وتصر بأسنانها وتتساءل : « فما معنى هذا ؟ » .

وكان يقع تحت وطأة أسئلتها المحرجة ، وقد أصبحت سليطة وشديدة المراس فى الفترة الأخيرة ، فإن تلك الكتب أعطتها حجة قوية ، وأفكاراً يصعب الوقوف فى وجهها ! . . وكان هو يحب شكرى ، وكلما ازداد تعلقه بإيفيت ازداد تعلقاً بشكرى أيضاً ، فما السر فى ذلك ؟ أهو حب الصياد لفريسته ؟ وأيهما الفريسة ؟ إيفيت ، أم شكرى ؟ . . أم هو الإحساس بالذنب ؟ أو هى الألفة التى تسببها العشرة الطويلة ، وقد بات يلتقى بشكرى ليليًّا تقريباً ، كما أنه بات يمثل « محامى الدفاع » بالنسبة لصديقه الحائر ، فهو أحياناً يضطر للتصدى لهجمات إيفيت التى تكيلها لزوجها ، فى محاولة لنفث كبتها وللانتقام من رجل تحس بأنه بات سجاناً وليس زوجاً ! . . وأحياناً يصرخ فى وجهها بعنف ، ويؤنبها تأنيباً خشناً ، ويقول لها إنها امرأة عديمة القلب ، وإن زوجها ملاك من السماء ، وإنها لو كانت زوجته لما استمر فى العيش معها أسبوعاً واحداً . . وتصرخ فى وجهه بوحشية : « لا تتدخل فى شئونى ، أنت عدوى ، ولا أريد رؤية وجهك بعد الآن ! » .

لكنها فى الصباح تتصل به تليفونيًّا وتقول له وهى تشهق : « أنت السبب » : ويهتز قلبه برأفة ، وأحياناً بغضب . ومرة أو اثنتين ، كان يؤدى به الصراع الذى بات يعيشه إلى قرار بقطع علاقته بها ! . . وكان يغيب بالفعل يومين أو ثلاثة ، فتتصل به ، وتبكى وتقول إنها ستنتحر إذا هو ابتعد عنها ، وأنه إن كان يريد إبقاءها زوجة لصديقه ، فعليه ألا يحرمها وجوده ، وإلا فما معنى الحياة بعدئذ؟ . . وتحت وطأة إلحاحها ، وإلحاح شكرى ، وإلحاح الملل والفراغ ، كان يعود إليها من جديد !

في تلك الليلة ، وهي تبكي على كتفه ، أحست بدموعه تسيل على أذنها ، فازدادت التصاقاً به وأخذت تقبل عنقه وهي تنتفض بعذاب وتهمس في أذنه : « لم لا نهرب ؟ سنذهب إلى إيطاليا أو إلى أستراليا ونعيش معا ، ولن تتركني بعد ذلك ، ألا تريد هذا ؟ » .

ولم يجب ، بل شدها إليه بقسوة وتنهد ، فقالت : « أنا أعرف فيم تفكر ، لقد بت تحب شكرى أكثر مما تحبني ، أليس كذلك ؟ لست غبية كي لا ألحظ مدى ما أصبحت عليه صداقتكما من قوة . أنا أعرف سر عذابك ونحولك ، فأنت قد بت تخاف عليه أكثر مما تخاف عليّ ، وبات إخلاصك للصداقة أكثر من إخلاصك للحب . لا بأس ! افعل ما تشاء ، فلن أعيش طويلا لأشهد النهاية . ها أنا أقول لك هذا ، ستكون السبب المباشر في موتي . وبعدها فلتبق على صداقتك له ، فهو أحق بك مني ! » . . فأجابها زاجراً : « كفى عن البلاهة ، لقد أصبحت لا تطاقين ! » . . فتلوى عنقها وتقول بغيظ : « كيف أحببت رجلا مثلك ؟ أنت لست أكثر منه إحساساً . الرجال كلهم عديمو الإحساس والعواطف . أنت تعرف الظروف التي دفعتني إليك ، ولو كنت أجد من يحبني لما التفت إليك ! » . . فيحملق فيها بعجب ويتساءل : « هكذا ! إذن فقد كنت اللعبة التي لم تجدى غيرها ! وأنا الذى كنت أحسبك امرأة عاطفية خجولا ، وها أنذا أكتشف أنك لست بالعاطفية ولا بالخجول ! » .

ويعودان إلى المائدة وكل منهما يطبع على وجهه تكشيرة ضخمة ترعب شكرى المسكين ، فيتساءل بدوره عمن كان السبب في ذاك الغضب . وتبدأ هي بالكلام ، فتشير إلى فاروق بأصبع الاتهام قائلة إنه غير أهل للصداقة ، وإنه فظ وغليظ ، وإن التي ستتزوجه ستكون أتعس امرأة في العالم . ويتساءل شكرى بذكاء يحسد عليه : « كل هذا لأنه رد على اتهاماتك الموجهة إليّ ؟ » ، ثم يلتفت إلى فاروق قائلا : « في المرة

القادمة ، عندما تبدأ إيفيت فى نفث غضبها علىّ ، فما عليك إلا أن تغلق فمك ، وإلا تحول غضبها عليك أنت ! » . . فيقول فاروق بجمود : « فإغلاق الفم هو فضيلة المغلوبين ! » . وتتساءل إيفيت بغيظ هستيرى : « لا أظنكما ستدعيان الفضائل ، لأنى أرى فميكما مفتوحين على سعتهما! » . . فيجيبها فاروق متسائلا بدوره بغيظ : « وماذا عن فمك أنت ؟ » ، فتصرخ : « كيف تجرؤ ؟ كيف تجرؤ؟» . . وتضيع صرخاتها فى عباب الموسيقى المنبعثة من الأوركسترا الإيطالية ، والمطرب يغنى كلمات عاطفية تبدأ بكلمة الحب ، وتنتهى بكلمة الحب أيضاً . وفى نهاية السهرة ، وعند ما تتردد أصداء اللحن المعهود : « غرباء فى الليل » ، تتبادل إيفيت وفاروق نظرات حزينة منفعلة ، وتبكى بحرقة فى ظلمة الزاوية المضاءة بالشموع . فتمتد يد فاروق تتحسس يدها تحت المائدة ، فى حين يدندن شكرى اللحن بفمه وهو يحتسى الويسكى ، ويمضغ المزة !

٢٠

أمسكت إيفيت بالتليفون وهى فى فراشها وتمطت قليلا ، ثم كورت ساقيها واستلقت على جانبها الأيسر وهى تضع السماعة على أذنها ، وقالت هامسة : « أما زلت غاضباً منى؟ » . فزفر وقال : « ماذا تفعلين؟ أريد أن أراك . » ، فأطلقت ضحكة منغمة وقالت : « لا ، لن أراك الآن لأنى نائمة ، لقد أفقت وكل عضو فى جسمى ينشد النوم . سأموت من كثرة السهر . ألا تلاحظ أن بشرتى قد ازدادت شحوباً ؟ » . وفى الماضى كان ينتظر كلمة كهذه ليمطرها بوابل من الغزل : فبشرتها أجمل بشرة فى العالم ! وخداها أشهى خدين حملتهما تفاحة . . وعيناها مرآة السماء على الأرض . . إلخ . أما الآن ، فما عادت عواطفه الحائرة بحاجة لمثل ذاك الكلام المزيف ! . : وقال بعد فترة صمت : « اسمعى . لقد كنت أفكر طوال الليل . . » . فضحكت باستهزاء :

« أى ليل ؟ لقد افترقنا فى الصباح ! » . لكنه قال مقاطعاً : « إيفيت ماذا أقول لك ؟ يجب أن نجد حلا لما نحن فيه ، أنا لا أستطيع الاستمرار فى وضع كهذا . لقد أصبح الموقف متعباً ومثيراً للكآبة والقلق ! » . فقالت بخبث : « حسناً ، إذن فلتنفذ المشروع الذى عرضته عليك ! » . . ولما لم يجب واصلت : « ماذا تنتظر ؟ أنت غنى ، وباستطاعتك أن تقوم بكل المشروعات التى تخدم حبنا . وأنا سأتبعك إلى آخر العالم ! » ، فقال باتزان غريب : « وماذا عن طفليك سم سم ونينا ؟ » . فصاحت بخشونة : « هذا من شأنى وحدى ! » .

— بل من شأننا معا ، فقد تستفيقين وتتهميننى بأنى السبب فى حرمانك من طفليك ! .

قالت بغضب : « ألم تفكر فى هذا إلا الآن ؟ لم لم تفكر فيه قبل أن توقعنى فى حبك ! إسمع ، أنا أعرف ماذا تقصد ، تريد ، تريد الخلاص منى ، أليس كذلك ؟ تريد الابتعاد عنى كما حاولت فى المرتين السابقتين ، وها أنت تخترع المبررات لكى تلقى بى جانباً وتتزوج من ابنة الوزير الشقراء . أتظننى بلهاء؟ أنا أعرف أن والدك يحثك على الزواج من ابنة الوزير ! والدك يريدك رجل سياسة لا رجل عواطف . . أليس كذلك ؟ » . . وأخذت تقهقه بعصبية : « ستكون نائباً فى البرلمان كوالدك ، فمن شابه أباه ما ظلم ، أليس كذلك ؟ » ، وعادت تقهقه بسخرية لاذعة : « وستكون ممثلا للشعب فى مجلس الأمة . . ها ها ها . .

وستكون زوجاً لدجاجة شقراء محدودبة الظهر ، لكنها تبيض ذهباً ! وأنت يا قرة عينى تحب الدجاجات التى من هذا النوع ، فهن يعرفن كيف يوصلن أزواجهن إلى الكراسى ! » . . فصاح بغضب : « إن لم تكفى عن هذا الكلام ، سأعرف ما أنا صانع ! » ، فقالت بسخرية : « أتهددنى ؟ أم تراك تحاول الظهور بمظهر الشخصية الفذة ؟ أتظننى سأسترحمك وأستعطف قلبك ؟ لا يا سيدى ، اذهب وافعل ما تريد .

هيا :- اقطع هذه المحادثة واذهب من توك واطلب يد ابنة الوزير وبذلك تصبح النائب المرتقب ، وعريس الدجاجة الحدباء ! »، فقال بعنف : « متى تكفين عن الحماقة ؟ ألن تكبرى ؟ » . صاحت بانفعال : « ماذا تقول ؟ أنا حمقاء ؟ أنا حمقاء ؟ صن لسانك يا أستاذ . أنا إنسانة عاقلة ومفكرة ، وأتحداك وأتحدى العالم كله ، هيا أثبت أن هناك من هى أذكى وأكثر ثقافة منى . مع من تظن نفسك تتكلم ؟ أنا إيفيت يا أستاذ ، ألا زلت تجهل من هى إيفيت ؟ » . . فقال ببرود : « ومن هى إيفيت ؟ » . صاحت ساخرة : « نعم نعم ؟ ألا تعرف من أنا ، أنا ابنة اسحق بك الصفدى ، أم تراك نسيت من هو والدى ، حسناً سأذكرك به ، أتعرف من هو أكبر وأغنى تاجر للسجاد فى الشرق الأوسط كله ؟ أتعرف من هو أوجه وأكرم رجل فى الأردن كلها؟ إنه والدى، هل تذكرت الآن ؟ » . . فقال بعنف : « أهو ذاك الذى أنجب أحمق ابنة على وجه الأرض ؟ وأظنهم يسمونها على ما أعتقد : إيفيت؟! » :. فصاحت وهى تشهق : « أيها المتوحش ، أيها البربرى ، سأريك ما أنا فاعلة ، وسأجعلك تبكى دماً من الخجل والندامة . وستكون أنت قاتلى ، ستكون السبب فى انتحارى ! » ، ووضعت السماعة بعد أن أسمعته شهقة لن ينساها . . فصاح بقلق : « إيفيت، إيفيت ! . . آه . . المجنونة . . . ستقتل نفسها ! » . وركض نحو سيارته محاولا الوصول إليها قبل أن تنفذ تهديدها الجنونى ، فمن يدرى ، قد تفعلها ، فهى . . فهى إيفيت !

وعندما وصل إلى منزلها ، كانت سيارة سامية أمام الباب ، وكانت سامية تقف فى « الفراندة » الزجاجية وهى ترتدى معطفها الأبيض ، وكان يبدو أنها قد وصلت من توها ، فغير اتجاهه ، ومر من شارع فرعى يؤدى إلى المدينة من جديد . . ودار بسيارته فى كل الشوارع الكئيبة الممطرة ، فقطع شارع البيرة ، وعاد أدراجه فسار فى الشارع

الرئيسي . وكان بعض الفلاحين يقفون على الرصيف تحت المطر فى انتظار الأتوبيس ؛ بينما وقف بائع الكعك والبيض فى زاوية قريبة من المحطة وقد غطى بضاعته بقطعة من النايلون اتقاء للمطر . ومر أمام لافتة ضخمة معلقة فى منتصف الطابق الثانى من بناية ضخمة تحتل أبرز مكان فى الشارع . أوقف سيارته أمام البناية ونزل ، ورآه بعض المارة فرفعوا أيديهم بالتحية . لكنه قفز الدرجات الموصلة ودفع باباً ودخل ، وكان هناك بعض القرويين يجلسون فى غرفة الانتظار ، ورآه السكرتير فأسرع لتحيته ومصافحته . وسأله فاروق عن الوالد ، فقال السكرتير : « والدك مشغول الآن . إحدى الشخصيات السياسية فى زيارته .أتريد الدخول عليه ؟ » ، فأجابه :« لا ، ولكن فور خروج الرجل بلغ والدى بأنى هنا . » ، وجلس فى غرفة الانتظار . وعند ما دخل فاروق مكتب والده ، كان هذا ما زال مشغولا عنه بالتليفون ، وكان يردد وراء كل مقطع أو كلمة : « نعم يا معالى الوزير . . حاضر يا معالى الوزير . . أمرك يا معالى الوزير . . »

وجلس فاروق فى الكنبة المقابلة للمكتب .. فى انتظار انتهاء الحديث .

كان مكتباً فخماً ، تدل كل قطعة فيه على مظاهر الثراء والترف . مدفأة كبيرة تتوهج كالشمس . سجادة رمادية تفرش الأرض كلها ، ستائر من قماش ثمين تزين النوافذ ، وقد انفرج القماش النبيذى عن « دانتيل » أبيض فى منتصف النافذة . وفى السقف تدلت حاملة عريضة لثلاث أنابيب « نيون » تشيع فى المكان ضوءاً مشرقاً . وعلى المكتب الخشبى الضخم منفضة وطاقم أقلام وقداحة ، كلها مصنوعة من خشب الزيتون المحفور والمطعم بالصدف . . وقال الوالد : « عاش من رآك يا فاروق ! » ، فرسم فاروق ابتسامة متكلفة وقال : « أهلا . » . وقال الوالد بابتسامة هازئة : « أهلا بك ، أين أنت يا رجل ؟ أنسيت أن

لك أهلا فى هذه البلاد ؟ » . . فقال فاروق برصانة غريبة : « أنت تعرف يا أبى أنى مشغول طول الوقت. » ، فنفخ والده دخان سيجاره من زاوية فمه كما يفعل كبار الشخصيات ، وقال بصوت ضخم يتناسب وجثته الضخمة وهيئته الصارمة : « مشغول بماذا ؟ » . فقال فاروق وهو يزوى ما بين حاجبيه : « مشغول بوظيفتى ، فى الوزارة . » ، فابتسم الوالد وهز رأسه بسخرية : « حقاً ! مشغول بوظيفتك ؟ » ، فرفع فاروق رأسه ونظر فى وجه أبيه ، وكان ذاك ينظر إليه بإمعان من خلال نظارته الغليظة . ولم يجب فاروق ، فقد كان يعرف تماماً ما يجول فى خاطر أبيه ! . . فى حين مسح الوالد طرف سيجاره بحافة المنفضة ، فتساقط الرماد جافاً جامداً ، وقال : « أتعلم من كان فى زيارتى ؟ » ، فهز فاروق رأسه نفياً . وكان والده ما زال يتأمله بإمعان كما لو كان يحاول أن يثير ارتباكه وقلقه ! . . وما لبث الوالد أن قال : « الوزير (. . .) كان هنا ، أتعرف ما سبب مجيئه ؟ » . وبدون انتظار لإجابة فاروق قال : « جاء لإجراء مشاورات معى بشأن دخولى فى الوزارة الجديدة ، بعد أن فوضه رئيس الوزراء المرتقب بذلك. » .. فقال فاروق بعجب : « حقاً !؟ » . وإذ ذاك سحب الرجل نفساً طويلا وقال بتأمل : « نعم ، سأصبح وزيراً ، أما أنت ، فلن تصبح شيئاً إذا استمرت صداقاتك وعلاقاتك النسائية على هذا المستوى ! » ، وهنا علا الوجوم وجه فاروق ، فقال والده بترفع : « أنا لن أتدخل فى خصوصياتك ، ولكن أحب أن ألفت نظرك إلى أن علاقتك بالميثلونى لن تجر عليك إلا الويلات . أنت تعرف ماضيه ، وحاضره ليس أفضل من ماضيه ، وهو مراقب ، وقد يقع قريباً فى يد الشرطة من جديد ، وترددك على تلك المكتبة السخيفة لن يكون فيه إلا إضاعة لوقتك وطموحك . أما مشكلة المشاكل فهى السيدة الرعناء . ماذا ! أتريد أن تكون بطلا لإحدى الجرائم أو الفضائح ؟ أهذا هو طموحك السياسى من أجل مستقبلك ؟ اطمئن ، فمستقبلك

لن يكون إلا مظلماً إذا استمرت تصرفاتك وعلاقاتك النسائية بهذا الشكل ! » . . فقال فاروق والوجوم يعلو وجهه : «أبى . . أنا ما عدت صغيراً ! » . وإذ ذاك زفر والده وقال بشيء من الانفعال : « أنت حرّ يا ولدي ، ولكن ، أمامك الآن فرصة لا تعوض ، فى البرلمان حالياً مقعدان شاغران ، فماذا تنتظر؟ أنا لا أستطيع تهيئة الجو أمامك وأنت صديق للميثلونى وعشيق لامرأة معروفة جداً ، ومن المتوقع جداً أن يصحو الزوج الأبله بين لحظة وأخرى . ويطلق فى الجو فضيحة أو جريمة ! » . فقال فاروق بتجهم : « لست صديقاً للميثلونى ! » . واستطرد الأب بسخرية : « لكنك عشيق إيفيت ، أليس كذلك ! » ، فقال فاروق بغضب : « لست عشيقاً لأحد . وعلاقتى بعائلة عبد الله هى علاقة صداقة فقط ، وشكرى ليس أبلها أبداً ، فهو شاب محترم ، وقد كان زميلى فى الدراسة . وإيفيت امرأة محترمة رغم كل ما يقال عنها ، وأنا أكن لها كل إعزاز واحترام ! » .. وإذ ذاك فتح الوالد عينيه عجباً ، وابتسامة ترف على شفتيه ، وقال : « لست عشيقاً إذن ، بل عاشقاً ! رائع ! وهذا ما يجعل للقصة حبكة . اسمع يا بنى : إلعب ما شئت ، واعشق ما شئت ، واسرق ما شئت ، ولكن دون أن تدع مجالا لأحد كى يضبطك أو يهددك . دعهم يظنون بك أسوأ الظنون ، دعهم يعتقدون بأنك كاذب وزان ولص ، دعهم يفترضون ما يريدون طالما أنت فى موقف حصين ، لكنك لا تعرف هؤلاء الناس : فهم كلاب ، لا يعضون إلا المستضعفين! أنا لا أمنعك عن القيام بغزوات أومغامرات» .

وإذ رأى فى وجه ولده تقطيبة ضخمة ، قال متراجعاً : « أنا أعرف أنه ما عاد لى سلطان عليك . لقد بت رجلا ، سيد نفسك ، ثم إن لسان حالك يقول بأنك أكثر ثقافة منى ، وأذكى منى ، وأكثر علماً منى ، ولكن مهلا ، فهناك الخبرة ، وهى تنقصك . . وهناك الحنكة ، هناك الذكاء التجارى الذى يوصلك إلى هدفك ويحقق لك أطماعك . هناك

ما يميز الرجل الناجح عن الرجل المنسى المهمل . ولا أظنك ترغب فى أن تكون منسياً ، فأنت طموح . ولنقل بصراحة : أنت أنانى ومحب للظهور ، ولن تقنع بالقليل أو حتى بالمتوسط ، فمن أدرى بك منى ؟ . . دون إخوتك جميعاً كنت أعرف أنك الناجح الوحيد ، فقد كنت الأعند ، والأقوى ، والأقسى . كنت تطلب الكثير ، ودائماً تتمنى أكثر مما تحصل عليه ، ولا يحلو لك إلا ما فى أيدى الآخرين . صفات كهذه لن تظل متوارية وراء الستار ، ولا بد من تهيئة الجو أمام هذه المزايا لتنمو وتتجه فى طريق طموح . فلا تضيع كل ذلك فى سبيل الميثلوفى أو إيفيت . اسمع ، ابتعد عن الميثلوفى وابتعد عن إيفيت . أنشىء صداقات — المفيد منها ! — واعشق النساء ، اصطدهن ، أوقعهن ، اخدعهن ، ولكن بدون فضائح أو مآس ! اسمع كلامى يا فاروق ، اتبع هذه الطريق ، فهى مضمونة النتائج . وكما قلت لك : لا تعط الناس أسرارك ، وإلا كنت من المستضعفين ، دعهم يفترضون ولكن لا تمنحهم منفذاً إليك ، لا تمنحهم فرصة ضبطك متلبساً ! التهم العشوائية دخان نشمه ولا نمسكه ، المهم هو سمعتك . افعل ما تريد ، ولكن بتستر ، ومن مصدر قوة . وهناك مثل عامى يقول : « شيئان لا نسمع بهما : موت الفقير وزنا الغنى ! » ، أفهمت ؟ » .

هب فاروق واقفاً بتجهم وقال : « سأراك فيما بعد ، شكراً . » ، ومشى يضرب الأرض بكعبيه ، فقد أحس بالإهانة والغضب ، وهو لن يسمح لوالده بالتدخل فى أمره أبداً ، فقد أصبح رجلا ، وهو حر ؛ والحال دائماً هكذا : الوالد ينصح ، والولد يرفض النصيحة ، أحياناً يرفضها دفاعاً عن مبدأ يؤمن به ، وأحياناً يرفضها لأنها لا تخدم نواياه ، وأحياناً يرفضها بدافع العناد والكبرياء ، وكان فاروق ممن يقفون الموقف الأخير . وعاد يجول فى الشوارع ، ومر ثانية أمام منزل إيفيت ، وكانت سيارة سامية ما تزال تقف أمام الباب ، فعاد أدراجه وأخذ يقطع شارع

الإذاعة بسيارته ذهاباً وإياباً . ومر بالمكتبة ، فأوقف سيارته أمامها وصعد الدرجات مسرعاً . وكاد يرتطم بـ « ربيع » الذى كان خارجاً لتوه ، وابتسما ، وتصافحا . وسأل ربيع فاروق أينوى قبول دعوة الميثلونى إلى ميثلون ؟ . . . وبدون تردد ، ولكى يثبت لنفسه أنه ما عاد طفلا ، وأن نصائح الوالد ما عادت تثير سوى سخريته ، ولكى ينفى عن نفسه تبعيته لوالده . . قال فوراً : « طبعاً ، سأكون فى الطليعة ! » . ودخل المكتبة ، ولفح وجهه دفء جوها ، ورائحة الكتب بنكهتها الخاصة العميقة . وقف وسط القاعة الضخمة ونظر للمكتب الزجاجى فرأى سميرة تجلس هناك بجوار عبد الرحمن . وكان هو يتكلم ، وهى تصغى بتأثر ، وقد ظهر الانفعال على قسمات وجهها الصبيانى . كان عبد الرحمن يتكلم بجدية ، ويبدو أن الموضوع كان شخصياً ومؤثراً . وكانت هى تستمع وهى مطأطئة الرأس ، بشرود .

وخرجت « نسرين » من قاعة السينما ، ورأت فاروق يقف هناك ، فحيته وقالت : « لماذا تقف هكذا ؟ ما بك ؟ » . وأخذت تتأمل وجهه العابس على غير عادة ، وتساءلت : « ما بك ؟ اقترب من المدفأة إذا كنت تشعر بالبرد . » ، فهز رأسه بشرود وقال : « لا ، مجرد صداع بسيط ، وسأجلس وأدخن . » . . وجلسا حول مائدة فى ركن منزو . أخرج غليونه ، فحشاه بالتبغ ، ثم أشعله ، وأخذ يمتصه بشراهة وانفعال . وانتبه لحاله فحدث نفسه : « ما بالى قلقاً ؟ ما الذى يضغط صدرى بهذا الشكل؟ طلبت العزاء عند والدى فزادمن شعورى بالقلق والتعب . وإيفيت . إيفيت . . لقد أصبحت مشكلتى الكبرى ، وسامية عندها الآن . تستدرجها ، تحقق معها ، وقد توقع بها . . وستكون فضيحة بالفعل ! » . . وخاطبته نسرين بتبرم : « هذه الأيام يبدو الكل مكتئباً . عبد الرحمن قلق ، وسامية فى حال لا تطاق ، وسميرة تبدو أكثر تعاسة بخطيبها مما لو كانت بدونه ! يبدو أنه لا يبادلها نفس المشاعر . أترى ؟ عندما

خرج ربيع من هنا كانا فى حال غريبة . تصور أنه لا يبادلها إلا الضرورى من الكلام . وأحياناً يرفض مجاملتها ، ببرود غريب ! . ورغم أنه لا يبدو قليل ذوق بهذا الشكل الذى يتظاهر به ، إلا أنى أعتقد بأنه لا يحبها ، فما رأيك ؟ » .

فى الماضى كان ينتظر مناسبة كهذه ليبدى رأيه فى الموضوعات ، أيًّا كانت تافهة ، ويبدأ مناقشات لا أول لها ولا آخر ، ويحلل نفسية هذا ونفسية ذاك ، ويعزو تصرفات تلك إلى الكبت ، وتصرفات ذاك إلى الكبرياء ، وأحياناً إلى قصر النظر . أما الآن ، فحاله لا تسمح له بالتمعن فى مشاكل الغير ولديه ما لديه . لديه . . إيفيت ! . . « أخشى أن توقع بها سامية ، ويفتضح الأمر ! »

وقالت نسرين : « ألست معى فى الاعتقاد بأن ربيع لا يحب سميرة !؟» فأجاب فاروق : « يبدو الأمر هكذا بالفعل ! » ، وقالت نسرين بثرثرة : « يا إلهى ، ما أروع صبر هذه الفتاة ، وجلدها ! لو كنت مكانها لصفعته على وجهه ، فماذا يظن نفسه ؟ ! ما أسخف هؤلاء الشباب ، يكون الواحد منهم لطيفاً ، ظريفاً ، شكوراً ، وعندما يغترب ويرى العالم الأوربى ، والحضارة ، والنساء ، ينسى أهله ! » ، فقال فاروق محاولا الانشغال بالحديث ، فى محاولة يائسة لنسيان اضطرابه وقلقه : « فما بالك أنت بدورك ؟ » . فابتسمت كمن ضبطت أثناء اقترافها لأكذوبة صغيرة وقالت : « حالى أنا يختلف يا عزيزى . لقد نشأت فى أمريكا ، ثم أن معظم أهلى وأقاربى هناك . والوضع الطبيعى لى هو أن أعيش حيث تسكن غالبية أفراد العائلة . ولولا إصرار سامية على المكوث هنا لما بقيت فى هذه البلاد . وقد أتمكن من إقناع سامية بالاغتراب ثانية لولا وجود عبد الرحمن . فإذا تزوجا فسأرحل نهائياً ، سأعيش مع عمتى هناك أو مع عمى . وأرجو أن يتزوجا ! » . . قال فاروق بسخرية :

« الميثلونى لن يتزوج ! » . نظرت إليه نسرين بدهشة وتساءلت : « ولماذا ؟ طبعاً الميثلونى سيتزوجها ، فهو يحبها . ألا ترى أنهما لا يفترقان ؟ » . فأجاب : « أعلم ، لكنه لن يتمكن من الزواج منها ، فرجل مثله لن يستطيع الزواج ! » ، قالت نسرين بحدة : « ولكن لماذا ؟ ما المانع ؟ انه فى حال ميسور ، وأختى كذلك ، وهما عاشقان قديمان . » ، قال بفتور : « لكن حاضر الميثلونى ليس أفضل من ماضيه ، وقد يعتقل قريباً ! » . وانتبه لنفسه ، لقد ردد نفس كلمات والده ، وهو الذى يحاول بناء شخصيته بعيداً عن التأثر بشخص والده ، فازداد قلقه واضطرابه ! . . وكانت نسرين تقول : « وماذا لو اعتقل ؟ » ، فردد وراءها : « نعم ، ماذا لو اعتقل ؟ هل ستنتظره سامية ؟ » . فقالت نسرين بإصرار : « نعم ، ستنتظره حتى آخر العمر ! » ، فقال وابتسامة ساخرة على شفتيه : « هذا كلام مراهقات ! » . قالت نسرين بانفعال : « لقد جربت سامية الحياة بدون عبد الرحمن ، وانظر ماذا كانت النتيجة : حبها له لم يبرد أبداً ! » . فسألها فاروق باسماً : « أتعتقدين ذلك ؟ » ، فنظرت إليه وقالت بفتور : « وماذا تعتقد أنت ؟ » . قال بترو : « أعتقد أنها ما كانت واقعة تحت تأثير الحب ، بل تحت تأثير وهم ضخم ! » . فنظرت إليه من زاوية عينيها ، وقالت باسمة : « أنت لا تحب عبدالرحمن ، أليس كذلك ؟ » فقال مدافعاً : « أبداً ، إذا كنت لا أحبه ، فلست أكرهه ! » . وقالت نسرين بعجب : « وما إحساسك تجاهه إذن ؟ »

— لا شيء ! .

— كيف لا شيء ؟ عبد الرحمن ليس شخصاً عاديًّا ، وإن كنت لا تحس بشيء تجاهه فكأنك تنكر وجوده ، ألا تعجب به ؟

— ولماذا أعجب به ؟

حملقت فيه بدون تصديق ، وقالت : « تقصد أنك لا تكن له الإعجاب ؟ » ، فعاد يسألها : « ولماذا تتوقعين أن أفعل ؟ » . قالت

بانفعال : « لأنه فنان ، وإنسان ، ومبدع ! » ، فهز رأسه وقال ، محاولا إظهار عدم مبالاته : « إنسان أعلى من المتوسط بقليل ! » ، فضربت الطاولة بكفها وقالت بغيظ : « يا إلهى ، ما أجحدك . أتنكر فضله وقد وهب حياته كلها لمبادئه ؟ ! » . قال هازئاً : « ألأنه اعتقل مرة أو مرتين أصبح « جيفارا » ؟ » . فهقهت نسرين بغيظ وقالت : « أنت تغار منه . . أنا أعرف . . أعرف ! » . فقال بغضب : « أغار منه ؟ خسىء ، لم يخلق بعد الذى أغار منه ، فبماذا يفضلنى؟ مستواى الاجتماعى أرقى من مستواه ، وشهادتى أعلى من شهادته ، وثقافتى أعمق من ثقافته ، وشكلى أوسم من شكله ، وعمرى أصغر من عمره ، وثروتى أضخم من ثروته ، ووالدى سيصبح وزيراً ، ووالده مات مزارعاً فى بيارات البرتقال ! ولكننى رغم كل تفوقى عليه أعامله معاملة الند للند ، فهو رجل دمث لا بأس به ، ويعرف كيف يحترم الناس المحترمين ، وعند ما يمر بى فى الشارع يرفع يده بطولها ويحيينى أجمل تحية ، فهو يكن لى احتراماً عميقاً . أنت تعرفين أن أبناء الفقر يظلون حاقدين علينا ، أما هو ، فشعوره تجاه الذين يفضلونه ليس حقداً على الأقل . فهو لطيف ودمث ، هذا كل ما يميزه . أما عن اعتقاله ، فأظنه مدعاة للتخوف ، لا للفخر ! » . . فصاحت به نسرين : « لكنه أعتقل من أجلك أيضاً ، ومن أجلى ، ومن أجل كل فرد فى هذا الشعب ، فكيف تقول هذا عنه ؟ » . قال بكبرياء : « وما الذى قدمه الميثلونى لشعبه باعتقاله ؟ لقد سجن . تشرفنا ! وماذا بعد ؟ ماذا أفاد باعتقاله ؟ هل حرر فلسطين ؟ هل قلب نظام الحكم ؟ هل نفذ الديموقراطية ؟ هل مسح الجوع والجهل عن وجه هذا الشعب ؟ ما الذى فعله الميثلونى ؟ وماذا أفاد باعتقاله ؟ وحتى لو قلب نظام الحكم ، كما كانت تهمته فى المرة السابقة — ولو أنى أعتقد بأن التهمة كانت ملفقة ، فرجل لين كالميثلونى لا يستطيع الدخول فى مؤمرات سياسية كهذه .

فهو أضعف من ذلك ! — ولكن، على اعتبار أن التهمة حقيقية ، وأنه نجح فى قلب نظام الحكم ، فهل تعتقدين بأنه كان سيستبدل به ما هو أحسن ؟ كلا ، بل كان سيحدث فى الأردن ما حدث فى بعض البلاد العربية : انقلابات ولا شيء غيرها ! وتلك الشعارات ليست أكثر من (كليشيهات) تزين الصحافة والإذاعة ، وتؤدى إلى المزيد من القتل والتعذيب، والمزيد من الهمجية ، والمزيد من الدم ! . . ثم تبدأ الحلقة المفرغة : فلاحون يعتلون المناصب ويصبحون ممثلين للشعب فى المجالس النيابية . . أنظرى إلى برلماننا ، إنه لا يضم إلا النخبة ، الأغنياء والمثقفين وذوى الأصل الطيب ، وعندما يتكلم أحدهم فإنه يعرف كيف يتكلم . . نوابنا يعرفون كيف يوجهون الأمة وكيف يلبون مطالب الشعب ، وكيف يصنعون التاريخ ، أما الفلاح فماذا يعرف ؟ ومن جهتى أنا ، فأنا أومن بأن البرلمان هو المسرح الذى ينبغى ألا يقف عليه المهرجون، ومن الممكن أن أنال أنا شخصياً مقعداً فيه . أتعتقدين بأنى سأظل موظفاً فى الوزارة ، لا يا عزيزتى ، فسأدخل البرلمان قريباً ، وسأمثل الشعب ، فما رأيك ؟ ألن أمثل أمتك خير تمثيل ؟ »

وقبل أن تفتح فمها لتجيب ، فتح الباب الزجاجى ودخلت سهى . ووقع نظر نسرين عليها فوقفت ترحب بها ، ونادتها لتجلس بجوارهما ، فمشت تلك تجاههما ببطء . كانت تبدو أكثر شحوباً منها فى الماضى : وشعرها الأسود الطويل مشدود إلى الخلف بمحبس فضى للشعر ، وفى عينيها الجريئتين حزن وتعب ، وفى مآقيها زرقة وجفاف . . فقال لها فاروق باسماً : « منذ متى لم أرك ؟ أين أنت ؟ » . قالت بفتور : « هنا » ، وجلست على مقعد وهى تلهث ، وكان الإرهاق يجلل وجهها . ثم سألته ببرود : « ما أخبار صديقك ؟ » . « تقصدين بشارا ؟ يقول أخوه بأنه يرأس الآن مختبراً كيميائياً فى السعودية ، وقد تمت خطبته على آنسة تعمل مدرسة هناك ، وأظنه فى أحسن حال . أترين ؟ لقد

أضعته من يدك ! » : فنفضت سهى يدها فى الهواء وقالت بلامبالاة : « لم يكن يناسبنى ، وأنا لن أتزوج إلا ممن يناسبنى . . ولن أجد من يناسبنى ! » ، فتساءل فاروق ضاحكاً : « وأنا ، ألا أناسبك ؟ » ، فنظرت إليه وزوت ما بين عينيها وقالت : « لا . » فتساءل : « ولا للحب ؟ » . قالت باستخفاف : « ولا للحب ! » . تساءل بخبث : « ولا كزميل "كيف" ؟ » . ارتسم العبوس على وجهها وقالت : « ماذا تقصد ؟ » . قال مواربا : « أراك دائماً ترقصين فى « الكارلتون » ، وعندما ترقصين تحلقين ، أشعر بأنك تسبحين فى عالم حالم جميل ، ملىء بالسعادة والانبساط و « الكيف » ، فلم لا نخرج معا مساء هذا الأحد ؟ » : قالت ببرود : « لا ، فقد وعدت صديقاً أمريكياً بذلك » . تساءل ملمزاً : « أهو « هيبى » ؟ » . قالت بجفاف : « لا أدرى ! » . . عاد يلح : « فما رأيك فى ليلة الجمعة ؟ » . . وهنا قاطعته نسرين : « يوم الجمعة سنكون فى (ميثلون) ، قد لا نعود إلا فى منتصف الليل . ألن تذهبا ؟ » : قال فاروق : « طبعاً ، لقد وعدت « ربيع » بذلك قبل لحظات » : : واستدار ناحية سهى وسألها : « وأنت ؟ » . قالت بفتور : « طبعاً ، وهل سأبقى وحدى ؟ » . ولمح فاروق خيال سامية يمر فى الحديقة مقترباً من الباب ، فنهض قائلا : « سأذهب الآن ، فلدى موعد . » . . وانتظر حتى دخلت سامية المكتب الزجاجى ، فخرج هو بعد أن أكد للشابتين أنه سيراهما بعد غد فى (ميثلون) . وعرض عليهما مرافقته فى سيارته أثناء الرحلة ، فإن سامية وعبد الرحمن سيركبان فى سيارة شكرى ، وسيكون هو وحيداً ، بدون مبرر !

* * *

دخلت سامية المكتب الزجاجى ، وكان الامتعاض يبدو واضحاً ومرسوماً فى كل قسمة من قسمات وجهها ، فخلعت معطفها وجلست على أريكة ثم أشعلت سيجارة وأخذت تنفخها بضيق وهى تستمع لما يدور :

نظر إليها عبد الرحمن نظرة طويلة محاولا معرفة ما يدور فى رأسها ، وعاد يستمع إلى سميرة وهى تزفر وتنفث همها . كانت تقول : « أنا لا أريد نقودى ، أنا أريد حباً وحناناً . إن كان يعاملنى بهذا الشكل كى أمله وأعتقه ، فما من داع لكل هذا اللف والدوران ، فليفسخ الخطبة ويطلقنى ، ولن أطالبه بحقوقى كخطيبة ، ولا بحقوقى كدائنة ، وليعد من حيث أتى ! » . وزفرت بمرارة ، وكانت الدموع تتراقص فى عينيها ، ثم استطردت : « إنه لم يكن هكذا . لقد تغير ، انقلب حاله ، ما عاد ذاك الشاب الجاد ذا الأفكار الثورية البناءة ، لقد انقلب حاله ، أصبح « مائعاً » ! . . أهكذا ، بين ليلة وأخرى ، يصبح الشاب الثورى مائعاً ! كيف ؟ ولماذا ؟ ما الذى حدث ؟ ماذا رأى هناك ؟ ما الذى غير اتجاهاته ؟ وتلك النقمة على البرجوازية المدللة ضاعت ، فقد أصبح هو نفسه مدللا . وذكريات السجن والمعتقل ، كل ذلك ضاع . ضاع ! » وصمتت لحظات ، ثم عادت تقول بغضب : « ما من أحد لم يلحظ جفافه وبرودم تجاهى . ما من أحد إلا وينظر إلى نظرات متسائلة قلقة مترقبة . وأنا أكره هذا الموقف الذى يضعنى فيه ، فهو مدين لى ، وأخاف لو فاتحته فى الأمر أن يتهمنى بأنى أحاول استغلال موقف المتفضلة عليه . لقد أصبح فاسداً ، فاسداً ، لقد فقد حساسيته وكرامته وتهذيبه ، طريقته الحقيرة فى الخلاص منى هى أكبر دليل على ذلك ، فلو كان بعد شريفاً لاتخذ طريقاً أقل التواء وأقل تجريحاً . ولو أنه قال لى : « فليمض كل إلى سبيله » لقلت له « مع ألف سلامة » . صحيح أنى أحببته ، ولكنى لست مراهقة لأظل متعلقة برجل لم يبق منه إلا صورته . أنا لا أستطيع النظر إلى بنطلونه الضيق وحذائه الثمين ، وأنسى أيام اعتقاله ، أيام كان ثورياً ، عنيفاً ، وجاداً ! . . تصور أنه فى ذاك النهار أخذ يغازل إيفيت بكلمات مائعة أمامى ، وتلك البلهاء كانت تضحك بفرح وهى تجاريه فى سخفه وسماجته ، ولم يخجل منى . لم أشعر

بالغيرة ، أقسم ، أقسم أنى ما أحسست إلا « بالقرف » . أنا لم أعتد الأجواء الموبوءة، ولم أعتد مجاملة المنحرفين ، وها هوذا يضعنى فى أسخف موقف وقفته فى حياتى . وظن فاروق ساعتها أنى أغار من إيفيت — تصور ، أنا أغار من إيفيت ! — فحاول استغلال الموقف لصالحه ! » »

ووقفت فى وسط الغرفة وهى تكاد تنشج : « ما هذا ؟ ما هذا الجو المقرف ؟ ! أهكذا يعيش المثقفون فى هذه البلاد ؟ أهذه هى أجواء الثقافة ؟ إن كان هذا ما يفعله هؤلاء ، فماذا يفعل الجهلة ؟ ماذا يفعل بقية الشعب ؟ أجبنى يا أستاذ . . أجبنى ! ماذا تركنا للبقية، من فضائح وقذارات ؟ أخى « طالب » سافر للسعودية ، وجد وظيفة مغرية هناك فترك الشركة التى كان يعمل فيها بأمان وسافر . ترك كل شىء وسافر : مضى يبحث عن مستقبله فى الخارج . « ربيع » أفسدته أجواء الحضارة ، فبدلا من السعى فى سبيل الوصول إلى مجتمع كذاك الذى أعجب به ، ها هو ذا يحاول الهرب من ماضيه وحاضره ومستقبله هنا ، لينشئ نفسه من جديد هناك فى بلد غير بلده ، وبين قوم غير قومه . يريد أن يجد حضارة جاهزة للاستعمال ، حتى ولو كانت لغيره : و « بشار » ذهب إلى السعودية أيضاً ، و « نسرين » تلح ولا تنفك تحلم بالرجوع لأمريكا ، وكل من أعرفهم باتوا أغراباً ، إما أن يكون البطر قد صنع منهم ذلك ، أو صنعه ضياعهم وغربتهم الفلسفية التى يدعونها . وهناك « سهى » . . أنت تعرف ما أقصد ، فنانتنا المثقفة، مبدعتنا الشابة ، ثائرتنا الهادفة ، أنت ترى ما هى سائرة إليه ؟ ! » .

هز عبد الرحمن رأسه وقال باقتضاب : « لا بأس ، سيعودون ، كلهم سيعودون ! » . قالت سامية ، لأول مرة : « وإيفيت ، لم لم توردبها ضمن هؤلاء ؟ » . نظر إليها عبد الرحمن مستفسراً ، فهزت رأسها وقالت بجفاف : « إنها عنيدة كالبغال . لا فائدة ! » . ثم تناولت سيجارة وأردفت : « لقد سئمت من كثرة المشاكل . أحس برأسى يكاد ينفجر ،

فى كل يوم مشكلة جديدة . يكفى ذلك التشنج الذى أصاب سهى صباح الأحد الماضى ، ليتك كنت هنا لترى حالتها كيف كانت . يقولون إنها مدمنة ، لم أكن أصدق هذا ، أما بعد ما حدث ، فأعتقد بأن لتشنجها علاقة بالإدمان ! . . هلا فاتحتها فى الأمر ؟ أنت الوحيد الذى تثق به ! » . فقال بشرود : « نعم ، سأفعل ، ولكن فى الوقت المناسب . » ؛ والتفت إلى سميرة وقال : « وأنت ، يجب أن تفاتحى «ربيع » ؛ ولكن فى الوقت المناسب . والآن يجب أن أنصرف ، فلدى موعد هام . » . . فنظرت إليه سامية بعتاب وأسف . ما الذى يشغله عنها ؟ وأين يذهب ؟ وما الداعى لكل تلك المواعيد المبهمة التى يتذرع بها ؟ . . والتفت إليها قبل خروجه وقال معتذراً : « سامية ، لن أراك غداً ، سأكون فى مكان غير (رام الله) » ، وتوقف عن الكلام ، وأخذ ينظر إليها مستطلعاً رد الفعل ، فلوت شفتيها باستسلام وقالت : « لا بأس » . وعندما خرج ، أخذت سهى من وراء الحاجز تحدق فى ظهره المتوارى وقلبها يدق بعنف ، ودموعها تكاد تطفر من عينيها ، والحسرة تملأها!

٣١

كان يوما من أيام أيار (مايو) اللؤلؤية . . يبدأ الصباح بضباب دخانى أبيض يغطى الأودية ، بما فيها من أشجار وصخور ومنازل ، ويصل حتى منتصف الجبال . ويستيقظ سكان المرتفعات فى الصباح ليجدوا أنفسهم مرفوعين على أجنحة دخانية ، فيعرفون أن أوان « المشمش » قد ابتدأ ، وأن الضباب سيعمل على منح « التوت » مقدرة على التساقط ، « والخيار » امتلاء وارتواء . ويقولون ، وبسمة مضيئة على الشفاه : « فاكهة أيار ، توت ومشمش وخيار ! » .

فى بلادنا ، يبدأ الصباح ملحناً بألحان شعبية حية تنطلق من حناجر القرويين قاطنى المرتفعات الجبلية . يمشى الفلاح وراء حماره المحمل

بالفاكهة والخضار واللبن ، ويردد أنغامه المألوفة السمحة : « هاى التين ، هاى اللبن ، هاى الفقوس .. » . ويكون الصبح ما زال فى أول إشراقاته ، والشمس ما تزال مختبئة وراء الهضاب . وتطل النسوة فى ثياب النوم من النوافذ والشرفات تنادين وتساومن وتشترين ، وأحيانا تنادين وتساومن ولا تشترين! وبعد عقد الصفقات تجلس العائلة على الشرفة تشرب القهوة والشاى ، ويأكلون أكلتهم الشعبية المفضلة : خبز وجبن وتوت .

أطلت المجموعة على مشارف القرية ، ولم يكن فى الشوارع الضيقة المتربة إلا بعض الفلاحين ممن يقصدون باب الله مع الصباح ، وبعض الديوك المذهبة الأعناق والتى كانت قد انتهت للتومن « وصلتها » الغنائية الصباحية . كانت عجلات السيارات تقفز فوق الحجارة والحفر ، ولولا ندى الصباح لأثارت موجة من الغبار والتراب . واتجهت السيارات نحو السهل الفسيح المؤدى لبحيرة (صانور) المزهرة ، وبانت الأرض وعرة المسالك ، ولم يعد بإمكانهم تخطى المساحات المزروعة بالقمح والبرسيم ، فأوقفوا السيارات بجانب التل وقرروا قطع المسافة مشياً على الأقدام . كانت الشمس قد بدأت تلون الهضاب والجبال المحيطة بالبحيرة بألوان وردية متألقة ، والهواء ساكن لايحرك شعرة فى رأس سنبلة ! وامتدت خضرة القمح الحانية مغطية السهول المنبسطة وسفوح التلال ، وفى الأماكن الوعرة والمنحدرة وقفت أشجار اللوز والبرقوق بإعياء لكثرة ما ترنحت به أغصانها من ثمر . ومن بعيد ، على مدى البصر ، ظهرت مساحة شاسعة بيضاء ناصعة البياض مغطاة بما يشبه الحصى الأبيض ، فأخذت إيفيت تركض وتقفز وهى تطلق ضحكات فرحة سعيدة ، لترى ما ستكون عليه تلك المساحة . وتبعها « سم سم » الصغير وهو يناديها ويطالبها بانتظاره ، ولكنها لم تسمع ، ولم تتوقف عن الركض . .

وأخذت نينا تبكى وتبكى ، فحملتها سميرة وأخذت تركض بها محاولة اللحاق بإيفيت ، فاشتد صراخ « سم سم » ، فحملته نسرين وأخذت

تركض ، ووجدوا أنفسهم جميعاً يركضون وهم يصرخون ويضحكون . وفجأة ، توقفوا مبهوري الأنفاس أمام البحيرة العجيبة . لم يكن يظهر فيها ماء ولا لمعان أديم ، فقد كانت عبارة عن مساحة شاسعة تمتد طولا بما يقرب الكيلو مترين ، ونحو كيلو متر عرضاً ، وقد ظهرت كمرج أسطورى لزنابق مائية بيضاء ، متشابكة كمفرش من الدانتل الأبيض . كانت الزنابق بحجم أصداف البحر الصغيرة ، ولها أغصان خضراء طويلة مسحوبة ، تتشابك خفية تحت أوراق الزهيرات البيضاء ، تاركة لذلك المجال استعراض مفاتنها ورقتها . أما كيف نشأت تلك البحيرة وهى التى لم تكن موجودة أصلاً ، فقد حدث ذلك قبل أربعة أعوام ، عندما جاء الشتاء بأمطار شديدة الغزارة ، وبما هو أكثر من طاقة الأرض على الاستيعاب ، فاستقرت المياه المنحدرة من المرتفعات والجبال المحيطة فى ذاك السهل العميق ، وأخذ يزداد الماء ارتفاعا بعد كل شتاء جديد ، ومع انجراف التربة والطمى تكونت تلك البحيرة الخصبة بزنابقها البيضاء المتشابكة .

وركضت الصغيرة نحو الزنابق محاولة اقتطافها ، فتبعها شكرى ونهاها عن فعل ذلك ، محاولا إفهامها ما تعنيه تلك الزنابق وتلك الأرض الرملية التى لا يظهر منها إلا الجمال . أما ما احتوته من هياكل لحيوانات ضلت طريقها وغاصت فى ذاك الموت المغطى بالزنابق ، فقد اختبأت فى القاع وتحت أغصان الزهر المتشابكة . ومر بهم فلاح وحمار أعرج يحمل فاكهة أكثر من طاقته . وبينما كان عبد الرحمن يفرغ كل ما معه من فاكهة على الأرض المعشوشبة حيث جلسوا ، أخذ الفلاح يقص عليهم كيف ابتلعت البحيرة حماره السليم فى الشتاء الماضى ، وكيف كان ذاك الحمار نشيطا معافى مليئا بالحيوية والصحة ، أما هذا فهو بليد كسول وأعرج ، وسبحان الله الذى لا يأخذ إلا الملاح ! . . ومرت الساعات الصباحية الأولى بسعادة وهناء ، وفى

الضحى تركت المجموعة المكان وصعدوا التل قاصدين القرية السعيدة، مارين بمزارع اللوز والبرقوق . وكانت تفصل بين المزرعة والأخرى سلاسل من الحجارة المتراصة جعلت بشكل جدران وحواجز ، وكانت عملية القفز من مزرعة إلى أخرى تستدعى مهارة وخفة ، فأخذت إيفيت تستعرض خفتها وليونتها بشكل جعلها تعرض نفسها للخطر فى كثير من الأماكن . وصاح زوجها : « يا إيفيت . . ستدقين عنقك ! » ، فصاحت بشجاعة مفتعلة : « لست خائفة على عنقى ! » ، فقال فاروق ضاحكا : « ستقعين على عصعصك . » ، قالت وهى تهز كتفيها بنزق : « ولست خائفة على عصعصى » . . وصاح شكرى : « يا بنت الحلال ، خذى أحد الطفلين عنى . » ، فهزت خاصرتها ولم تجب ، ووقفت على حافة سلسلة حجرية وقالت بنزق ودلال : « سأقفز من هنا » . . فهتف عبد الرحمن راجيا : « بالله يا إيفيت دعينا نكمل النهار على خير ! » . فمدت لسانها بعبث وقالت مغيظة : « سأقفز ، فمن يستطيع مجاراتى ؟ » ، وأخذت تقهقه : « هاها . . كلكم شيوخ وعجائز ، ياحرام ، كيف يشيخ الناس مبكرين فى هذه البلاد ! والآن ، أترون هذه المسافة ؟ سأقفزها قفزة واحدة لأعلمكم كيف يكون الشباب. وهبطت على الأرض ، فوقعت تحت ثقلها ، وتدحرجت على التراب اللين وهى تصرخ وتقهقه . وأخذوا جميعا ينتظرون ما ستكون النتيجة ، لكنها وقفت ، وردت شعرها إلى الخلف ، ونفضت التراب عن مؤخرتها وعن أرجل بنطلونها ، وأخذت تقهقه وتضحك وهى تشاهد الوجوم يرتسم على الوجوه ، وصاحت : «مالكم جامدون هكذا ؟ ماذا حدث؟ لا تدعوا أن وجومكم كان خوفا وقلقا علىّ ، فأنتم لاتعرفون من أنا ! » .وصاحت ضاحكة وهى تركض نحو السلسلة المقابلة : « سوبرمان ! » . وقفزت قفزة أخرى طويلة ، فصاحت الطفلة بفزع وهى ترى أمها تهوى إلى الأرض بضجيج . وصاح شكرى بغيظ : « إيفيت ، ما هذه الحماقة ؟ هذه ليست شطارة ،

ماذا لو كسرت رجلك أو عمودك الفقرى ؟ ماذا لو وقعت على دماغك وشجت جمجمتك ؟ » . . فقالت بتحد : « أنا حرة ، وسأفعل ما أشاء! » قال عبد الرحمن: « لم نختلف فى هذا الموضوع ، ولكن لمن تتركين أطفالك ؟ » . قالت باستخفاف : « ليسوا أطفالى وحدى ، فهاهو والدهم يملأ الدنيا طولا وعرضا ! » .وأخذت تركض قاطعة المسافة الباقية

للوصول إلى القرية . وتصاعدت رائحة دخان الطابون فملأت الجو بعبير لطيف يذكر بأجواء الريف والقرية ، وكان أقارب عبد الرحمن فى الانتظار ، فالتقوا بهم أمام بواباتهم الحجرية القديمة ، وتراكض الأطفال الصغار بأقدامهم الحافية وثيابهم المزركشة للفرجة على الأغراب والنسوة اللواتى ترتدين البنطلونات . ونهرهم شاب يافع فتصايحوا وتراكضوا أمام عصاه ، فوقف هو يسترق النظر بدلا منهم ! أما الأطفال فاختبأوا خلف الجدران والأشجار يسترقون النظر ويشيرون بحركات بريئة ، ويقرقرون بضحكات سخية ساذجة .

وناداهم عبد الرحمن ، فاختبأوا بمزيد من الحذر ، وعندما رأوه يمد يده إلى جيبه ويعطى أحدهم شوكولاته وحلوى ، هجموا عليه وهم يمدون أيديهم ويتصايحون ويتقاتلون للوصول إليه ! . . كانت الفلاحة العجوز أخته، وذاك الشاب المفتول الساعدين الذى يرتدى بنطلونا وقميصا أبيض مفتوح الصدر ، هو وحيدها « علاء الدين » الذى تخرج من كلية (خضورى) الزراعية ، وعاد للقرية ليفلح الأرض التى ورثها عن والده ويزرعها . وقد قدم عبد الرحمن مصطحبا كل ذلك الجمع بناء على دعوة ملحة من ابن اخته الذى كان قد زار المكتبة فى الشهر المنصرم ، وتعرف بسامية ، وعرف أنها تخص عبد الرحمن ، وأنها قد تكون خطيبته أو ما يشبه ذلك . ورأى أن من واجبه أن يدعو هذه السيدة التى قد تصبح من أفراد العائلة للتعرف بأمه ، وكانت سميرة تقف هناك فشملتها الدعوة . وعندما سمعت إيفيت بما حدث جن جنونها واتهمت عبد الرحمن

بالتحيز ، فما كان منه إلا أن وجه الدعوة للمجموعة كلها !

وكانت فى ساحة الدار المكشوفة بقرتان ضخمتان تأكلان العشب من صندوق خشبي أمامهما ، ومن ركن من أركان الساحة تصاعدت أصوات الدجاج المحبوس فى قفص كبير ضخم ، وبجانب القفص أقعى كلب حراسة عسلى اللون وقد فتح عينيه بحذر لمرأى الأغراب ، فانتصبت أذناه وبدأ ينبح ، ولكن رؤية صاحبه وسط المجموعة هدأت من روعه وأعادته لوضعه المطمئن السابق . وصعدت الجماعة الدرجات الحجرية المتآكلة قاصدين العلية المرتفعة حيث يجلس الضيوف فى العادة . وكانت الغرفة جميلة ونظيفة وجيدة التهوية إذ أنها تطل على الوادى والبحيرة ، وقد ظهرت فى الأسفل أغراس الزيتون التى قام علاء الدين بزراعتها حديثا وقد أحاطت بها دوائر ترابية جيدة الحراثة . وفى الحقل المجاور حيث أقيمت حظيرة الماعز انتصب الطابون وقد اجتمعت حوله النسوة يتبادلن الأوعية والأرغفة والدجاج المشوى . كانت وليمة ريفية رائعة ، أكلوا فيها الدجاج بالبصل ، والأرغفة المغموسة بزيت الزيتون ، وشربوا اللبن والحليب ، وتحلوا بشتى أنواع الفاكهة التى تنتجها القرية . وفى العصر أخذهم « علاء الدين » إلى مزرعته وأخذ يشرح لهم خططه ونواياه فى إنشاء مزرعة حديثة تنتج أنواعاً غريبة من الفاكهه والخضر . وكان قد استورد كمية لا بأس بها من البذور من أمريكا وأستراليا ، وقام بإجراء تجارب زراعية عليها ، ولكنها كانت ما تزال فى بداية نموها ، وربما ظهرت تباشيرها فى الشهر القادم .

وكان من المتفق عليه أن يقام استقبال جامع عصر ذاك اليوم احتفالا بالضيوف الكرام ، وبعبد الرحمن ابن القرية البار الذى خرج من القرية ولم ينسها وما زال يذكر كل من فيها ، وبالطبع كان كل من فيها ما زال يذكره ويعرف أنه بات رجلا مشهوراً ، وأن له قيمة وثقلا سياسياً ، ولابد من اجتماعهم به للسلام عليه والترحيب به . وبعد

العصر اجتمع الرجال فى الساحة الخلفية تحت أشجار الجوز الباسقة ، وجلست النسوة بخفروحياء فى زاوية منزوية ، وعند جذوع الشجر جلس نافخ المزمار وناقر الطبل على كرسيين صغيرين ، والتأم شمل من حولهما يصفقون ويهزجون بأغان قروية عذبة . وعندما حمى الوطيس نزل الشبان إلى الساحة يرقصون « الدبكة » . . وقامت الفتيات وتمايلن على انغام الربابة ، وغنين لهديل الحمام ، وللأرض الخصبة ، وللمواسم المعطاءة السخية . وعندما دبت الحماسة فى أوصال فاروق ، شبك ذراعه فى خصر علاء الدين وأخذ يرقص الد بكة على وقع الأنغام الصاخبة . وعندما غنى المنشد كلمات غزلية للصبية ذات الضفائر الشقر والصدر المحمل بالضلال ، قفزت سهى للساحة وأخذت تضرب الأرض بكعبيها وهى تلوح بأطراف ثوبها الواسع المزخرف . كانت جميلة ، سمراء خمرية ، شعرها الأسود الناعم يتطاير فى تموجات غنية معتمة . ضربات الأقدام عنيفة ، تدق الأرض بكعبها ، ضربة ، ضربتين ، ثلاثا ، وقفزة طويلة فى الهواء ، فترتفع أذيال الثوب حتى منتصف الفخذين ، وعندما تهبط على الأرض يرتج صدرها وينسدل شعرها ، وتومئ ، وتنحنى ، وتعود فتشد قامتها ، وتلوح بمنديلها . وتزغرد النسوة بانفعال ، ويشتد التصفيق ، ويتسارع الوقع ، ويفغر الفلاحون الأفواه انشداهاً وهم يتطلعون إلى تلك الجنية السمراء الممتدة ، وصوت المنشد يردد ويردد : « يا أم الجدايل شقرا ويتلالى . . لعبها الهوا عا الصدر العالى » . وتدور ، وتقطع الساحة قفزاً ، والخصر غاية فى الدقة ، والقد مياد ولين ، والخطو موزون ونابض . . وهتفت سميرة بانشداه : « رائعة ، ساحرة ! » .

فهز عبد الرحمن رأسه وقال هامسا : « فنانة ! » .

: وهناك سحر يطوف فوق الأجفان المترنحة ، ودمع حزين يتلألأ فى العينين شبه المغلقتين ، وذاك الرجل البعيد كالسحاب ، الصامد كقلعة ، المحرم كتفاحة الجنة ، ذاك الرجل المشدوه لا يرى أمامه

إلا فنًّا أصيلا ، وإعجابه ناتج من التذوق وليس عن الحب ، وهذا أكثر مايدمى ويجرح . وأخذ فاروق يردد كلمات مشجعة أثارت غيرة إيفيت ، وعندما لفتت نظره لسوء تصرفه غير مكانه بحيث بات أبعد من أن تصله تعليقات إيفيت المغيظة . وجعل يصفق ويصفق وهو يطلق صيحات تحاكى صرخات الريفيين قوة وحماسة . وقال عبد الرحمن هامساً : « دموعها تتساقط ، وجسدها يتلوى عذابا أكثر مما يتلوى نشوة! » . فقالت سامية : « أتراها واقعة تحت تأثير المخدر ؟ » . ولم يجب عبد الرحمن ، فقد كانت عيناه تلاحقان تلك الفراشة التى ترقص للموت والحياة معا . وكانت تضرب الأرض بعنف : ضربة ، ضربتين ، ثلاثا ، وقفزة طويلة فى الهواء ، والشعر يرتفع فى سحابة غنية معتمة ، وأضواء الأصيل تتراقص محدثة انعكاسات متوهجة ، وأخرى شاحبة فوق وجهها . . ثم انسحبت من الحلقة ، واختلفت الألحان ، وعاد المنشدون للألحان الهادئة الرائعة ، ولم يبق منها إلا ما تتركه الخمرة فى رأس الظامئ . وانسل فاروق وراءها يبحث عنها ، وكانت إيفيت ترقبه بترصد ، فأخذت تزفر باضطراب ، ولكنها عزمت على اللحاق به مهما كلفها الأمر . وقالت سامية بتوتر : « عبد الرحمن » : أين ذهبت سهى ؟ ألم تلاحظ أنها فى حال لاتوحى بالخير ؟ » ، فهب عبدالرحمن واقفا وقال : « سأتبعها ، سأبحث عنها » ، ومشى يضرب الخطو فى أثرها ، ورآها تبتعد باتجاه البحيرة . كان هناك طريق قصير يوصل إلى حافة البحيرة من الناحية الشرقية ، وأشجار الصفصاف تشكل ممراً محاطا بالجذوع والظلال ، وكانت تترنح فى خطوها ، وذراعاها تتدليان إلى جانبيها ، وأطراف ثوبها النبيذى تتراقص عند كل عثرة ، وفى منتصف الطريق ظهر فاروق قادماً من طريق جانبى يبعد عن مكانها بما يقرب العشرين متراً ، ووقف وسط الطريق الصفصافى يسده مداعباً ، لكن تلك واصلت السير وكأنها لم تره . فمد ذراعيه فى عرض الطريق معاكساً ، لكنها واصلت السير بشرود وترنح . ونظر فاروق فلمح

عبد الرحمن يتبع سهى على بعد ؛ فأسدل ذراعيه بخيبة ، ومشى فى اتجاه الدرب الذى قدم منه ، واختفى وسط الأشجار !

وكان هناك ، قريبا من البحيرة ، جذع شجرة مخلوع وملقى بجانب الحافة ، وقد سودت الماء والشمس قشرته وشققتها . . فجلست « سهى » على طرفه واستغرقت فى شبه غيبوبة . كانت لاتزال مضطربة الأنفاس ، وصدرها يعلو ويهبط ، وكان عبد الرحمن يرى ظهرها يئن تحت وطأة أنفاسها الثقيلة . ورآها تغطى وجهها بكفيها وتنتحب بصوت مكتوم ، فهتف بإشفاق وهو يوسع الخطو نحوها : « سهى ! ما بك ؟ » ، فالتفتت إليه بوجه يقطر حزنا وبكاء وتساءلت بصوت مقطوع الأنفاس : « أنت !! » ، وأخذت تحملق فى وجهه باستغراق ، وكانت عيناها متشبثتين بوجهه بيأس غريق يستنجد . فقال بسرعة ولهفة : « دعينى أساعدك ، دعينى أشاركك متاعبك ، خبرينى ما بك ! » . . فابتسمت بسخرية وعادت تتساءل بصوت مذبوح : « أنت ؟! » ، فقال بقلق : « نعم أنا ، ألا أستحق ثقتك ؟ ألا أستحق صداقتك ؟ أرجوك ، دعينى أقترب منك وأساعدك على حل ألغازك . دعينى أجرب ، دعينى أحاول ، فقط امنحينى ثقتك وصداقتك . أنا أعرف أنى لست يسوع المسيح لأفتدى آلامك بدمى ، ولكنى إنسان يحمل فى قلبه صدقا وصداقة . . والآن ، قولى بصراحة ، ما بك ؟ » . . فأسدلت جفنيها وما زالت الابتسامة الصفراء تتذبذب فوق وجهها ، وقالت بارتباك : « لا ، لاشىء . لاشىء البتة! » ، وعادت تغطى وجهها بكفيها ، فجلس بجوارها على حافة الجذع وأخذ ينتظر ؛ كان الأصيل يقترب من الغروب ، والغيوم المتناثرة فى الأفق البعيد قد بدأت تحمر وتتذهب ، والبحيرة الممتدة أمامهما بزنابقها البيضاء تطلق عبيراً معطراً يختلط برائحة الحشائش المتعفنة على الحافة المخضرة ، وبلبل متفرد يغرد على غصن

من أغصان شجرة (زنزلخت) مزهرة . وبين الفينة والفينة يحمل الهواء صدى أصوات الفلاحين الهازجين ممتزجة بقرعات الطبل التي باتت لبعدها خافتة وهادئة .

وقالت سهى بعد فترة وهى ترفع وجهها وتمسحه بمنديلها : « أما من حل لهذا المأزق ؟ ! » ، والتفتت إليه ، وكان وجهها قريباً من وجهه ، فرأى ملامحها تزداد جمالا عن قرب ، وصوتها يزداد حساسية فى أذنه . وقالت وهى تزفر وتشد قبضتها على منديلها كمن تريد عصره : « ليس للحزن نهاية ! » ، وحدقت فى عينيه وابتسامة باكية على وجهها ، وهزت رأسها بسخرية مريرة وقالت : « أنت . . » ، ولم تكمل ، فقد استدارت بوجهها عنه وعادت للصمت . فتساءل : « أنا ؟ ما بى ؟ » . قالت بغموض : « لا . . لا شيء ، إنما أنا تعيسة ، أنا ، ولست أنت . » ونهضت ، فمشت خطوتين ، ونظرت إلى البحيرة بشرود وقالت : « أليس غريبا أن يختلط الجمال بالبشاعة ؟ هذا العالم جميل . . » ، وابتسمت وهى تستدير إليه ، وواصلت : « لكنه سافل ! » . فابتسم وقال : « أهذا القول موجه إلىّ ؟ شكراً على كل حال ! » . قالت بسرعة : « لا . . لست أنت ، أقصد العالم ، أما أنت . . » ، ولم تكمل . وأخذت تذرع المساحة أمامه بشرود وكآبة ، ثم وقفت فجأة وقالت وهى تمد يديها مبسوطتين : « « أحيانا أشعر بنفسى حشرة أوقعتها شباك عنكبوتية فى فخ رهيب ، وأحس بمطارق تهوى على صدغى وقلبى ، وأنياب وحشية تنغرس فى وجدانى وكل أحاسيسى ، وبأيد حديدية تعصر عنقى ، وأتمنى لو أصيح . . أصيح . . أصيح . . لكن صوتى يضيع فى هدير أمواج الحياة الصاخبة ، ويمر الناس بى فلا يعبأون حتى بوجودى ! وأتساءل بحسرة : « أهذه أنا ؟ مجرد حثالة قذفها الله إلى الأرض ؟ وأكفر . . أكفر . وأعتب على السماء ، ولكن عتبى يضيع سدى ، فالسماء مكان الغيوم ، والأرض مكان البشر ، وما من أحد يعبأ بضياعى وكفرى ! » : أهذا ما تعنيه

الحياة ؟ حيرة .. ضياع ؟ .. ما كل هذا الهم والنكد ؟ ما كل هذا التكرار الممل ؟ وحدة . . ضياع .. وحدة . . ضياع .. نفس النغمات ، نفس المعزوفة ، نفس الأصوات المنشزة . وأحاول أن أسد أذنى ، وأن أغمض عينى ، وأن أتلف حساسيتى . وأتمنى لو ترحمنى السماء فتمسخنى قرداً ، فقد سئمت ما أنا فيه . سنوات وسنوات وأنا أجتر نفس الأنغام . . نفس المعزوفة . . نفس الأصوات المنشزة . أهذا ما تعنيه الحياة ؟ »

واستدارت وعادت تذرع المسافة من جديد . ووقفت على الحافة وقالت بلوعة : « كنت أقول لهم : إفهمونى ، وأفهمونى . إفهمونى فأنا تعيسة بالفعل . وأفهمونى من فينا المحق ومن فينا المخطئ ؟ أنا لا أرى فيكم سوى جلاميد صخر : وجوه قاسية ، قلوب متحجرة ، وأحاسيس منتهكة . وأنتم ترون فىّ إنسانة مفلسفة ، سخيفة ، وشاذة ، فمن المصيب فينا ؟ قل لى أنت : من فينا المحق ومن فينا المخطئ : أنا أم هم ؟ » . . لكنه لم يجب ، بل ظل يتمعن فى وجهها مأخوذاً بحركاتها ، فواصلت : « هذه مصيبتى ، فلن أعرف ، ولذا فسأظل معذبة ، وهم لا يريدون أن يعرفوا ، ولذا فسيظلون مرتاحين ، ويظلون فى نظرى أصواتاً منشزة ، وسأظل أنا فى نظرهم مفلسفة وسخيفة . وأعرف أن شقائى سيدوم مدى الأزمان ، وأن ضياعى سيفوق كل ضياع ، لأنى غريبة عن كل ما هو مرعى ومتداول . فكل الأشياء فى نظرى إما مغلوطة أو منقوصة ! » . وجلست بجواره على حافة الجذع فى صمت ، وغابت فى شبه غيبوبة . فقال بصوت هادئ : « سهى ، متى تكفين عن تناول ذاك السم ؟ » .

فالتفتت إليه بحدة وتساءلت وهى تفتح عينيها بدهشة : « كيف عرفت ؟ من قال لك ؟ » . أجاب بجدية : « ليس المهم كيف عرفت ، المهم هو إنقاذك من الإدمان ! » . قالت هازئة : « لست مدمنة ، أنا لا أتعاطى نوعا محدداً ، كى لا يدمنه جسمى ، فأنا أتعاطى شتى الأنواع ، كل الأنواع ، أى نوع يصادفنى أو أستطيع الحصول عليه ! » . فقال

بدهشة : « ولكن هذا ضار جدا ، وسوف يتلف صحتك وأعصابك !» ، فتساءلت بسخرية : « وعلام الخوف؟ »

ــ على الحياة ، ألا تخافين على الحياة؟

ــ بل أخافها ، ولا أخاف عليها !

ــ وهل المخدرات وسيلة للهرب من ذاك الجو ؟

لوت شفتيها وقالت بلا مبالاة : « إذا شئت هذا ، فليكن ! » ، فهتف باستغراب : « ولكن هذا ضار جدا ، ألا تعلمين ذلك ؟ » ، قالت بسخرية : « لو كان الموت بضاعة ، لاستوردتها ! » ، فحملق فى وجهها وقال بحدة : « ولكن ما بك ؟ ماذا تريدين ، ماذا ينقصك ؟ عم تبحثين ؟ » . لوت شفتيها بلا مبالاة وقالت : « عن كل شىء ، وعن لاشىء! » . فقال بعنف: « اسمعى ، إنك لست صغيرة ولا جاهلة ، ولست إنسانة عادية لتتصرفى بهذا الشكل غير المبالى ! وحتى الناس العاديون يعرفون مسئولياتهم ويحترمونها . وأنت فنانة موهوبة ، وقد كتب لك أن تحملى فى أعماقك بذور الفن والخلق والإبداع ، أى أن تحملى « رسالة » عليك تنفيذها والتقيد بها ، وعليك احترام الحياة ، والروح ، والإنسان ، وقد كنت أتوقع لك مستقبلا مضيئا يكلله المجد والغار ، فإنك بدأت بداية حسنة ، ولكنك عدت وخمدت ، كنار ينطفئ أوارها ، وقريبا ستتلاشى أضواء نجمك قبل أن تسطع ، ألاتعلمين هذا ؟. . إننا فى ذلك المساء الممطر ناقشنا الحياة وناقشنا الموت ، وناقشنا التعاسة ، وكنت أظننا قد فرغنا من كل ذاك ، ولكن يبدو أنك تتلذذين باجترار الكآبة والحزن . وعندما ينوء كاهلك مللا وتعاسة ، تهربين مما بحثت عنه ــ أو ربما اصطنعته !! ــ بواسطة المخدرات ، والسموم ، والجدل العقيم ، فما هذا التعقيد ؟ ما هذا الظلام الذى تحيطين به نفسك ؟ إن كنت تعتقدين أن التعاسة هى ثمن المجد ، فأنت مخطئة . ألا ترين كم فى هذا العالم من تعساء ، ولكنهم ليسوا جميعا مفكرين وعظماء ، فالتعاسة لاتجلب العظمة

وإنما يجلبها التحدى ، والإرادة ، والقدرة على الاستيعاب وتحديد الهدف : كل هذه الأشياء مجتمعة تجعل من الإنسان مسئولا وقائداً ، أما حالك وطريقتك فلن يوصلاك إلا إلى الهاوية ، أو الجنون ! » .

قالت بغير مبالاة : « من الأفضل ألا تتدخل فيما لايعنيك ! » ، فصاح في وجهها : « وكيف حكمت بأنه لايعنيني ؟! طبعاً أنت تعنينى ، وأنا اهتم بك كثيراً ؛ ويهمنى جداً أن تسيرى فى الخط الصائب . وهذا ليس بالنسبة لك وحدك بل بالنسبة للجميع ، بالنسبة لكل من أراه وأعرفه ، وأنت أولى الناس بعنايتي واهتمامى ؛ فكيف لايعنيني أمرك ؟» . . قالت بغضب : « أرجوك ، لاتحاول الظهور بمظهر الأنبياء ، أنا سخيفة وشاذة وحشاشة ، أيسرك هذا ؟ حشاشة ، وقد أثير « قرفك » ، وقد أثير مللك ، وقد أبدو فى نظرك إنسانة بلاخلق ولامبدأ ، فلا تدّعى الاهتمام بى ! » . قال بحدة : « وهل يتحتم على أن أقسم لك بأنى مهتم ، كى تصدقى ؟ » . قالت وهى تحدق فى وجهه بوحشية : « أى نوع من الاهتمام ؟ أى نوع ؟ تريدنى أن أقدم معرضا فى كل موسم؟! أن أنام على اللوحات وألتحف بالألوان ؟ وتريد منى أن أعصر ذاتى كما أعصر أنبوبة الدهان ، وأن أجعل للأجساد حركة ، وللملامح نطقا ، وللشفاه الخرساء لساناً يتكلم ؟ هذا ما تطلبه منى ، هذا ما تطلبه لى ، هذا ما تعتبره اهتماما ، أليس كذلك؟ واهتمامك الحقيقى هناك ، بتلك السيدة المملة المهووسة ، تلك الدجالة المنافقة . والآن أرجوك ، لاتدعى الاهتمام أكثر من هذا! »

حملق عبد الرحمن فى وجهها بدهشة وتساءل : « ماذا تقصدين ؟ ماذا تعنين ؟ » . قالت والدموع تنهمر من مآقيها المحمرة : « ألا تفهم ما أعنى ؟ ألا تفهم ؟ » . فأخذ يحملق فى وجهها بدون تصديق ، وكانت هى تنتظر كلمة منه ، إيماءة ، حركة . . ولكنه لم يقل شيئا ، بل طأطأ بكآبة وأخذ يزفر ببطء ، فقالت متمتمة : « نعم أعرف ، أعرف أن اهتمامك الحقيقى ليس بى ، اهتمامك بى ليس سوى اهتمام أستاذ مخلص بتلميذة

نجيبة ، كل ما يهمه من أمرها هو ذكاؤها وتقدمها ونجاحها ، أما ما تحس به هذه التلميذة ، ومايسعدها أو يشقيها ، فليس شيئا فى نظرك ! أليس كذلك ؟ ولكن لا ، لست تلميذة ، لم أعد تلميذة، لم أعد فنانة ، فأنا أريد أن أحيا كالأخريات ، أريد أن أجد من يحبنى وأن أشعر بألفة الناس ، وأن أحس بعناق العالم . . ولكنهم يأبون ذلك ، وأنت تأبى ذلك . . أنت . . أنت ! » . قال باضطراب : « ولكن ما بهذا الشكل تبلغ الأمانى ! وما كل ما يتمنى المرء يدركه! » . فهزت رأسها بمرارة وقالت : « ولهذا سأظل غريبة وضائعة ومحرومة ، وسأظل خائفة ! » قال بغيظ : « وهاأنت تلوحين لى بالجزاء والعقاب : فإما أن تنالى ما تريدين ، وبالتالى تنفذين رسالتك ، وإما الحرمان . . وبالتالى حرمان الناس من فنك ، أليس كذلك ؟ » . . نهض وأخذ يمشى بخطوات ثقيلة ، ورأسه مدلى بين كتفيه بإعياء وتعب ، ونظراته لا تستقر على شيء . ثم قال بعد فترة صمت: « مازلت فجة ، ومازلت مندفعة وراء أفكار وتخيلات يخلقها الوهم وأحلام الشباب ! إن رسالة الفن أعمق من هذا وأسمى ، وللفنان الحقيقى مقاييس أرقى من تلك التى لديك ، والفن عطاء مجانى وليس مقايضة ! » . قالت بسخرية : « شبعان يعظ الجائعين ! » . تساءل بحدة : « ماذا تقصدين ؟ » قالت وهى تلوح بيديها : . « صحتك جيدة ، رأسك ممتلئ ، عقلك ممتلئ ، وقلبك ممتلئ . نلت من العالم كل ما تريد: المجد والحب والشبع ، وقد نسيت أن الجوع ليس تهمة ، وكونى جائعة لايعنى أنى مجرمة ! » : قال بجدية : «الجوع سنة الحياة، ومامن إنسان نال كل ما تمنى . تلفتى حواليك جيداً وسترين أن فى داخل كل منا جوعا دفينا ، وأن كل واحد منا « محروم » بشكل أو بآخر ، والسعادة « فكرة » كما أن الجوع فكرة : السعادة شبع وارتواء، والجوع حاجة وعطش، وقد تروى فكرتك فتحسين بالشبع ، فالارتواء ، فالسعادة .. وبعد أيام ، أو سنوات ، تعودين إلى

ما بدأت به ، تعودين إلى الجوع ثم إلى البحث عن الارتواء . لنكن أكثر صراحة : لقد بدأت القصة هكذا : كنت تحسين بجوع المعدة ، وكبرت وامتلأت معدتك ، فأحسست بالارتياح لأيام قليلة ، عدت تبحثين بعدها عن إشباع لجوع آخر . واعتقدت أن جوعك ناتج عن الجهل ، فتعلمت ، واعتقدت أنه ناتج عن جهل الناس بك ، فاشتهرت . وعادت فكرة الجوع تنخر جسمك وعقلك ، وظننت أن حرمانك من الجنس هو الحاجز ، فقفزت فوقه وتخطيته . أحسست بالحب تجاه « بشار » ، لفترة ، وعندما ارتويت ، أهملته ، ولفظته ؛ لو أنك لم تستطيعي الحصول عليه لظل حبك متوهجا كما كان ، ولظللت تسعين فى أثره ! وها أنت الآن تقعين تحت تأثير فكرة ، وتحت ضغط جوع جديد ، فمتى تكفين عن الركض واللهاث وراء أفكارك ! متى ؟ الحب فكرة ، وكل إحساس فكرة ، كلما رضخنا للأحاسيس ازددنا عبودية ! » . قالت بثورة : « فما بالك أنت ؟ لاتزعم التحرر وأنت عبد مثلى ، لكنك لست عبدا لى ، بل لها ! » . قال مبتسما : « أعرف ما تقصدين ، ولكن افهمى : أنا فى حبى حر ولست عبدا . أنا أختار ، وأحاول اختيار الأحسن والمناسب ، وإذا لم أجد حبى حسنا ولا مناسبا أتحرر منه ولا أستمر فيه ! أنا لا أدعى الزهد والتقشف ، ولا أرغب فى الصيام عن كل ملاذ العالم وأفراحه ، ولكنى أختار الأصلح والأنسب ، ولا أحاول اجتياز كل الحواجز فى سبيل فكرة عابرة ، فقد توقعنى الحواجز ، وقد أفشل أثناء القيام بعملية الاجتياز ، وأنسى المبدأ والهدف ، وأسرق وأكذب وأتلاعب فى سبيل « الوصول ! » . . وأثناء ذلك أنشغل بالزيف وحواشيه فأضل عن الهدف . وهذا ما يحدث لك ، فها أنت تضلين ، تضيعين وتنشغلين فى عملية الاجتياز ، فتنسين الهدف ! »

قالت مجهشة : « ولكنى أحبك . . فأنت قوى ، وتعرف الناس وتعرف نفسك : وأنا أحب الأقوياء ، أحبك أنت بالذات ، وإنى

لأتعذب . ألا ترى ؟ ألا تفهم ؟ ألا تحس بآلامى ؟ أنت تذكرنى بالإنسان الآلى : الفكر بحساب ، الحب بحساب ، الهدف بحساب : فماذا أبقيت للقدر؟ ماذا أبقيت للمصادفات؟ ماذا أبقيت للحظ العاثر؟ » . ورآها منكمشة على نفسها بذلة : رأسها مختبئ فى حضنها ، وذراعاها ملتفان حول رأسها — كمن يطلب الأمن والحماية — فأحس بإشفاق شديد ، ووخزة فى ضميره وقلبه ، فهاهو يقف منها موقف القوى من الضعيف ، موقف الحر من الذليل . . فتقدم منها وركع عند ساقيها ، وأمسك برأسها يرفعه ، ثم قال بعطف : « سهى ، عزيزتى ، أرجوك . افهمى ، حاولى الخروج عن دائرة ذاتك ، حاولى فهم الأمور بتجرد . لاتكونى عاطفية بهذا الشكل : استعملى المنطق قليلا ، أرجوك . أنا رجل أشيب ، ألا ترين رأسى ؟ لقد أصبحت على أبواب الخمسين ، أى أننى فى سن والدك . وأنت شابة جميلة موهوبة وحساسة ، وقد وهبتك الطبيعة الكثير مما تحسدين عليه ، وهناك الكثيرون ممن باستطاعتهم فهمك ، وحبك ، وإسعادك . أما أنا ، ففى رأسى ألف مشكلة . وعلى كاهلى ألف عبء ، وفى صدرى ألف آهة ، وأحلامى ما عادت أحلاما بل أهداف ، وأمانى أصبحت غايات . أما الحب ، فلا وقت له عندى ، صدقينى : أن تلك المرأة تحبنى ، لا أنكر ذلك ، وأنا أحبها ، أو بمعنى أصح ، أفضلها ، وهى تقنع بهذا ، فهل تقنعين أنت ؟ . : إن الحب فى نظرى غريزة ، والغريزة ميالة للتجديد والحركة ، وإذا أنا انسقت وراء أهوائها نسيت الهدف . أما الفكر فحضارة ووعى وتجارب . لقد شخت يا صغيرتى ، ما عاد للحب قيمة ، ما عاد للفرح قيمة ، فجراحات الشعوب تنخر قلبى وتملأه ، وجوع المعذبين ينسينى جوعى وحاجتى ، وإذا كنت تعتقدين أنى متيم فأنت واهمة . وكما قلت لك ، تلك المرأة تفهمنى وتحبنى وتعرف ما أريد ، وهى تناسبنى ، وأنا أناسبها ، أما الحب . . الحب . ؟ فهو وهم تفتقه الغريزة ، وكلما خفت لهيب الشباب ضعفت نار الحب ! »

قالت « سهى » هامسة ووجهها يكاد يلتصق بوجهه ، ودموعها تتدحرج على وجنتيها ، وعيناها تتأملان وجهه بعبادة : « مهما قلت ، مهما زجرت ، مهما وعظت ، فأنا أحبك ! » ، وأمسكت بيده ودفنتها فى عنقها كقطة مسالمة ، وقالت : « المرأة تعشق الرجل الكبير ، وأنت كبير ، أحس بك تملأ فراغ العالم كله ، ومعك يكون للأشياء معنى ، وللحياة معنى ، وحتى للشقاء معنى . . أما مع الآخرين فتكبر غربتى ، وتزداد وحشتى ، حتى لأحس بالضيق والخوف والملل ! » فقال عبد الرحمن ، بعطف : « سهى ، أرجوك ، لاتحلمى كثيراً ، أرجوك ، أرجوك » ، وسحب يده برفق وقال : « سهى ، سأكلمك فيما بعد . . سأكتب لك رأيى فى هذا الموضوع ، فإن الكتابة أخف وطأة ، وأكثر تركيزا ! »

ثم نهض واستدار ، فرأى « سامية » تقف على بعد أمتار ، متكئة على جذع شجرة بإعياء ، وعلى وجهها انطباع مذهول . . والتقت نظراتها الجزعة بنظراته ، فأخذت تحدق فى وجهه بانشداه ، وشفتاها تتمتمان بكلمات غير مسموعة . . فاقترب منها بسرعة وقد عرف ما يجول فى خاطرها ، وقال بلهفة : « سامية ، لا تحدقى هكذا ، لقد أسأت الفهم ! » . . ولكن صدمتها كانت أعنف من أن تمنحها الفرصة لفهم ما يقول ، فأخذت تتمتم بذهول : « أنت تفعل هذا ؟ أنت ؟ أنت ! »

فقال بإصرار : « سامية إفهمى ، لست مذنبا لتضعينى فى قفص الاتهام ! » ، لكنها هزت رأسها بحسرة وقالت بصوت متحشرج : « أنت ! إلهى ، معبودى ، الصنم الذى عبدته وركعت أصلى له طيلة خمسة عشر عاما ، ورفضت كل شئ فى سبيله ، وقاومت كل شئ كى أحتفظ بصورته نقية وحية فى قلبى وذاكرتى ! ليتنى مت قبل هذا ! ليتنى مت قبل أن يتحطم الصنم المعبود ، ليتنى عميت قبل أن أراك تصرف كالباقين : تتلاعب وتزيف وتتلون ! » . . فصاح وهو يهز كتفيها : « لا تعذبى نفسك هكذا ، أرجوك . أقسم لك أنى ما كنت إلا

صادقا . أنا لا أخاف اتهاماتك ، بل أخاف ألمك » . ثم توقف عن الكلام وأخذ يصيخ السمع وقد عقد حاجبيه بعبوس . سمع صوت امرأة تصرخ بصوت حاد ، وكانت تولول وتبكى وتستغيث ، فترك عبدالرحمن ذراعى سامية وأخذ يركض فى اتجاه الصوت . الذى حدث هو أن إيفيت لم تستطع احتمال رؤية فاروق يتبع امرأة أخرى . فتبعته ، لتتجسس عليه . وكانت قد تذرعت أمام زوجها بحجة أنها ستأخذ الطفلة لتغير ملابسها المتسخة ، وحملت الطفلة وأخذت تركض بها باحثة عن فاروق ، فوجدته واقفا على حافة البحيرة ، آملا أن تمر به سهى فى طريق عودتها . وعندما رأى إيفيت قادمة تحمل الطفلة تساءل عابسا : « ماذا تفعلين هنا ؟ » ، فقالت مزمجرة : « بل ماذا تفعل أنت ؟ » . قال بهدوء لامبال : « لاشىء ، كما ترين ! » . قالت بعنف : « بل أنت هنا فى انتظار إحداهن ! » . قال بدهشة : « كيف أنتظرك وأنا لم أعدك بلقاء ! ؟ » . قالت بغيظ : « لا تكن خبيثا ، أنت تعرف من هى التى أقصدها ، لاتدعى الدهشة . هيا قل ، كيف حصلت على وعد منها ؟ » : قال مدعيا عدم المبالاة : « ممن ؟ »

– من سهى ، أنت تعرف ، وأنا أعرف ، أم تظننى بلهاء ؟ أين هى ؟ أين اختبأت ؟ وكيف استطاعت الاختباء قبل مجيئى ، آه الوقحة ، سألقنها درسا لن تنساه !

– تلقنينها درساً لن تنساه ؟ لماذا ؟ وبصفتك من ؟ زوجتى أم قرينى ؟

ومشى مبتعداً عنها بضع خطوات ، وقال وهو ينظر إلى الطفلة التى اتجهت نحو البحيرة : « حاذرى ، ابنتك تتجه نحو الماء ! » . قالت بغضب : « لا تغير الموضوع ، لا تحاول التهرب والتملص ، وإن كنت تظن أنى لن أستطيع أن أسحب أذنها من عظام جمجمتها فأنت مخطئ ، إن كنت تظن بأن سهى تستطيع اختطافك منى فأنت مخطئ :

وإن كنت تظن أن رباطى بك يجب أن يكون الزواج ، وأن الزواج هو الإداة الوحيدة التى تمنحنى فرصة التدخل لإنقاذك من تلك الحشاشة ، فأنت مخطئ ! » . . فقاطعها بعنف : « أرجوك ، أرجوك ، أنا لا اسمح لأى إنسان بالتدخل فى خصوصياتى. أنا لا أسمح حتى لأبى بالتدخل ، أتفهمين ؟ » . . وكانت الصغيرة قد اقتربت كثيراً من الحافة ، ومدت يدها لالتقاط زنبقة قريبة منها ، فانصاعت الزنبقة ، وأخذ جذرها ينسحب وراءها كحبل طويل مشدود بطرفها . فأخذت الطفلة تسحبه وهى تبتعد عن الحافة ، وأخيراً انقطع الساق بعد أن امتد حوالى مترين .

وعادت الصغيرة إلى الحافة ، وألقت ببقية تفاحة كانت تمسك بها ، وامسكت بزنبقة أخرى . . بينما واصلت «إيفيت» جدلها مع فاروق فى تشنج : « وها أنت ذا تقول بكل وقاحة إنها جميلة وساحرة ! ألم تقل إن جمال المرأة فى أصلها وفصلها ؟ ألم تقل إن جمال المرأة فى ليونتها ورقتها ؟ وإن لسهى خشونة رجل ذى شاربين يستطيع أن يقف عليهما صقران . ألم تقل هذا ؟ أم أنك نسيت ؟ إذا كنت نسيت فسأذكرك بذلك، وأذكرها هى ! بل انك قلت أيضاً إن أمها حقيرة تشبه الخادمات اللواتى يعملن فى منزل والدى ، وإن والدها سكير يدمن الخمر ويضرب زوجته ! إذا كنت نسيت هذا ، فسأذكرك به وأذكرها . . وقلت أيضاً إن نوعية سهى لا تعجبك ، النوعية الخارجة عن كل عرف وكل تقليد ! »

أطلق فاروق قهقهة طويلة وتساءل : « أنت تقولين هذا ؟ أنت ؟ » ، فقالت وهى تفتح عينيها على سعتهما : « ماذا تقصد ؟ قل ، ماذا تقصد ؟» قال باسما : « وماذا لو عبثت قليلا ؟ لست زوجتى لتتحكمى فى ! » . قالت والاحمرار يطفح فوق وجهها : « بل أكثر من زوجتك ، فالزوجة تكسب ولا تخسر ، وهى عندما تعطى لا تتحدى ولاتتعدى ، أما أنا فقد ضحيت بالكثير فى سبيلك ، ثم إنك تحبنى ، ألا تحبنى ؟ » .

وأخذت دموعها تتدحرج على وجنتيها بمذلة ، فقال وهو يقترب منها : « طبعا ، أنا أحبك كثيراً ، وأنت تعرفين هذا ، ولكن يجب علينا مراعاة الظروف قليلا ، يحسن فى رأيى أن تكون لى علاقة مع امرأة أخرى لكى أبعد الشبهة عنك ! » . . فقالت وهى تنشج باكية : « ولكنى لا أطيق هذا ، لا أطيق رؤيتك مع امرأة أخرى ! » ، فقال يهدئها : « حسنا ، حسنا ، ولكن، ماذا لو ارتاب زوجك ؟ صباح ذاك اليوم قال لى والدى إن المدينة كلها تلغط فى الموضوع ! لذلك فمن الأفضل أن يرانى الناس مع امرأة أخرى ، على الأقل فى هذه الفترة بالذات ! »

– ولماذا هذه الفترة بالذات ؟

قال مهمهماً : « ربما نلت كرسيًّا فى البرلمان . ليس ذلك مؤكداً ، بل إنه مجرد احتمال . ولكن المهم هو سمعتك ، التى يجب المحافظة عليها ، ولكن ، أين ابنتك ؟ لقد غابت عن عينى رغم أنى كنت أتعمد مراقبتها . . »

تلفتت إيفيت حواليها ، ونادت بصوت منخفض : « نينا . . نينا. . » ودارت تبحث عنها وراء الأشجار والصخور . . وعندما اقتربت من الحافة وجدت بقية التفاحة هناك ، ولمحت طرف ثوب أزرق حريرى يطفو على وجه البحيرة على بعد أمتار من الحافة . فأخذت تصرخ منادية ، وكان فاروق قد اقترب منها وأصبح بجانبها تماما ، وعندما حاولت النزول إلى الماء شدها إلى الوراء وصاح : « ستموتين ! » . . وكانت الطفلة قد لفظت أنفاسها منذ دقائق ! وأخذت إيفيت تطلق صرخات مدوية وهى ترى طرف الثوب الأزرق أمامها ولا تستطيع الوصول إليه ، فقد تشبث « فاروق » بها كى لاتنزل إلى الماء ، فأخذت تصفعه كنمرة متوحشة ، وتعض ذراعيه وهى تتلوى محاولة الإفلات . . فقال وهو يقاوم حركاتها العنيفة : « لقد ماتت وانتهى الأمر ، ألا ترين هذا ؟ فلا حركة تصدر عنها ولا إشارة توحى بالحياة . وموت واحدة خير من

موت اثنتين ! » : : فجحظت عيناها ، واصفر وجهها ، وأخذت تلهث وهى تحاول من جديد الوصول إلى الطفلة . . وكانت حركاتها غاية فى العنف والقوة ، وصراخها يملأ الجو شؤما وضجيجا . وحاولت التملص من بين ذراعيه بأن ارتمت على الأرض ، فتدحرج معها بضعة أقدام ، ووقعا على الحافة المبتلة وهما يتصارعان كحيوانين شرسين ، وهى تطلق صرخات مدوية كعواء كلب جريح يتوجع !

وصل عبد الرحمن ورأى المشهد ، وفهم الموقف ، فأمسك بالأم الملتاعة محاولا توعيتها وردها إلى صوابها ، فأخذت تصرخ مستغيثة بزوجها الذى كان يركض فى اتجاههم وخلفه ثلة من الفلاحين والصبية : وقفز شكرى إلى البحيرة رغم تحذير عبد الرحمن ، فلم يبق منه فوق الماء سوى رأسه . والتفت سيقان الزنابق وأغصانها حول عنقه وجسمه وذراعيه كأذرع أخطبوط جائع ، فأخذ يقوم بحركات بطيئة ثقيلة للوصول إلى الطفلة . كان الماء ضحلا ولزجاً ، وجذور الأعشاب كثيفة ومتراصة ، والحركة فى ماء كهذا تكاد تصبح مستحيلة ، ولكنه كان قوى البنية ويجيد السباحة ، وأمامه طفلته التى يحبها أكثر من أى شىء فى العالم ، فأخذ يقوم بحركات عنيفة يائسة ، ويضرب الماء الثقيل المعشوشب بذراعيه المقيدتين بالأعشاب والحشائش ، وقدماه ترفسان بقوة ، وكفاه تشدان الأعشاب الأمامية فى محاولة لجذب الأعشاب وما عليها . واقتربت الجثة الصغيرة فأمسك بطرف الثوب وشده إليه ، وأمسك باليد الصغيرة الباردة ، فأحس بسكاكين حادة تطعن قلبه ، وأخذ شعره يخز جلدة رأسه وصدغيه كشوك متوقد ، فاندفع يناديها وهو يرفع رأسها إلى أعلى : « نينا . . نينا . . أجيبى ! » . لكن الطفلة لم تجب ، فقد كانت تحلم بعالم أكثر نظافة ، وبأم أكثر حنانا . وكانت المجموعة كلها ترقب الموقف على الحافة وقد اجتمع عشرات الفلاحين وهم يحملون العصى الطويلة يمدونها لشكرى كى تساعده على الرجوع . وكان وجه الصغيرة محتقنا ، ورقبتها مزرقة ، ومن فرجة الفم

المفتوح تظهر أسنان صغيرة بيضاء . وأخذ شكرى يهز الرأس بيديه : « نينا . نينا ! » . . وصاح عبد الرحمن يخاطبه : « اسحبها وارجع : أمسك بالعصى ، هيا أمسك بالعصى ، لاتنس نفسك ، سنحاول إنقاذها على الشاطىء ، إرجع أنت ! » . . فرفع شكرى الجثة على كتفه وهو يشدها بذراعه ، وأمسك بالعصى الممدودة إليه وأخذ يضرب الماء الضحل بقدميه . وكانت إيفيت تجلس على الأرض وقد غطى الطين وجهها وثيابها ؛ وعلقت الأعشاب بشعرها . وكانت تبكى وتولول ، ثم بدأت تطلق شهقات حادة يرتج لها جسمها كله ، فأمسكت سامية بها وشدتها إلى صدرها وأخذت تواسيها وتهدئها ، بينما ركعت بجانبها كل من نسرين وسميرة . . ثم ألقت إيفيت بجسمها على الجثة الصغيرة الملقاة على الأرض وأخذت تشدها إلى صدرها وهى تلف الذراعين الصغيرين حول عنقها ، ثم راحت تناديها ، وتهدهدها ، وترجرجها على صدرها ، أملا فى إيقاظها ! . . ومرت ساعة وهم فى هذه الحال ، أصيبت إيفيت أثناءها بالإغماء ، كما اصيبت سهى بالتشنج . وكان « ربيع » يحاول إسعاف الاثنتين معا ، بينما شد شكرى الطفلة إلى صدره وأخذ يشهق ، وأخيراً حمل الجثة الصغيرة وشدها إلى صدره ، ثم دفن وجهه الباكى فى عنقها وبدأ يسير فى اتجاه القرية ، فتبعته إيفيت وهى تجرجر قدميها وأحزانها ، وإلى جانبيها التفت النسوة والصديقات . وبدأ صبية القرية يتراكضون ، ووقف المارة يحدقون فى الموكب الكئيب بفضول . وعندما مر الجمع أمام مخفر الشرطة المتواضع أوقفهم رجال البوليس وطلبوا شهودا للحادث ، فدخل عبد الرحمن ومعه علاء الدين وأحد الفلاحين ؛ وأجريت اتصالات . وتبودلت الأوامر والإشارات . ووجد عبد الرحمن نفسه بعد ساعات فى غرفة ضيقة من سجن (نابلس) الكبير ، وأحد الضباط المرتزقة يقول له وعلى وجهه ابتسامة ساخرة لئيمة : « حيث يكون « الميثلونى » تكون المشكلات ! »

وفى الليل نام فى السجن مع اللصوص وقطاع الطرق ، وفى الصباح اقتيد إلى عمان ، وابتدأ التحقيق معه حول موت الطفلة ، ثم انتهى بالتحقيق فى تهم لا أول لها ولا آخر : فهو متآمر ، وخطير ، ويهدد الأمن وسلامة العرش والدولة ! وهو عميل للشيوعية ، كما أنه مجرم سياسى ، ودجال وطنى !

. وفى الليلة التالية ، أركب فى سيارة مغلقة الجوانب ، وأخذ إلى معسكر مجهول فى الصحراء ، حيث أجلس فى غرفة ضيقة لساعات طويلة ، يجيب عن أسئلة المحققين . وبعد التحقيق اقتيد إلى زنزانة مظلمة حيث قدمت له وجبة من الخبز والماء ، ونام على الأرض بدون غطاء ، وفى الصباح أخذ ينتظر بداية التحقيق من جديد .. ولكن بدون جدوى ، فقد مرت ثلاثة أيام دون رؤية أحد ، إلا حامل الخبز والماء ! . وأخذ عبد الرحمن يلح مطالباً بإعادة التحقيق كى يعرف أسباب الاعتقال ، رغم أنه كان أدرى الناس بنوعية هذا الاعتقال ، فقد كان التحقيق بالنسبة إليه أخف وطأة من مرارة الانتظار !

ومرت الأيام ، وتلتها الأسابيع ، ثم الأشهر .. ثلاثة أشهر فى الزنزانة أخرج بعدها ووضع فى معسكر ضخم ملئ بالسجناء . وعلم ساعتها أنه فى معتقل (الجفر) السياسى ، وأن حكاية اعتقاله القديمة قد أعيدت ، فبات معزولا عن العالم ، وبات يشبه « الحى الميت » !

وبعد أربعة أشهر وصلته رسالة من سميرة . كانت مقتضبة ، ولا تحوى إلا الضرورى من الأخبار : « نحن بخير لكننا قلقون عليك . علاء الدين ووالدته يسألون عن صحتك . ما أخبارك ؟ نرجو أن تكون فى حال حسن . الجميع يسألون عنك ، ونحن بانتظارك . » . . وعجب لأن التوقيع كان باسم سميرة وليس سامية ، وليس سهى ! أين سامية ؟ وماذا حل بسهى ؟ سامية ما زالت تحمل نفس الانطباع ، وسهى قد أصبحت مدمنة ولا ريب ، وإيفيت التعيسة ماذا فعلت بعد ذاك الدرس المريع ؟ وشكرى ؟وفاروق ؟

ومضى شهر آخر ، ثم تسلم من سميرة رسالة أخرى ، كانت أطول من سابقتها : « أعمل بالتدريس كسابق عهدى ، و« ربيع» غادرنا إلى انجلترا ليتزوج بمن يحب ، بعد أن أخليت طرفه ، ووعد بإرسال بقية النقود.. سهى سافرت إلى سوريا للعلاج ، وفاروق نال كرسيا فى البرلمان . إيفيت وزوجها على وفاق الآن . وجميعنا قلقون عليك ، مشتاقون إليك ، وبانتظارك » .

عجبا ! وسامية؟ والمكتبة ؟ ونسرين ؟ ماذا حل بهؤلاء ؟ لارسالة من سامية ! لا سؤال ، لا قصاصة ! وبعث برسالة صغيرة لسميرة تحوى تساؤلاته ، لكن الردعاد مقتضبا كالعادة ، وخلوا من أى ذكر لسامية : « قلقون عليك. حصلت على إذن لرؤيتك بواسطة فاروق ، قلوبنا معك » .

* * *

وفى صباح يوم كئيب مظلم اقتيد إلى غرفة الانتظار . لم يكن فى الغرفة إلا لوح خشبى له أرجل مقوسة . فجلس على طرفه بإعياء وأخذ ينتظر الزيارة الموعودة . كانت الغرفة ضيقة ، جدرانها مطلية بلون أخضر كالح ، والنوافذ مسدودة بألواح خشبية قذرة ، والبلاط ذو لون معتم أجرد ، وقد تكسرت بضع بلاطات عند العتبة حيث يقف جندى ضخم الجثة يسد الباب بطوله وبندقيته. ودخلت « سميرة » وحدها ، وهى تتلفت حواليها بفضول . فوقف عبد الرحمن بإعياء وابتسم ، ومد يدا هزيلة معروقة ، فصافحته سميرة وهى تحاول الابتسام مشجعة ، لكن بسمتها جاءت فى شكل دمعة ، ثم ألقت بنفسها على كتفه وأخذت تنشج : « أستاذ ، أستاذ ، لا أدرى ماذا أقول ! » . وراحت تشهق وهى تخبئ رأسها فى ثيابه القذرة التى تغطى صدره النحيل ، ثم قالت وهى تمسح دموعها : « أحضرت لك جبنا ودجاجا وسجائر . وقد رجوت الجندى أن يوصلها إليك ، ولا أعلم إن كان سيفعل بها ما فعله فى المرات السابقة ! ألم يصلك منى شىء؟ لقد بعثت لك بسجائر وحلوى » ..

ثم توقفت عن الكلام وتبادلت وإياه نظرة طويلة ، وقد أخذت دموعها تنساب على وجهها بغزارة ، وقالت : « انك تبدو معتلا . سأحاول ما أمكن ـ بواسطة فاروق ـ كي يسمحوا لك بدخول المستشفى العسكرى ، فالمستشفى أضمن» . لكنه هز رأسه وقال بشرود : « نعم » . . وجلسا على حافة اللوح الخشبي المتراقص : هو ببنطلون بنى كالح اللون ، وقميص أبيض قذر الياقة والصدر ، وقد اصفرت الأكمام تحت الابطين . وغطت حافة الأكمام طبقة سمراء قذرة من أثر احتكاك القماش باللحم المتسخ . وكان حذاؤه أيضاً مغبراً قذراً ، أما شعره فكان حديث القص ، ولحيته حليقة (ربما خصيصا من أجل هذه الزيارة ، وحتى يراه الزوار بشكل لائق !) . . وكان فى ذقنه جرح موسى صغير ، وتحت عينه ندبة ملتئمة لكنها ما تزال حمراء شاحبة . . وقال بشرود : « وسامية ؟ أين هى ؟»

فنظرت سميرة إلى أظافرها وأجابت بوجل : « سامية ؟ . . إنها لم تأت ! » . فقال بإصرار : « اين هى ؟ لم لم تكتب ؟ لم لم تسأل ؟ » . فأجابته سميرة ، وهى تستدير بوجهها : « سامية وسهى . . حدثت لهما مشاكل ، أشياء لا تهمك كثيراً . » . . ففتح عينيه وتساءل بحذر : «كيف لا تهمنى ؟ هيا قولى ما لديك ، قولى ! » ، فنظرت إليه وقالت : « أستاذ ، يكفيك ما أنت فيه ، دعك منهما ! » . . لكنه أمسك بذراعها وضغطها ، وتساءل : « ماذا حدث ؟ ماذا حدث ؟ » . فقالت بتردد : « يبدو أن سامية لديها فكرة خاطئة تجاهلك ، وسهى كذلك . » . . فتساءل بدهشة : « ماذا تقصدين ؟ هيا فسرى ، صارحينى بما لديك ، لا تخافى من شىء ! إن كنت تخشين إيلامى ، فكونى على ثقة من أنى سأحتمل . لقد احتملت الكثير ، وسأحتمل ما لديك ! » . قالت سميرة بخوف : « سامية باعت المكتبة وسافرت لزيارة أقاربها فى أمريكا ! » .

. . هب واقفا كمن لدغته أفعى ، ثم عاد ، وجلس فى مكانه بصمت وذهول ، وتمتم : « آه . . للمرة الثانية ، للمرة الثانية ؟ لا يلدغ

المؤمن من جحر مرتين ، أما أنا فقد لدغت! » ، وأمسك رأسه بين كفيه ، وأسند ذراعيه إلى ركبتيه ، وغرق فى صمت عميق ! .. فقالت سميرة مدافعة عن سامية : « سامية مازالت تحبك! وهى لم تترك البلاد إلا وهى فى حال سيئة جداً . صحتها أصبحت معتلة ، وأعصابها باتت تهدد بالانهيار . لقد تبادلت وسهى اتهامات كثيرة فى احدى المناسبات ، والحقيقة أننى خجلة مما حدث ، وما كنا نعلم أنك تكن لسهى عاطفة خاصة » .. فنظر إليها مبهوتا وتساءل : « أنا أكن لسهى عاطفه خاصة ؟ » وصمت فترة وهو يحدق أمامه بغضب ، ولكنه عاد فأطلق قهقهة جافة وقال : « أنا أكن لسهى عاطفة خاصة؟ أهذا ماقالته سهى؟ ». قالت سميرة مواربة : « لا ، بل هذا ما أصبح متداولا . » . فصاح من بين أسنانه : « آه ، يا للأغبياء» . وشد قبضته بغضب ، وتساءل :

« وأنت ؟ أتعتقدين مثلهم أنى « دون جوان » حقير ؟ أتصدقين هذا ؟ » . فهزت رأسها بصمت وقالت : « أنت أستاذنا الكبير ، أنت معلمنا ، أنت قنديلنا . » . . لكنه هز رأسه بمرارة ، منكرا : « أستاذ من ؟ معلم من ؟ قنديل من ؟ للأستاذ تلاميذ ، وللمعلم مقتدون ، وللقنديل مهتدون ، وأنا أستاذ بلا تلاميذ ، ومعلم بلا مقتدين ، وقنديل بلا مهتدين ، فهل أظل أستاذا ومعلما وقنديلا ؟ .واستدار بوجهه إليها ثم استطرد مبتسما : « صغيرتى ، صديقتى ، إذا شئت فأنت تلميذتى الوحيدة .» . . فقالت وهى تدارى فى أعماقها الخجل والمرارة والارتباك : « كلنا تلاميذك يا أستاذ ، ولست وحدى! » .. لكنه تساءل بمرارة : « كلكم؟ أىّ كلكم؟ من فيكم ؟ تلفتى حوالى وانظرى أين أنا وانظرى أين هم ، وابحثى عما تركه وجودى من أثر ، وما تركه فنى من أثر . أترين شيئا يدل على أثر ، ولو ضئيل ؟ » فأمسكت بذراعه تشده وهى تقول : « أستاذ ، لا تكن متشائما ، لقد خلفت لنا أشياء كثيرة ، وقد حققت أشياء كثيرة ، وإن كنت لاترى ذلك الآن فسوف يراه غيرك ، سوف تراه الأجيال القادمة ! » . .فقال بعد

فترة صمت : « مرورنا فى هذا العالم إنما هو ضربة حظ ومصادفة ، وبقدر ما لدينا من حظ ، نصيب الهدف . وأنا لم أصب الهدف ، الذى أصابه فاروق وأمثاله . . فانظرى أين أنا وأين هو ! »

ثم تلفت حواليه وقال : « هذا ما نلت ، أترين ؟ » . ثم قهقه بجفاف وقال : « وأبلغ ما فى الموضوع أنى لم أطلب شيئا لنفسى . لقد طلبت لهم ، لأولئك الذين لايحركون ساكنا ، ولا يسألون ولايجيبون ، لتلك الأغلبية غير المبالية . . ولكن هناك أيضاً المعذبون ، والمتعبون ، ومن أجل هؤلاء انتهى بى المطاف إلى هنا . . ثم استدار إليها وتساءل : « وأنت ، ماذا نلت ؟ أنت الوحيدة التى طلبت إرضاء عقلها وضميرها ، وقد كان هدفك مشابها لهدفى ، ووضعك مشابها لوضعى ، وإيمانك مشابها لإيمانى . . فانظرى أين نحن ، أنت مدرسة متواضعة مهملة منسية ، وأنا . . أنا هنا ! »

وصمت ، وقد أخذ يزفر بمرارة . . فقالت : « أستاذ ، لقد طلبنا هدفا ، وقد أصبنا الهدف ! وإن كانت الظلمة كثيفة وحالكة ، فإن هذا لا يدل على فشلنا وخيبتنا ، فقد أصبنا الهدف ، وقد كان الهدف هو إرضاء العقل والضمير ، وهذا ما فعلناه ، هذا ما نفذناه . . »

ومرت فترة صمت . . ثم فتحت سميرة حقيبة يدها وأخرجت منها علبة سجائر ، وعادت تقول بخجل : « أستاذ ، إن لم يعطوك ما أحضرت لك ، فهاك هذه ..» .. فابتسم وقال وهو يمد يده : « نعم ، أعطينى سيجارة ، فأنا بحاجة إليها ! » . وأخذ يمتص اللفافة باستغراق ، وقال بعد فترة : « إه ، ما أسخفنا ! كم تؤثر فينا الأحداث التافهة العابرة ؟ وكم تدمينا الضربات ، حتى ولو وجهت إلينا من الأيدى الضعيفة ! هه ، ماذا لو ذهبت سامية ؟ وماذا لوكذبت سهى ؟ ماذالو ظن الناس بى الظنون ، ولفقوا لى التهم ؟ ماذا لولم يسأل الناس عنى ، ولم يعبأ الأصدقاء بأحزانى ؟ ولم الحزن أصلا ؟ علام ؟ وهل يستحق الألم تألمنا ؟ » .. ثم التفت

إليها وابتسم قائلا : « إننى أبدو سخيفاً ، أليس كذلك ؟ » : : ورآها تحدق فى وجهه بألفة واستكانة ، فقال بعطف : « آه ما ألطفك أيتها الصغيرة ! أتمنى لو كانت السعادة بيدى ، إذن لأعطيتك إياها بدون تردد ، فأنت رائعة ، ألست رائعة ؟ » . فابتسمت وقالت بمرح كئيب : « ربما » ، وضحكت ضحكة صغيرة ، فقال وهو يتأمل وجهها الصبيانى الأسمر : « نعم ، أنت رائعة ، فلك نفس نظيفة كعيون النرجس ، وفى رأسك عقل يتألق كالذهب ، ولك قلب واسع باستطاعته الاحتمال ، والحب ، واستيعاب الرحمة . . ولئن كان الربح من نصيب الزنادقة ، فالشرف والطوبى لنا ! » . . فقالت هامسة بلطف : « أعرف » . فقال مفكراً : « أنت تعرفين الكثير ، فهل الكثيرات يعرفن كما تعرفين ؟ » . قالت بتردد : « لسن جميعا هكذا ، فبعضهن ينسين ما ينبغى ذكره ، ويذكرن ما ينبغى نسيانه ! » . . فقال وهو يهز رأسه : « أجوبة موزونة ، من رأس موزون . والآن ، صارحينى : أسعيدة أنت ؟ » . . فقالت وهى تطأطئ برأسها : « وكيف يكون الإنسان سعيداً ، وفى العالم كل هذا الخطأ ؟ » . فقال مشجعاً : « الخطأ أنواع ، فأى الأنواع تقصدين ؟ » : قالت ببطء : « كل خطأ يجر إلى خطأ ، حتى أصبحت حياتنا سلسلة من الأخطاء ! » . . فقال باسما : « وماذا باستطاعة الإنسان النظيف أن يفعل كى يخلص العالم من بعض أدرانه ؟ أنت فتاة صغيرة ، متواضعة ، محدودة الإمكانيات ، محدودة الطاقات ، وأنت امرأة فى مجتمع شرقى ، أى عصفور فى قفص ، وأدنى لكزة قد تنتزع ريشة من جناحيك . . وماذا باستطاعة عصفور فى قفص أن يفعل ؟ »

قالت ، وابتسامة مضيئة على وجهها ، وفى عينيها بريق من يخرج الكلام من أعماق قلبه :

– يغرد !

فهز رأسه باسماً ، وقال :

— نعم ، أنت عصفور فى قفص ، وأنا — إن شئت — غراب فى قفص !

قالت ضاحكة :

— لست غرابا يا أستاذ ، بل أنت بلبل !

قال وهو يشد على يدها مصافحا :

— إذن ، فلنغرد معا !

تمت

تم إيداع هذا المصنف بدار الكتب والوثائق القومية
تحت رقم ٥٦٥٣ /١٩٧٣

مطابع دار المعارف بمصر
سنة ١٩٧٤

من خلال صفحات هذه الرواية الرائعة ، وتحت ظلال أشجار السّرو و الصنوبر، وغابات الجوافة ، وبيّارات البرتقال ، وبساتين اللوز ، والوهاد الخضر المزدانة بشقائق النعمان ... يتضوع عطر مدن فلسطين الحبيبة : (القدس) الشامخة .. و(رام الله) .. و(أريحا) .. و(نابلس) .. وشاطئ نهر الأردن .. والبحر الميت .. والضفة الغربية .. حيث نعيش أحداث القصة ونتعرف على بطلاتها وأبطالها : نسرين ، نزار ، بشّار ، سُهى، سامية ، عبدالرحمن ، سميرة، ايڤيت ، وفاروق !